جوزيه ساراماغو

المفكرة

مذكرات

ترجمة : عدنان حسن





خوسيه ساراماغو

المفكـــــرة

ترجمة : عدنان حسن



■ خوزيه ساراماغو

■ المفكـرة

■ ترجمة: عدنان حسن

■ الطبعة الأولى 2014

■ الإخراج الضوئي: هـالا خليـل

■ الناشـــر: دال للنشـــر والتوزيـــع

سـورية ـ دمشق ـ ص.ب: 29170

هـاتـف: 00963 944 464830

البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

العنوان الأصلي للكتاب بالإنكليزية

JOSE SARAMAGO,

The Notebook, Verso 2010





مقدمة

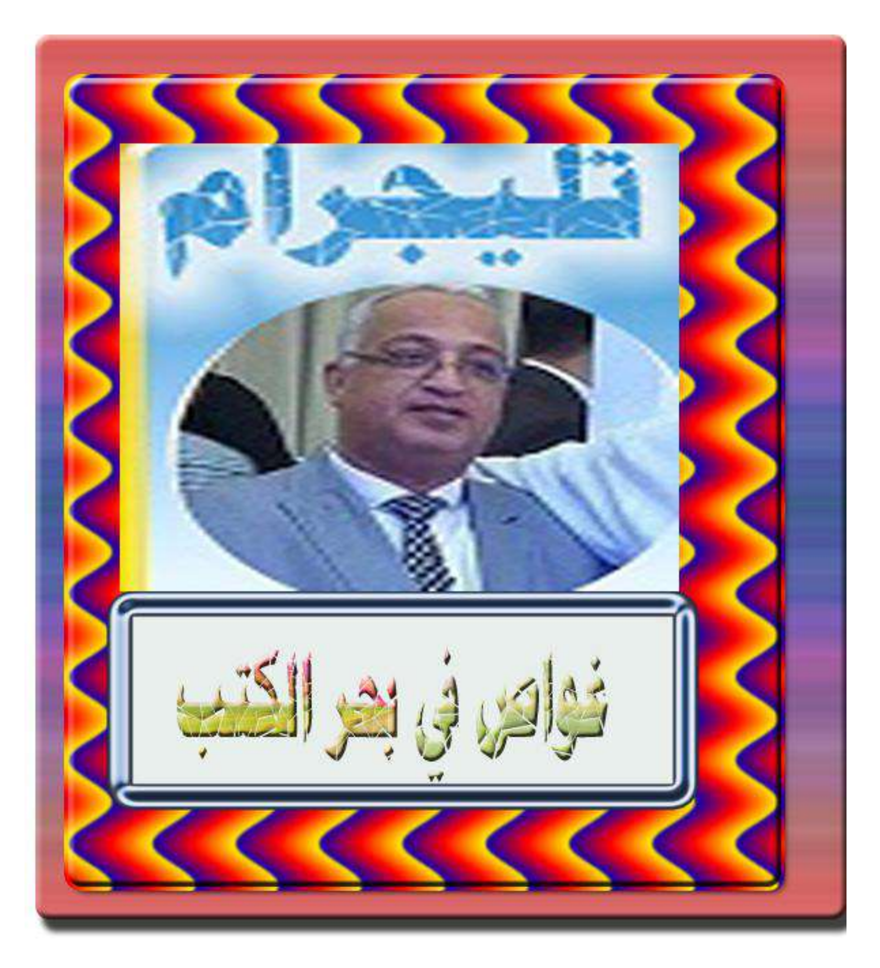
عندما استوطنت وبيلار في لانزاروتي في شباط 1993، في حين بقينا نحتفظ ببيتنا اللشبوني، قدم لي شقيق زوجتي وشقيقتها، خافيير وماريا، اللذان كانا قد سكنا هناك بضع سنوات، مع لويس وخوانخو، اللذان وصلا مؤخراً، قدما لي مفكرة. وذلك لكي أستعملها لتدوين يومياتي في جزر الكناري. لقد اشترطا شرطاً واحداً فقط: أن أذكرهما في كل مرة للحظة.

لم اكتب شيئاً أبداً في تلك المفكرة، لكن بفضل هذه الهدية، وليس أي شيء آخر، ولدت **مفكرات لانزاروتي**[1] وعاشت لمدة خمس سنوات. اليوم أجد نفسي في وضع مشابه بشكل غير متوقع. مع ذلك، في هذه المرة كانت القوى الدافعة هي بيلار وسرجيو وخافيير، الذين يهتمون بالمدونة. لقد أخبروني أنهم قد حجزوا لي فضاء مدونة وينبغي

---

[1] مفكرات لانزاروتي، المنشورة في التسعينات، هي رواية لحياة ساراماغو ككاتب على جزيرة. لم تترجم بعد إلى الإنكليزية.

أن أكتب لأجلها ـ تعليقات، تأملات، آراء بسيطة حول هذا وذاك؛ باختصار كل ما يخطر ببالي. لكوني أكثر انضباطاً مما أبدو غالباً، أجبت بنعم، بالفعل. سأفعل ذلك على شرط ألا تتطلب هذه المفكرة نفس الاجتهاد الذي أرغمت نفسي على إظهاره مع الآخرين. بسبب ما يستحقه ذلك، يمكنكم التعويل علي.



أيلـول / سـبتمبر 2008


تليجرام
مكتبة
سور الأزبكية

15 أيلول : كلمات من أجل مدينة

فيما كنت أخلط القصاصات القليلة من الورق التي فقدت صفة الجدة، وقع نظري على مقالة حول لشبونة كتبتها منذ سنوات قليلة، ولا أخجل من الاعتراف بأنها حركتني. ربما لأنها ليست مقالة في الواقع، بل رسالة حب ـ تعبر عن حبي للشبونة. لذا قررت أن أتشارك بها مع أصدقائي وقرائي، بجعلها علنية مرة أخرى، وهذه المرة على صفحة الإنترنت غير المحدودة، وأدشن بها فضائي الشخصي على هذه المدونة.

كلمات من أجل مدينة

كان ثمة زمن لم تكن فيه لشبونة تعرف باسم ليسبوا Lisboa . فقد كانوا يدعونها اوليسيبو olisipo عندما وصل الرومان إلى هناك، وكانت تدعى اوليسيبونا Olissipona عندما حكمها المغاربة، الذين بدأوا على الفور يقولون آشبونا Aschbuna، ربما لأنهم لم يكن بمقدورهم أن يلفظوا تلك الكلمة البربرية (اللاتينية). لكن في عام 1147، عندما هُزم المغاربة بعد حصار دام ثلاثة أشهر، لم يُبدل اسم المدينة تماماً؛ لو كان الرجل الذي سيصبح أول ملوكنا قد كتب إلى أسرته يعلن الخبر، لكان على الأرجح قد صدر رسالته بعبارة أشبونا، 24 أكتوبر، أو أوليسيبونا،

وليس ليسبوا أبداً. متى بدأت لشبونة كونها لشبونة في القانون وفي الواقع؟ ستمر سنوات قليلة على الأقل قبل ولادة الاسم الجديد، كما ستمر سنوات قبل أن يصبح الفاتحون الغال برتغاليين.

قد يظن المرء أن هذه التفاصيل التاريخية غير هامة، لكنها تهمني كثيراً. وليس ما يهمني هو المعرفة فقط بل، في الواقع، رؤية ـ بالمعنى الدقيق للكلمة ـ كيف كانت لشبونة تتغير منذ تلك الأيام. لو وجدت السينما في ذاك الوقت، لو كان مدونو الأخبار القدماء مصورين، لو تم تسجيل الألف تغيير وتغيير التي مرت بها لشبونة على مدى قرون، لكنا قادرين على رؤية لشبونة وهي تكبر وتتحرك مثل كائن حي عبر ثمانية قرون، مثل تلك الأزهار التي نراها على التلفزيون وهي تتفتح في ثوان قليلة فقط، من برعم مغلق ساكن إلى جلال نهائي من الأشكال والألوان. أعتقد أنني كنت سأحب لشبونة حباً يفوق كل شيء آخر.

إننا، بالمصطلحات الفيزيائية، نسكن الفضاء، أما بالمصطلحات العاطفية فنحن مسكونون بالذاكرة. إنها ذاكرة مؤلفة من مكان وزمان، ذاكرة نعيش بداخلها، مثل جزيرة بين محيطين ـ أحدهما هو الماضي والآخر هو المستقبل. يمكننا أن نبحر في محيط الماضي الحديث بفضل الذاكرة الشخصية، التي تحتفظ بذكرى الدروب التي سلكتها، لكن لكي نبحر في الماضي البعيد يتعين علينا أن نستخدم ذكريات راكمها الزمن، ذكريات مكان يتغير باستمرار، عائمة كالزمن نفسه. سيكون شريط لشبونة هذا، الذي يضغط الزمن ويمدد المكان، هو الذاكرة الكاملة للمدينة.

إن ما نعرفه عن الأمكنة هو كيف نتقاطع معها على مدى فترة زمنية معينة في الفضاءات التي تشغلها. لقد كان المكان موجوداً، فظهر

الشخص، ثم غادر الشخص، واستمر المكان، لأن المكان قد صنع الشخص، والشخص قد حول المكان. عندما كان علي أن أعيد خلق فضاء وزمن لشبونة حيث عاش ريكاردو ريس عامه الأول، عرفت مسبقاً أن مفهومينا للزمن والمكان لن يتقاطعا ـ أي مفهوم المراهق الخجول الذي اعتدت أن أكونه، المطوق داخل طبقته الاجتماعية الخاصة، ومفهوم الشاعر الشفاف واللامع الذي كان يتردد على أعلى مستويات الروح. كانت لشبونتي دائماً هي لشبونة الجيران الفقراء، وعندما دفعتني الظروف، بعد سنوات عديدة، إلى العيش في بيئات أخرى، كانت الذاكرة التي فضلت دوماً أن أحتفظ بها هي ذاكرة لشبونة سنواتي الأولى، لشبونة الناس الذين يملكون القليل ويشعرون الكثير، الذين لازالوا ريفيين في عاداتهم وفي فهمهم للعالم.

ربما من غير الممكن أن أتكلم عن مدينة دون أن أستشهد بعدد قليل من المحطات البارزة في تاريخها. هنا، بالكلام عن لشبونة، لم أعد أذكر سوى تاريخ واحد، تاريخ بداياتها البرتغالية، يوم سميت لشبونة لأول مرة: خطيئة تمجيد اسمها ليست بتلك الخطيئة البغيضة. فالمسألة الخطيرة هي أن نخضع لذاك النوع من التمجيد الوطني الذي يلجأ إلى المثيرات الهينة للاستحضار البلاغي، في غياب أي أعداء حقيقيين تمارس عليهم السلطة المفترضة. فالبلاغة المصعّدة، التي ليست شيئاً سيئاً بالضرورة، تجلب معها، مع ذلك، إحساساً بالرضا الذاتي الذي يؤدي إلى خلط الأقوال بالأفعال.

في ذاك اليوم التشريني، خطت البرتغال ـ التي كانت بالكاد قد بدأت ـ خطوة عظيمة إلى الأمام، خطوة حاسمة لدرجة أن لشبونة لم تفقد مرة أخرى. لكننا لن نسمح لأنفسنا بالغرور النابوليوني إلى درجة

الهتاف: «ثمانمائة عام تطل علينا من علياء القلعة»، ونربت على ظهورنا لكوننا قد بقينا أحياء طوال هذه الفترة..... بالأحرى نتذكر أن الدم قد أريق، أولاً على طرف واحد ومن ثم على الطرف الآخر، وأن كلي الطرفين يشكلان الدم الذي يجري في عروقنا. إننا، نحن ورثة هذه المدينة، المتحدرون من المسيحيين والمغاربة، من السود واليهود، من الهنود والشرقيين، باختصار، من كافة الأعراق والمذاهب التي تعتبر صالحة، مع تلك التي سميت فاسدة. سنترك للسلام الساخر لقبورهم تلك العقول المضطربة التي اخترعت منذ زمن ليس طويلاً عيد العِرْق Day of Race لأجل البرتغاليين، ونستعيد بدلاً من ذلك الخليط الرائع، ليس خليط الدم فقط بل قبل كل شيء خليط الثقافات التي منحت البرتغال أساسها، وجعلتها تبقى إلى يومنا هذا.

في الأعوام الأخيرة تحولت لشبونة، نجحت في أن تعيد في ضمائر مواطنيها إحياء القوة التي انتشلتها من المستنقع الذي سقطت فيه. فباسم التحديث، رُفعت الجدران الإسمنتية فوق الجدران القديمة، وشُوهت معالم التلال، وتبدلت المشاهد، وعدلت خطوط الرؤية. لكن روح لشبونة لازالت حية، والروح هي التي تجعل المدينة خالدة. ذات مرة كتب كاموئيس، مبتهجاً بذاك الحب المجنون والحماس الإلهي اللذين يسكنان الشعراء، أن لشبونة كانت «أميرة... بين المدن الأخرى». يكفي أن لشبونة هي ببساطة ما ينبغي أن تكون ـ مثقفة، حديثة، نظيفة، منظمة ـ بدون أن تفقد شيئاً من روحها. وإذا كانت كل هذه الفضائل تتوج بجعلها ملكة، حسناً، فليكن ذلك. في جمهوريتنا، الملكات كهذه سيكن دوماً موضع ترحيب.

17 أيلول : اعتذار إلى تشارلز داروين

الخبر الجيد، كما سيقول القراء السذج، يفترض أنه بعد خيبات كثيرة لازال من الممكن وجود أي خبر جيد. إن الكنيسة الأنغليكانية، الطبعة البريطانية من الكاثوليكية التي تأسست في زمن هنري الثامن، والدين الرسمي للمملكة، قد أعلنت عن قرار هام: إنهم يعتذرون إلى تشارلز داروين، في الذكرى المئوية الثانية لولادته، بسبب معاملته بشكل سيء بُعيد نشر كتابه *أصل الأنواع*، وكم ساءت المعاملة أكثر بعد كتاب أصل الإنسان. ليس لدي شيء ضد كل هذه الاعتذارات التي يبدو أنها تظهر كل يوم تقريباً لسبب أو لآخر، سوى السؤال عن مدى جدواها. فحتى لو كان داروين لازال على قيد الحياة ويميل إلى أن يكون متسامحاً، وهو يقول: «أسامحكم»، فلن يكون بإمكان تلك الكلمات الكريمة أن تمحو إهانة واحدة، تعليقاً واحداً من التعليقات المحقرة الكثيرة التي رُميت عليه. إن المؤسسة الوحيدة التي ستستفيد من هذا الاعتذار هي الكنيسة الأنغليكانية، التي سنرى مخزونها من الإرادة الطيبة يزداد بدون مقابل. مع ذلك، فأنا ممتن لأجل التوبة، مهما كانت متأخرة، التي كان من الممكن ربما أن تحض بنديكت السادس عشر ـ المنخرط حالياً في مناورة دبلوماسية مع العلمانية ـ على أن يطلب غفران غاليليو غاليلي وجيوردانو برونو، وبالأخص هذا الأخير الذي عُذب على الطريقة المسيحية، بالشكل الأكثر تلطفاً، إلى اللحظة التي أحرق فيها على المحرقة.

هذا الاعتذار من قبل الأنغليكانيين لن يسر بمثقال ذرة أتباع مذهب الخلق الأميركيين الشماليين. سيتظاهرون باللامبالاة، لكن من الواضح تماماً أن ذلك يعاكس مخططاتهم. وهو يعاكس مخططات الجمهوريين

الذين رفعوا، مثل مرشحهم إلى منصب نائب الرئيس، راية ذاك الضلال العلمي الكاذب الذي يمر باسم مذهب الخلق.

18 أيلول: جورج. و. بوش، أو عصر الأكاذيب

أتساءل لماذا كان للولايات المتحدة، البلد العظيم في كل الأشياء، في غالب الأحيان مثل هؤلاء الرؤساء الصغار. ربما كان جورج و. بوش أصغرهم على الإطلاق. هذا الرجل، بذكائه العادي وجهله المطبق، ومهاراته التواصلية المشوشة، واستسلامه الثابت لإغراء الهراء الخالص الذي لا يُقاوَم، قدم نفسه إلى البشرية بوضعية راعي البقر [الكاوبوي] المثيرة للسخرية، الذي ورث العالم وظنه بشكل خاطئ قطيعاً من الماشية. لا نعرف فيم يفكر حقاً، وحتى أننا لا نعرف إن كان يفكر (بالمعنى النبيل للكلمة)؛ لا نعرف ما إذا كان مجرد إنسان آلي [روبوت] مبرمج بشكل سيء، يخلط الرسائل التي يحملها بداخله ويبدلها. لكن لنمنح الرجل بعض المصداقية مرة واحدة في حياته، ثمة برنامج واحد في الإنسان الآلي جورج بوش، رئيس الولايات المتحدة، يعمل إلى حد الكمال: الكذب. إنه يعرف أنه يكذب، يعرف أننا نعرف أنه يكذب. لكن لكونه كذاباً مُكْرَهاً، فإنه سيواظب على الكذب حتى عندما يمتلك الحقيقة الأكثر عرياً ماثلة أمام عينيه ـ سيواظب على الكذب حتى بعد أن تكون الحقيقة قد انفجرت في وجهه. لقد كذب لكي يبرر شن الحرب في العراق تماماً مثلما كذب حول ماضيه العاصف والمشكوك فيه، وبنفس انعدام الشعور بالعار. مع بوش تأتي الأكاذيب من كل أعماقه، فهي في دمه. إنه أمير الكذابين. إنه الكاهن السامي لكل الكذابين الآخرين الذين أحاطوا به وصفقوا له وخدموه على مدى

السنوات القليلة المنصرمة.

جورج بوش طرد الصدق من العالم، مدشناً عصر الأكاذيب الذي يزدهر الآن في مكانه. فالمجتمع البشري اليوم ملوث بالأكاذيب، بأسوأ صنف من التلوث الأخلاقي. وهو من بين المسؤولين بشكل رئيسي عن ذلك. الكذب ينتشر في كل مكان مع الحصانة، وقد تحول تماماً إلى نوع من صدق آخر. عندما صرح رئيس وزراء برتغالي ـ لن أذكر اسمه هنا كرمى للإحسان ـ منذ سنوات قليلة إن ((السياسة هي فن عدم قول الحقيقة))، من غير الممكن أن يكون قد تصور أنه في وقت لاحق سيحول جورج .و. بوش هذا البيان الصادم إلى حيلة ساذجة للسياسة الهدبية، بدون أي إدراك فعلي لقيمة الكلمات أو لأهميتها». بالنسبة لبوش، السياسة هي ببساطة إحدى روافع البزنس، وربما أفضلها قاطبة ـ الكذب كسلاح، الكذب كحرس متقدم على الدبابات والمدافع، الكذب يقال من فوق الدمار، من فوق الجثث، فوق آمال البشرية البائسة والمحبطة بشكل أبدي. لا يمكننا أن نكون متأكدين من أن عالم اليوم هو أكثر أمناً، لكن لا يمكن أن يساورنا الشك في أنه سيكون أنظف بدون سياسة رئيس الولايات المتحدة، جورج و. بوش، الإمبريالية والاستعمارية؛ وبدون سياسة الكثيرين ـ المدركين تماماً للخداع الذي يرتكبونه ـ الذين أدخلوه إلى البيت الأبيض. سيحاسبهم التاريخ.

19 أيلول : برلوسكوني وشركاه

بحسب مجلة فوربس Forbes الأميركية الشمالية، مرصد الثروة العالمية، تقارب ثروة برلوسكوني عشرة آلاف مليون دولار. لقد كسبها بنزاهة، بالطبع، وإنْ ليس بدون مساعدة الكثير من الأشخاص

الآخرين، بما في ذلك مساعدتي، على سبيل المثال. نظراً لكون كتبي قد نشـرتها في ايطاليـا دار اينـاودي Einaudi للنشـر، الـتي يملكهـا برلوسكوني الآنف الذكر، فلا بد أنني قد أكسبته بعض المال. إنه قطـرة ماء لامتناهية الصغر في المحيط. بالتأكيد، لكنه كافٍ على الأقل لإبقائه يدخن السيكار، بفرض أنه الفساد ليس رذيلته الوحيدة. بعيداً عمـا هـو معـروف عمومـاً، فأنـا شخصـياً لا أعـرف الكـثير جـداً حـول حيـاة برلوسـكوني، الملقـب بالفـارس Il Cavaliere، ومعجزاتـه. لا بـد أن الشعب الإيطالي الذي أجلسه مرة، مرتين، ثلاث مـرات علـى كرسـي رئيس الوزراء، يعرف أكثر مما أعرف بكثير. حسناً، كما يُقـال غالبـاً، الشعب هو صـاحب السـيادة، وهـو لـيس ذا سـيادة فقـط، بـل حكيمـاً وحصـيفاً، لاسـيما أن الممارسـة المسـتمرة للحقـوق الديموقراطيـة تسـمح للمواطنين بأن يتعلموا بعض الأشياء المفيدة حول كيفيـة عمـل السياسـة وحول الوسائل المختلفة للوصول إلى السلطة. هذا يعني أن الناس يكونون مدركين جيدا لما يريدون عندما يُدعون إلى التصويت. في الحالة الخاصة للشـعب الإيطـالي، بمـا أن مـن نتحـدث عنـه لـيس أي شـخص آخـر (سيأتي الوقت لأجل الآخرين)، فمن الواضح أن المشاعر العاطفية الـتي يكنونها لبرلوسـكوني، والتي أظهروها ثلاث مـرات، منافيـة تمامـاً لأي اعتبار للنظام الأخلاقي. في الواقع، في بلاد المافيا والكامورا، ما الأهمية التي ربما تمتلكها الحقيقة المبرهنة، وهي أن رئـيس الـوزراء مجـرم؟ في بلاد لم يكن فيها للعدالة أبداً الكثير من السمعة الحسنة، من يبالي إنْ كان رئيس الوزراء ينال الموافقة من أجل القوانين التي تهدف إلى الدفاع عـن مصـالحه الخاصـة وحمايتـه ضـد أيـة محاولـة لمعاقبـة تجاوزاتـه وإساءات استخدامه للسلطة؟

اعتاد ايكا دي كويروز Eca de Queiroz أن يقول إننـا إذا أطلقنـا

ضحكة حول مؤسسة، فإنها ستتهاوى. هذا ما كان آنئذ. ما الذي يمكن قوله حول الحظر الأخير - الذي أصدره برلوسكوني - ضد فيلم اوليفر ستون بعنوان W، الذي يعرض هناك؟ هل امتدت سلطات الفارس إلى هذا المدى؟ كيف كان من الممكن أن تُرتكب هذه الأفعال الحمقاء، لاسيما وأننا نعرف أنه مهما يكن عدد المرات التي تطلق فيها ضحكة حول قصر الكويرينالي Quirinale فلن يسقط؟ قد يكون سخطنا عادلاً، لكن ينبغي علينا هنا أن نبذل جهداً لفهم تعقيد القلب البشري. إن فيلم W يهاجم بوش، وبرلوسكوني هو رجل قلب مثلما يمكن لأي زعيم مافيا أن يكونه، هو صديق الرجل الذي لا زال رئيساً للولايات المتحدة وزميله ورفيقه. إنهما صالحان أحدهما للآخر. ما سيكون غير صالح على الإطلاق بالنسبة للشعب الإيطالي هو أن يُجلس برلوسكوني على كرسي السلطة للمرة الرابعة. عندئذ لن تكون هناك كمية من الضحك قادرة على إسعافنا.

20 أيلول : مقبرة بولياناس

ذات مرة، ربما منذ سبعة أو ثمانية أعوام، كان يبحث عنا، أنا وبيلار، رجل من ليون اسمه إميليو سيلفا، الذي كان يسأل عن الدعم من أجل تعهد يخطط للشروع به: العثور على رفات جده، الذي اغتاله الفرانكويون في بداية الحرب الأهلية [الإسبانية]. كان يطلب منا الدعم المعنوي لا أكثر. كانت جدته قد عبرت عن رغبتها في استعادة عظام جده ومنحها دفناً مكرماً. بدلاً من أخذ كلمات هذه المرأة على أنها وصية امرأة عجوز ممرورة، فقد أخذها اميليو سيلفا على أنها أمر من واجبه أن ينفذه، مهما حدث. كانت هذه هي الخطوة الأولى في حركة

جماهيرية انتشرت بسرعة عبر عموم إسبانيا: استعادة عشرات آلاف ضحايا الكراهية الفاشية من الخنادق والوهاد التي دفنوا فيها، وتحديد هوياتهم وتسليمهم إلى عائلاتهم. كانت مهمة جسيمة لم تلق دعماً عالمياً - ويجب ذكر الجهود المستمرة لليمين السياسي والاجتماعي الإسباني لإعاقتها عندما أصبحت واقعاً مرعباً، وذلك عندما كانت تُرفع من الأرض المحفورة والمقلوبة رفاتُ الذين دفعوا حياتهم ثمن الوفاء لأفكارهم ولشرعية الجمهورية. دعوني أقحم هنا - في انحناءة رمزية للكثيرين جداً الذين نذروا أنفسهم لهذا العمل - اسم أنخل دل ريو. وهو أخو زوجتي، الذي أعطى أفضل جزء من وقته لذلك، بما في ذلك تأليف كتابين من الأبحاث حول المختفين والذين قتلوا انتقاماً.

كان من المحتم أن يصبح إنقاذ رفات فيديريكو غارثيا لوركا، المدفون مثل الآلاف الآخرين في وادي فيزنار في مقاطعة غرناطة، شأناً وطنياً حقيقياً. فهو أحد أعظم شعراء إسبانيا والأكثر شهرة على النطاق العالمي، [يرقد] هناك في الصحراء، ذاك المكان الذي نعرفه تقريبا كحقيقة معينة هو الخندق الذي يرقد فيه مؤلف كتاب **قصائد حب غجرية** *Romancero Gitano*، مع ثلاثة رجال آخرين قتلوا رمياً بالرصاص - معلم مدرسة ابتدائية يدعى ديوسكورو غاليندو واثنين من الفوضويين كانا يعملان في المراهنة على الثيران كنخاسين banderilleros، هما خواكين أركولاس كابيزاس وفرانسيسكو غالادي ملغار. مع ذلك، مما يثير الاستغراب أن عائلة غارثيا لوركا قد عارضت دوماً نبش جثته. تُعنى حججهم إلى حد أكبر أو أصغر بما يمكن أن نسميها مسائل اللياقة الاجتماعية، كالتلهف غير السليم لوسائل الإعلام والمشهد الذي سيتم اختلاقه من التنقيب عن الهياكل العظمية، وهذه أسباب جديرة بالاحترام بلا ريب، لكنها، إذا جاز القول، تدحضها

البساطة التي ردت بها حفيدة ديوسكورو غاليندو عندما سئلت في مقابلة إذاعية أين ستأخذ رفات جدها إذا تم العثور عليها: «إلى مقبرة البولياناس». ينبغي علي أن أوضح أن بولياناس، في مقاطعة غرناطة، هي القرية التي كان ديوسكورو غاليندا يعمل فيها وحيث لازالت عائلته تعيش. الصفحات في الكتب هي من أجل التقليب، أما الصفحات في الحياة فهي ليست كذلك.

22 أيلول : أزنار، المعجزة

يمكننا أن ننام بسهولة: فالتسخن العالمي غير موجود. إنه تدخل خبيث من قبل علماء البيئة، جزء استراتيجي من «أيديولوجية الميول التوتاليتارية» [الشمولية] كما يعرفها ذاك المراقب العنيد للسياسة الكوكبية والظواهر الكونية، ألا وهو خوسيه ماريا أزنار. لا توجد طريقة يمكننا بها أن نعيش بدون هذا الرجل. إذ ليس مهماً أن الأزهار ستبدأ ذات يوم بالنمو في الدائرة القطبية الشمالية، وليس مهماً أن الكتل الجليدية العائمة الباتاغونية ستتلاشى، وكل مرة يتنهد فيها شخص يجعل درجة الحرارة البيئية ترتفع بمقدار كسر ضئيل من الدرجة، وليس مهماً أن غرينلند قد فقدت جزءًا كبيراً من يابستها، وليس مهماً أن [موجات] الجفاف والفيضانات المدمرة تزهق عدداً كبيراً من الأرواح، وليس مهماً أن الاختلاف يقل شيئاً فشيئاً بين فصول السنة - لا شيء من ذلك يهم إذا كان الحكيم المميز خوسيه ماريا ينكر وجود التسخن العالمي. بناء على صفحات متجعدة من كتاب ألفه الرئيس التشيكي فاكلاف كلاوس سيقوم أزنار نفسه بتقديمه في لفتة جميلة من لفتات

التضامن العلمي والمؤسساتي. لازلنا نصغي. وحتى حينه لا زال يعذبنا شك خطير جداً، حان الوقت لكشفه لتأمل القارئ. ماذا يمكن أن يكون الأصل، النبع، المصدر لكل موقف الإنكار المنهجي هذا؟ هل من الممكن أن يكون قد نتج عن بيضة جدلية أودعها أزنار في رحم الحزب الشعبي عندما كان سيده وأستاذه؟ عندما أخبرنا راخوي، بجديته الهادئة المميزة، أن بروفسوراً من أبناء عمومته ـ بروفسوراً في الفيزياء، على ما يبدو ـ أخبره أن هذا الانشغال بالتسخن العالمي هو هراء، كان هذا البيان الجريء للغاية مجرد ثمرة للمخيلة السلتية المفرطة الحماوة التي كانت عاجزة عن فهم ما يُشرح لها. تلك البيضة الجدلية هي الآن عقيدة، قاعدة، مبدأ مدون بحروف صغيرة في الكتاب التأسيسي للحزب الشعبي، وفي تلك الحالة، لو كرر راخوي، لسوء الحظ، كلمات ابن العم البروفسور، عندئذ لما كان رئيسه السابق الذي حُول إلى وسيط الوحي يريد أن يضيع فرصة لتلقين الشعب الجاهل درساً آخر.

يتبقى لي فضاء ضئيل، لكن ربما يوجد متسع من أجل نداء مقتضب إلى الفطرة السليمة. بما أننا نعرف أن كوكبنا قد مر حتى الآن بستة أو سبعة عصور جليدية، ألا يمكن أن نكون على عتبة عصر آخر؟ ألا يمكن أن تكون المصادفة بين هذه الإمكانية والنشاطات المتواصلة التي تقوم بها الكائنات البشرية ضد بيئتها تشبه كثيراً تلك الأمثلة الشائعة عن مرض يخفي مرضاً آخر؟ أرجوكم أن تفكروا في ذلك. في العصر الجليدي التالي، أو في هذا العصر الذي يبدأ، سيغطي الجليد باريس. يمكننا أن نسترخي، فذلك لن يحدث غداً. لكن أمامنا واجب واحد على الأقل من أجل اليوم: دعونا ألا نساعد عصر الجليد القادم. ولا تنسوا، فأزنار هو مجرد فصل موجز. لا تخافوا.

23 أيلول: سير الحياة

أعتقد أن كل الكلمات التي ننطقها، كل الحركات والإيماءات التي نقوم بها، سواء كانت منجَزة أم مخططة، يمكن فهمها كقطعة تائهة من سيرة ذاتية غير مقصودة، مهما كانت لا إرادية، أو بالضبط لأنها لا إرادية، ليست أقل إخلاصاً أو صدقاً من الوصف الأكثر تفصيلاً لحياة صيغت كتابة وعلى الورق. هذه القناعة بأن كل ما نقوله ونفعله على مر الزمن، مهما يكن خالياً من الدلالة والأهمية هو ـ ولا يمكن أن يكون سوى ـ تعبير سيروي قادتني ذات مرة إلى اقتراح، بجدية أكثر مما كان يبدو للوهلة الأولى، أن على كل كائن بشري أن يترك رواية مكتوبة لحياته أو حياتها، وأن هذه الآلاف من الملايين من المجلدات، عندما لا يعود يوجد لها متسع على الأرض، ينبغي أن تؤخذ إلى القمر. وهذا يعني أن المكتبة الكبيرة، الضخمة، العملاقة، الشاسعة، الهائلة من التجربة الإنسانية سيتعين تقسيمها، شطرها أولاً إلى قسمين، ومن ثم، مع مرور الزمن إلى ثلاثة، ثم إلى أربعة، أو حتى تسعة، بافتراض أن للكواكب الثمانية الأخرى من النظام الشمسي أغلفة حيوية حميدة بما يكفي لاحترام هشاشة الورق. سأتخيل أن روايات حيوات كثيرة، لكونها بسيطة ومتواضعة، ستنطبق على نصف دزينة من الصفحات أو حتى أقل، سترسل إلى بلوتو، أبعد أبناء الشمس، حيث مما لا شك فيه أن الباحثين لا يريدون السفر إلى هناك إلا نادراً.

أنا متأكد من أن عدداً من المشاكل والشكوك سيبرز عندما يحين الوقت لتأسيس وتعريف قرائن لتكوين هذه المدعوة بالمكتبات. سيكون ذلك خارج الجدال. على سبيل المثال، إن كتباً مثل مفكرات أميل وكافكا وفرجينيا وولف، وحياة صموئيل جونسون من تأليف بوسويل

والسيرة الذاتية لسيلليني، ومذكرات كازانوفا واعترافات جان جاك روسو، وغيرها الكثير من أعمال ذات أهمية إنسانية وأدبية مماثلة، ينبغي أن تبقى على الكوكب الذي كتبت عليه لكي تحمل شهادة على المرور عبر هذا العالم من الرجال والنساء الذين، لأسباب وجيهة أو سيئة، لم يعيشوا فحسب بل تركوا أيضاً علامة وحضوراً، تأثيراً، سيستمر في التأثير على الأجيال القادمة، لكونه بقي حتى هذا اليوم. ستبرز المشاكل عندما يبدأ اختيار ما سيبقى وما سيرسل إلى الفضاء بأن يعكس بشكل حتمي أحكام القيمة الذاتية والأحكام المسبقة والمخاوف والكراهيات القديمة والجديدة، والأعذار المستحيلة، والتبريرات المؤجلة، كل شيء في الحياة يحدث الرعب واليأس والكرب - بعبارة أخرى، الطبيعة البشرية. أظن أنه رغم كل شيء سيكون من الأفضل أن نترك الأشياء كما هي. إن فكرتي، مثل معظم الأفكار الفضلى، غير قابلة للتطبيق. ليكن ذلك.

24 أيلول : الطلاقات والمكتبات

في مناسبتين - أو ربما ثلاث - في السنوات الأخيرة، اقترب مني قراء في معرض لشبونة للكتاب، في معرضين أو ثلاثة، وهم ينوءون تحت ثقل دزينات من المجلدات الجديدة، المشتراة للتو، التي لازالت بأغلفتها البلاستيكية. سألت أول هؤلاء الذي اقترب مني ما كان يبدو السؤال الأكثر منطقية : ما إذا كان قد اطلع على أعمالي مؤخراً و، كما سيتبين، كان قد استغرق به. فرد بالنفي، أنه كان يقرأ أعمالي لفترة طويلة لكنه طلق زوجته، وأن زوجته السابقة - وهي قارئة متحمسة أخرى - أخذت مكتبة الأسرة المفككة معها إلى حياتها الجديدة. ثم

خطر ببالي، وكتبت سطوراً قليلة حول ذلك في مفكرات لانزاروتي القديمة، بحيث أنه سيكون من المثير للاهتمام أن ندرس الموضوع من وجهة نظر ما وصفته في ذاك الوقت كأهمية الطلاقات في تكاثر المكتبات. أقر بأن هذه كانت فكرة استفزازية إلى حد ما، وهي السبب في أنني صرفت النظر عنها، لأنقذ نفسي من الاتهامات بأنني فضلت مصالحي المادية الخاصة على الانسجام الزوجي للآخرين. لا أعرف، لا يمكنني أن أتخيل كم شقاقاً زوجياً أدى إلى تشكيل مكتبات جديدة دون أن يحل أي ضرر بالمكتبات القديمة. فحالتان أو ثلاث ـ وهي كثيرة كما أتصور ـ لم تكن كافية لتصنع صيفاً، أو، لنعبر عن ذلك بصراحة، لم تكن كافية لتحسين أرباح الناشر ولا الجعالات التي كنت قادراً على جنيها.

ما لم أكن أتوقعه صراحة هو أن الأزمة الاقتصادية التي أبقتنا في حالة من الاستنفار الدائم لا بد أنها قد جعلت الطلاقات أكثر صعوبة، ولذلك أبطأت بشكل تصادفي المتوالية الحسابية المقصودة للمكتبات ـ وأنا متأكد من أننا نتفق جميعاً على أن هذا يمثل جريمة حقيقية ضد الثقافة. فما الذي ينبغي قوله، على سبيل المثال، حول المشكلة المعقدة، غير القابلة للحل غالبا، مشكلة العثور على شار للبيت في هذه الأيام؟ إذا كانت إجراءات الطلاق الكثيرة للغاية تؤخر، إذا كانت قضايا المحاكم لا تتقدم، عندئذ فإن هذا وحده هو السبب الحقيقي. الأسوأ من ذلك، كيف ينبغي على المرء أن ينطلق على خلفية أمثلة معينة على السلوك الفضائحي قبلئذ في الحقل العمومي مثل حالة زوجين لا زالا يسكنان في البيت نفسه (وهي حالة شائعة بشكل مؤسف، وغير أخلاقية بالمطلق). ربما لا ينامان في السرير نفسه لكنهما يستعملان المكتبة نفسها؟ لم يعد هناك احترام، لم يعد هناك أي حس لياقة ـ هذا

هو الوضع البائس الذي وصلنا إليه. لا أحد يقول إن وول ستريت هو الملام: في الكوميديات التلفزيونية التي يمولونها لا يُشاهد أي كتاب.

25 أيلول : لا شيء سوى المظاهر

أعتقد أننا في البداية تماماً قبل أن نخترع الكلام الذي هو، كما نعلم، الخالق الأعلى للشكوك، لم تكن تساورنا أية شكوك جدية حول من نكون أو حول علاقتنا الفردية والجماعية بالمكان الذي وجدنا أنفسنا فيه. بالطبع، لم يكن من الممكن أن يكون العالم ما كانت تراه أعيننا من لحظة إلى اللحظة التي تليها و ـ وهي معلومة كانت هامة بالقدر نفسه ـ ما كانت الحواس الباقية ـ السمع، اللمس، الشم، الذوق ـ قادرة على إدراكه، أيضاً. إن العالم، في أقدم أطواره، لم يكن سوى مظاهر ولا شيء سوى السطح. فالمادة كانت خشنة أو ملساء، مرة أو حلوة، حامضة أو غير حريفة، صاخبة أو صامتة، ذات رائحة أو عديمة الرائحة. كانت الأشياء كلها هي فقط ما تبدو عليه، ببساطة لأنه لم يكن ثمة سبب لأن تبدو شيئاً وأن تكون شيئاً آخر تماماً. في أقدم تلك الأيام لم يخطر ببالنا أبداً أن المادة مسامية. اليوم، مع ذلك، حتى رغم أننا نعرف أنه من أصغر الفيروسات إلى الكون ككل لسنا جميعاً أكثر من تراكيب من الذرات، وبداخلها، وراء الكتلة الملازمة لها والتي تعرفها، لا زال ثمة فضاء كاف لأجل الفراغ (فالكثافة المطلقة لا وجود لها؛ كل شيء نفوذ)، لا زلنا ـ تماماً كما كان أسلافنا في كهوفهم ـ مستمرين في التعلم حول العالم، وحول هويته والتعرف عليه وفقاً للطريقة التي يظهر لنا بها بشكل متكرر. كنت سأتصور أن روحي العلم والفلسفة قد ظهرتا ذات يوم عندما شك البعض في أنه رغم المظهر كان صورة خارجية يمكن

فهمها عن طريق الـوعي وتسـتعمل كخارطـة للمعرفـة، يمكـن أيضـاً أن يكون وهماً للحواس. إننا نعرف جميعاً التعبير الشعبي المشتق مـن هـذا التحقق، مع أنه يستعمل على الأغلب للإشارة إلى العـالم المعنـوي أكثـر مما يستعمل للإشارة إلى العالم المـادي: «المظـاهر يمكـن أن تضـلل»، أو تخدع،الكلمة التي تؤدي إلى الشيء نفسه. لن يكون ثمة نقص في الأمثلة لو كان لدينا مجرد فضاء لأجلها.

كان هذا المخربش قلقاً دوماً حول ما خفي وراء المظاهر المجردة. مـا أتحدث حوله هو أسئلة يومية راهنة، شـائعة حـول النظـام السياسـي، على سبيل المثال، الذي يمكن أن نسميه الحكومة. النظام الـذي وصـفه تشرشل بأنه «أسوأ شكل من الحكم، باستثناء كل الأنظمة الأخرى التي جربت». لم يقل إنه جيد، لكنه الأقل سوءاً. يمكن أن يقـول المـرء إننـا نعتبر الحكم الذي يمكننا رؤيته أكثر من كاف، وأظن أن هـذا خطـأ في الإدراك الحسـي نـدفع ثمنـه يوميـاً - دون أن نلاحظـه. هـذا الموضـوع سأعود إليه.

26 أيلول : اختبار البياض

وفقـاً للإعـلان العـالمي لحقـوق الإنسـان، المـادة 12، «لا يجـوز أن يتعرض أي شخص للتدخل التعسفي في خصوصيته أو أسرته أو بيته أو مراسلاته، أو للاعتداء على شرفه أو سمعته». وأكثـر مـن ذلـك، «لكـل إنسان الحق في حماية القانون ضد مثل هذا التدخل أو الاعتداءات». هذا ما يقوله الإعلان. تظهر الورقة، من بـين أشـياء أخـرى، توقيـع ممثـل الأمم المتحدة، الذي أقرَ بموجبه بالتزام الأمم المتحـدة بـالتطبيق الفعلـي للبنود المشمولة بهذا الإعلان؛ مع ذلك، مـن دواعـي عـارهم وعارنـا أن

هذه البنود لا قيمة لها، خصوصاً عندما يكون القانون نفسه الذي يفترض به أن يحمينا ليس فقط لا يفعل ذلك، بل يستعمل أيضاً لتبرير الأفعال الأكثر حماقة، بما في ذلك تلك الأفعال التي يشجبها هذا البند نفسه. بالنسبة إلى الولايات المتحدة، أي شخص، سواء كان مهاجراً أم لا، وبغض النظر عن مهنته، هو متهم ممكن، يكون ملزماً، مثل بطل كافكا، بإثبات براءته دون أن يعرف شيئاً عن التهمة التي وجهت إليه. إن الشرف والكرامة والسمعة ـ هذه الكلمات لا تثير شيئاً سوى الضحك من الحراس المخيفين الذين يحرسون المداخل إلى البلد. إننا نعرف ذلك تماماً، فقد خبرنا ذلك في التحقيقات المذلة بشكل متعمد، لقد نظر إلينا الموظف المسؤول كما لو كنا الديدان الأكثر إثارة للاشمئزاز. باختصار، لقد أصبحنا معتادين تماما على أن نُعامل بسوء.

لكن شيئاً جديداً يحدث الآن، فتلة أخرى لبرغي المضطهد. فالبيت الأبيض، الذي يؤوي أقوى رجل على الكوكب، كما كان الصحفيون يميلون إلى القول عندما يعانون من أزمة الإلهام ـ البيت الأبيض، أقول مرة أخرى،خول ضباط شرطة الحدود أن يعاينوا ويدققوا وثائق أي مواطن أجنبي أو شمال أمريكي، حتى لو وجد أي مبرر للاشتباه بنية هذا الشخص المشاركة في جريمة. سيتم الاحتفاظ بهذه الوثائق لفترة لا بأس بها من الزمن في مكتبة ضخمة تحفظ فيها كل أنواع البيانات الشخصية، من دفاتر العناوين البسيطة إلى الرسائل الالكترونية السرية بشكل مفترض. وهناك أيضاً ستحفظ كمية لا حصر لها من نسخ الأقراص الصلبة hard disks من حواسيبنا في كل مرة نقدم أنفسنا عند أي من حدود الولايات المتحدة، بكل محتوياتها العلمية أو التكنولوجية أو الأعمال البحثية الإبداعية، أو الأطروحات الأكاديمية، أو قصائد الحب البسيطة. «لا يجوز أن يتعرض أي شخص للتدخل التعسفي في

خصوصيته» يقول البند 12 البائس القديم. وإلى ذلك نضيف: انظروا ما أقل قيمة توقيع رئيس أقوى ديموقراطية في العالم.

هكذا هو الأمر. إننا نجرب اختبار بياض معصوم على الولايات المتحدة، وهذا ما تبين لنا، وهو أنها ليست وسخة فحسب، بل هي قذرة بشكل مطلق.

29 أيلول: صاف كالماء

كما كان الحال دوماً، وسيكون دوماً، فإن السؤال المركزي الذي يعنى بأي نوع من التنظيم الاجتماعي الإنساني، والنوع الذي تنبع منه وتصب فيه كل الأنواع الأخرى، هو سؤال السلطة، والمشكلة النظرية والعملية التي نواجه بها هي تعريف هوية من يمسكون بها، واكتشاف كيف وصلوا إليها، تفحص ما الفائدة التي يجنونها منها، وبأية وسيلة ومن أجل أية غايات. لو كانت الديموقراطية حقاً هي ما نستمر بإخلاص حقيقي أو زائف) في القول إنها حكم الشعب من قبل الشعب لأجل الشعب، أي سجال حول مسألة السلطة سيفقد الكثير من معناه، بما أنه إذا كانت السلطة ملكاً مقلداً للشعب فإن الشعب هو الذي يتحكم بها، والشعب المتحكم بالسلطة بشكل واضح لن يفعل ذلك إلا من أجل صالحه ولتأمين سعادة أفراده الخاصة، مدفوعين بما أسميه، بدون ادعاء الدقة المفاهيمية، قانون صون الحياة؛ حسناً، وحدها الروح المنحرفة، البانغلوسية [المفرطة التفاؤل] حتى إلى درجة الكلبية، يمكنها أن تتجرأ على ادعاء سعادة عالم لا يتوقع أحد منا، على العكس، أن نقبله كما هو، فقط بفضل كونه، بشكل مزعوم، أفضل كل العوالم الممكنة. هذا هو الوضع الصحيح والفعلي لما يدعى العالم الديموقراطي،

حيث إذا كان صحيحاً أن الناس محكومون، فمن الصحيح أيضاً أنهم ليسوا محكومين من قبل أنفسهم أو لأجل أنفسهم. إنها ليست ديموقراطية نعيش فيها، بل بلوتوقراطية، كفت عن أن تكون محلية وقريبة بل أصبحت بدلاً من ذلك في الوقت نفسه عالمية ويتعذر الوصول إليها.

إن السلطة الديموقراطية يجب بالتعريف أن تكون على الدوام شرطية وظرفية؛ يعتمد ذلك على استقرار الاقتراع، على تذبذب المصالح أو الأيديولوجيات الطبقية، ولذلك يمكن فهمها كبارومتر عضوي يسجل التغيرات في الإرادة السياسية لمجتمع. لكن في الماضي، كما اليوم ـ وإن كان ذلك إلى حد كبير بشكل زائد اليوم ـ كان ثمة حالات عديدة من التغيرات السياسية الجذرية ظاهرياً في الحكم نتجت عنها تغيرات جذرية في الحكم لكنها لم تكن متبوعة بالتغيرات الاقتصادية أو الثقافية أو الاجتماعية الجذرية التي وعدت بها نتائج الاقتراع. أما اليوم، فأن نسمي حكومة اشتراكية، أو ديموقراطية اجتماعية أو محافظة أو ليبرالية هو أن نعزو السلطة إليها، أي، نزعم تعريف شيء فيها لا يوجد حقاً إلا في مكان آخر بعيد المنال ـ مكان يمكنك فيه أن ترى الخطوط العامة المتشابكة للسلطة الاقتصادية والمالية، سلطة تتملص منا بشكل ثابت عندما نحاول أن نقترب منها، ترد بهجوم مضاد حتماً، إذا رغبنا بشكل نزوي في أن نقلص مجالها أو نضبطه، مخضعين إياها للصالح العام. بعبارة أوضح، إذاً، ما أقوله هو أن الشعب لا يختار حكومة ستدخل السوق ضمن سيطرته؛ بدلاً من ذلك، تشترط السوق على الحكومات بكل الطرق أن تدخل الشعب ضمن سيطرتها. وإذا تحدثت حول السوق بهذه الطريقة فذلك فقط لأن هذه السلطة، السلطة الاقتصادية والمالية العالمية، اليوم وأكثر مع كل يوم يمر، ليست

ديموقراطية لأن الشعب لم ينتخبها، ليست ديموقراطية لأن الشعب لا يحكمها، وأخيراً ليست ديموقراطية لأنها لا تضع سعادة الشعب هدفاً لها. كان أسلافنا في كهوفهم سيقولون: «إنه ماء». وكوننا أكثر حكمة بقليل سنقول: «نعم، لكنه ملوث».

30 أيلول: الآمال واليوتوبيات

لقد كتب الكثير وقيل أكثر منه بكثير حول فضائل الأمل. كانت اليوتوبيات دوماً وستكون الفردوس كما حلم به المتشككون. مع ذلك فليس المتشككون فقط بل المؤمنون المتحمسون أيضاً، صنف القداس والعشاء الرباني من المؤمنين الذين يتطلعون إلى السماء، لا زالوا يسألون يد الله الرحيمة أن تظلل رؤوسهم، أن تحميهم من المطر والحر، وأن يسلم في هذه الحياة قسماً صغيراً على الأقل من الثوابات التي وعد بها في الحياة الآخرة. وهذا هو السبب في أن أي شخص غير راض بما انتهى إليه نصيبه في التوزيع غير المتكافئ لموجودات الكوكب، وخصوصاً الموجودات المادية، إنما يتمسك بالأمل في أنه لن يكون دائماً الشيطان الموجود عند الباب وأنه في ذاك اليوم ـ عاجلاً أم آجلاً ـ ستكون الثروة التي تدخل من خلال النافذة. إن شخصاً ما قد خسر كل شيء، لكنه كان محظوظاً بما يكفي لأن يستبقي على الأقل حياته التعيسة، يعتبر أنه يدين بحقه الأكثر إنسانية في أنه لن يكون غداً بنفس تعاسة اليوم. مفترضاً، بالطبع، أن ثمة عدالة في العالم. حسناً، إذا وجد في هذا المكان وفي هذه الأوقات شيء يستحق اسم عدالة، ليس سراب تراث قادر على خداع عيوننا وعقولنا بل واقع يمكننا أن نلمسه بأيدينا، فمن الواضح أنه لن يكون علينا أن نحمل الأمل حولنا معنا كل

يوم نستمهده إلينا، أو يحملنا مستمهدين. العدالة البسيطة (ليست عدالة قاعات المحاكم، بل عدالة ذاك الاحترام الأساسي الذي يجب أن يسود العلاقات بين الكائنات البشرية) ستكون مسؤولة عن وضع الأشياء في أمكنتها الصحيحة. في الماضي، كان الفقير الذي يطلب صدقة يرفض طلبه بالكلمات المنافقة «تحل بالصبر». لا أعتقد أن نصح شخص بأن يتحلى بالأمل كله مختلف عن نصحه بأن يتحلى بالصبر. من الشائع أن نسمع سياسيين منتخبين حديثاً يقولون إن نفاد الصبر مضاد للثورة. ربما يكون كذلك، لكنني أميل إلى الرأي القائل، على العكس، بأن ثورات كثيرة قد خسرت من خلال نفاد الصبر. لقد حان الوقت لأن يجعل نفاد الصبر نفسه محسوساً في العالم، أن يلقن شيئاً أو شيئين لأولئك الذين يفضلون أن نتغذى على الآمال.أو على أحلام اليوتوبيا.

تشرين الأول / أكتوبر 2008

1 تشرين الأول : أين اليسار؟

منذ ثلاث أو أربع سنوات، في مقابلة مع صحيفة جنوب أفريقية أطلقت، من الأرجنتين، بياناً اعتقدت لاحقاً أنه سيثير انزعاجاً ونقاشاً وحتى فضيحة (هكذا كانت سذاجتي)، تبدأ بالجماعات اليسارية المحلية وتستمر، من يدري، مثل موجة تتضخم بدوائر متراكزة، في وسائل الإعلام الأممية ـ على الأقل هذه هي ألسنة الحال السياسية أو النقابية أو الثقافية لوسائل الإعلام التابعة لليسار الآنف الذكر. نشرت الصحيفة مناقشتي كلمة كلمة، بكل فظاظتها، دون أن تشيح بوجهها عن البذاءات، كما في العبارة التالية: «ليس لليسار أية فكرة لعينة عن العالم الذي يعيش فيه».

رد اليسار على التحدي المتعمد من قبلي بأبرد أشكال الصمت. فلم يخرج حزب شيوعي، على سبيل المثال، بدءاً بالحزب الذي أنا عضو فيه، عن الحظيرة ليدحض ما قلته أو ببساطة ليحاجج حول لياقة أو عدم لياقة لغتي. والأكثر من ذلك، لا أحد من الأحزاب الاشتراكية التي كانت آنذاك في الحكم كلٌ في بلده ـ وأنا أفكر خصيصاً بتلك الأحزاب في البرتغال وإسبانيا ـ يعتبر من الضروري أن يطالب بتوضيح من

الكاتب الصفيق الذي تجرأ على رمي حجر في مستنقع نتن من اللامبالاة. لا شيء من أي شيء على الإطلاق، صمت مطلق، كما لو أنه لا يوجد سوى الغبار والعناكب في الأضرحة الأيديولوجية التي التجأوا إليها، أو لا شيء أكثر من عظمة قديمة لم تعد صلبة بما يكفي لأجل رفات. لبضعة أيام شعرت بأنني مستبعد من المجتمع البشري كما لو كنت أحمل الطاعون، أو كنت ضحية نوع من تليف العقل لم أعد قادراً على الكلام بشكل متسق. حتى أنني انتهى بهي المطاف إلى الظن بأن الخط الرحيم الذي يمتد بين الناس الذين يلتزمون الهدوء على هذا النحو كان شيئاً من قبيل «بائس، ما الذي يمكنك أن تتوقعه في عمره؟» كان واضحاً أنهم لم يكونوا يعتقدون أن أفكاري تستحق تفكيرهم.

ومضى الوقت، وازدادت حالة العالم تعقيداً، واستمر اليسار بلا خوف يلعب الأدوار التي أسندت إليه، سواء في السلطة أو في المعارضة، أنا الذي كنت في هذه الأثناء أقوم باكتشاف آخر، أن ماركس لم يكن محقاً كما هو اليوم، تخيلت، عندما انتشر وباء الوفيات السرطانية في الولايات المتحدة منذ عام، أن اليسار، حيثما كان، إن كان لازال حياً، سيفتح فمه في النهاية ليقول رأيه في المسألة. أنا أمتلك تفسيراً: اليسار لا يفكر. إنه لا يتصرف، لا يغامر بالقيام بخطوة. ما حدث آنذاك استمر في الحدوث، حتى هذا اليوم، واستمر اليسار بأسلوبه الجبان لا يفكر، لا يتصرف، لا يغامر باتخاذ خطوة. هذا هو السبب في أن السؤال المتغطرس في عنوان فقرتي هذه ينبغي ألا يسبب المفاجأة: «أين اليسار؟» أنا لا أقترح أية أجوبة؛ لقد دفعت ثمنا أغلى مما ينبغي لقاء أوهامي.

2 تشرين الأول : الأعداء في البيت

لا أحـد يجـرؤ علـى إنكـار أن ثمـة أزمـة في العائلـة، مهمـا سـعت الكنيسـة الكاثوليكيـة لإخفـاء الكارثـة ببلاغـة معسـولة لا تخـدع حتـى نفسـها، ولا يمكننا أن ننكر أن كثيراً مما تدعي القيم التقليدية والتساكن الاجتماعي قد تلاشى ساحباً معه حتى تلك القيم الـتي ينبغـي الـدفاع عنها من الهجمات الثابتة الآتية مـن المجتمـع التصـارعي جـداً الـذي نعيش فيه؛ ولا مدارس اليوم - الوريثة لتلك المدارس القديمة التي كانت لأجيـال كـثيرة مسـؤولة (في غيـاب أي شـيء أفضـل) عـن حـدوث الإخفاقات التعليمية لوحدة العائلة - هي مشلولة، مكبلة بالتناقضـات والأخطاء، محروفة عن اتجاهها عن طريق المناهج التربوية المتعاقبة التي ليست في الحقيقة مناهج تربوية، التي ليست في أغلب الأحيان أكثر من موضات عابرة أو تجارب هـواة محكـوم عليهـا بالفشـل. إنهـا محكـوم عليها بالنقص الشديد في النضج الفكري للذين صاغوها، دون أن يكونوا قادرين على صياغة السؤال الجوهري، برأيي، أو الإجابـة عليـه: «أي نوع من المواطنين نحاول أن ننتج؟».

ليس المشـهد الاجتمـاعي منظـراً جمـيلاً. ممـا يـدعو للاسـتغراب أن حكامنا الأقل أو الأكثر جدارة لا يبدو أنهم مهتمون بهـذه المسـائل كمـا يفترض بهم، ربما لأنهم يظنون أنه بما أن هذه مشاكل عالمية فإن الحل - كلما وجد - سيكون تلقائياً، من أجل الجميع.

أنا لا أوافق. إننا نعيش في مجتمـع يبـدو أنـه جعـل العنـف طريقـة للتفاعل الاجتماعي. فالعدوان المتأصل في نوعنا، والـذي نظـن في بعـض الأحيان أننا نجحنا في السيطرة عليه من خلال التعليم، ينفجر فجأة من أعماق العشرين سنة الماضية، كاشـفا نفسـه عـبر المجـال الاجتمـاعي، تحرضه أشكال التبطل التي كفت عن استخدام مـذهب المتعـة البسـيط

لتكييف عقلية المستهلك وتستعمل بدلاً من ذلك العنف: يقوده التلفزيون، يتدفق دم زائف أكثر كمالاً حتى في كل ساعة من ساعات الليل والنهار، وألعاب الفيديو التي تشبه كتيبات التعليمات لأجل تلقين التعصب المطلق والوحشية الكاملة و، لأن كل ذلك متصل بعضه بالبعض الآخر، يلقى تهافت الإعلانات من أجل الخدمة الأيروتيكية ترحيبا من كل الصحف، بما فيها الصحف ذات الفكر الأكثر يمينية، في حين أنها تحشو صفحاتها التحريرية (إن كانت لازالت باقية) بإرشادات منافقة للمجتمع حول كيف ينبغي عليه أن يسلك. هل أنا أبالغ؟ إذا فاشرحوا لي كيف حدث أن وصلنا إلى النقطة التي يخاف فيها الكثير من الآباء من أولادهم ـ أولئك المراهقين الحلوين، أملنا من اجل الغد، الذين تطلق منهم كلمة «لا» من أم أو أب تعبا من الطلبات اللاعقلانية، العنان بشكل فوري لفورة غضب أو إهانات أو سلوك شائن أو اعتداء. الاعتداء الجسدي، في حال كان لديك أي شك في مقصدي. يؤوي كثير من الآباء أسوأ الأعداء في منزلهم: أولادهم. كتب روبن داريو ببراءة عن «ذاك الكنز الإلهي، الشباب». ما كان ليكتب كذلك اليوم.

6 تشرين الأول : عن فرناندو بسوا

كان رجلاً يعرف عدة لغات ويكتب الشعر. كان يكسب خبزه وخمره مستبدلاً الكلمات بالكلمات. كان يكتب الشعر كما يجب على المرء أن يكتب الشعر، كما لو كان يكتب للمرة الأولى. في البداية سمى نفسه فرناندو، مثل أي شخص آخر[1]. تذكر ذات يوم أن يعلن عن

---

[1] ملاحظة المترجم الإنكليزي: الكلمة البرتغالية المرادفة لكلمة «شخص» هي «pessoa».

الظهور الوشيك لسوبر كاموئيس، كاموئيس أعظم بكثير من كاموئيس القديم، لكن بما أنه كان رجلاً معروفاً بتكتمه، فقد اعتاد أن يمشي مشية الدورادورس Douradores، بسترة طويلة فاتحة اللون، وربطة فراشية الشكل، وقبعة بلا ريش، لم يقل إن سوبر كاموئيس ليس سوى هو نفسه. رغم كل شيء، لم يكن بمقدور سوبر كاموئيس هذا أن يكون كاموئيساً أعظم؛ فقد كان ينتظر مجرد أن يصبح فرناندو بسوا، ظاهرة لم تعرف البرتغال مثلها أبداً. من الناحية الطبيعية، كانت حياته مؤلفة من أيام، ونحن نعرف أن الأيام قد تكون كلها سواء، لكن لا يمر كل يوم أبداً أكثر من مرة واحدة، وهذا هو السبب في أنه من غير المفاجئ أنه في أحد تلك الأيام، وهو يمر أمام مرآة، استرق النظر إليها فلمح شخصاً آخر.(1) ظن أنه مجرد وهم بصري آخر من تلك الأوهام التي تحدث عندما لا يعير انتباهه، أو أن آخر كأس من ماء الحياة eau de vie لا تؤاتي كبده ورأسه، لكنه تراجع خطوة إلى الوراء بشكل حذر ليتأكد من ذلك - كما هو مفترض عادة - عندما تظهر المرايا شيئاً فإنها لا تخطيء. مع ذلك، فإن هذه المرآة قد أخطأت بالفعل: كان ثمة رجل ينظر إليه من داخل المرآة، وذاك الرجل لم يكن فرناندو بسوا. فقد كان أقصر قليلاً، وكان وجهه داكن البشرة إلى حد ما، وكان حليق الوجه بالكامل. رفع يده بشكل لا شعوري إلى شفته العليا، ثم تنفس بعمق بتنهيدة طفولية: كان شاربه لازال موجوداً. قد يتوقع المرء أشياء كثيرة من خيال يظهر في مرآة، لكن ليس أن يتكلم. ولأن هذين الاثنين، بسوا والخيال الذي لم يكن خياله، كانا بصدد أن يظلا يراقبان أحدهما الآخر إلى الأبد، قال فرناندو بسوا: «اسمي ريكاردو ريس». ابتسم الرجل الآخر، هز رأسه، واختفى. للحظة كانت المرآة خالية، عارية. ثم ظهر على اليمين خيال آخر، خيال رجل نحيل، شاحب، كان يبدو

كما لو أنه لم يكن يتوق إلى هذا العالم. بدا لفرناندو أن هذه لا بد أن تكون أول مرة ، مع ذلك لم ينبث بأي تعليق، بل اكتفى بالقول: «اسمي ألبرتو كائيرو». لم يبتسم الآخر، بل هز رأسه قليلاً، موافقاً، وانصرف. انتظر فرناندو بسوا، إذ لطالما أُخبر دوماً أنه كلما كان هناك اثنان سيكون ثالث دوماً في أثرهما. استغرق الشخص الثالث ثانيتين ليصل، وكان أحد أولئك الرجال الذين يبدون كأنهم يمتلكون من العافية مالا يعرفون ماذا يفعلون بها، وكان يمتلك النفحة التي لا يمكن أن تخطأ لدى مهندس تمرن في إنغلترا. قال فرناندو: «اسمي ألفارو دي كامبوس»، لكنه هذه المرة لم ينتظر اختفاء الخيال من المرآة، بل ابتعد عنها بنفسه، فربما مل من وجود هذا العدد الكبير من الأشخاص في هذه المدة القصيرة من الزمن. في تلك الليلة، في ساعات الصباح الأولى، استيقظ فرناندو بسوا متسائلاً ما إذا كان ألفارو دي كامبوس قد بقي في المرآة. نهض، فكان ما وجده هناك هو وجهه. لذا قال: «اسمي برناندو سواريس»، وعاد إلى السرير. بعد اتخاذ هذه الأسماء وأسماء أخرى ظن فرناندو أنه قد حان الوقت بالنسبة له أيضاً ليكون سخيفاً ويكتب أسخف رسائل الحب في العالم. لقد حقق تقدماً كبيراً في عمله في الترجمة والشعر، ثم توفي. كان أصدقاؤه قد أخبروه أن أمامه مستقبل عظيم بانتظاره، لكن من غير الممكن أن يكون قد صدقهم ـ لقد صدقهم قليلاً، في الواقع، بحيث قرر بشكل ظالم أن يموت في مقتبل عمره، في سن السابعة والأربعين، إن كنت تصدق شيئاً كهذا. قبل النهاية بلحظة، طلب أن يعطى نظارتيه: «أعطوني نظارتي»، هذه كانت كلماته الرسمية الأخيرة. حتى هذا اليوم، لم يسع أحد إلى معرفة من أجل ماذا طلبهما، فهذه هي الطريقة التي يتم بها تجاهل أو احتقار رغبات المحتضرين، لكن يبدو من المرجح تماماً أن ما أراده هو أن ينظر

في مرآة ليرى من الذي كان هناك في النهاية. لكنه لم يُعط الوقت الكافي. بالفعل، لم يكن ثمة مرآة في الغرفة حتى. لم يتأكد فرناندو بسوا يقيناً من هو، لكن بفضل شكوكه يمكننا أن نتوصل إلى معرفة القليل أكثر حول من نكون نحن.

7 تشرين الأول : الجانب الآخر

كيف يمكن أن تكون الأشياء عندما لا ننظر إليها؟ هذا السؤال، الذي يبدو لي أقل عبثية كل يوم، غالباً ما كنت أطرحه عندما كنت ولداً، سوى أنني كنت أخمن أنهم سوف يبتسمون لسذاجتي (أو لغبائي، بحسب رأي أكثر راديكالية) ولن يعطوني سوى الجواب الذي لن يقنعني أبداً: «عندما لا ننظر إلى الأشياء فإنها تبدو نفسها كما تكون عندما ننظر إليها». كنت أظن دائماً أن الأشياء، كلما كانت وحدها، تكون أشياء أخرى. فيما بعد، عندما بلغت ذاك الطور من المراهقة الذي يتميز بالغرور المزدري الذي يحكم به على الطفولة التي خرج منها، ظننت أنني قد وجدت الحل النهائي للقلق الميتافيزيقي الذي نغص سنواتي الغضة: لقد ظننت أنك إذا كنت بصدد أن تنصب آلة تصوير بهذه الطريقة بحيث تلتقط صورة بشكل تلقائي في غرفة ليس فيها أي حضور بشري، فستكون قادراً على التقاط أشياء لاشعورياً، وبهذه الطريقة تعرف مظهرها الحقيقي. لقد نسيت أن الأشياء تكون أجمل مما تبدو ولا تُظهر نفسها لكي يُحتال عليها تماماً بهذه السهولة: إنها تعرف بشكل جيد تماماً أن بداخل كل آلة تصوير توجد عين بشرية مخفية... أضف إلى ذلك أنه حتى لو كان الجهاز قادراً بشكل ماكر على التقاط صورة وجه الشيء، سيكون جانبه الآخر قد بقي خارج

متنـاول النظـام البصـري أو الميكـانيكي أو الكيميـائي أو الرقمـي لـذاك المسجل الفوتـوغرافي. وسـيكون ذاك الشـيء المصـوَّر فوتوغرافيـاً قـد أدار جانبه السري، ذاك الشقيق التوأم للظلام، نحو ذاك الجانب المخفي في اللحظة الأخيرة بشـكل يـدعو للسـخرية. عنـدما نـدخل غرفـة مغمـورة بالظلام المطلق ونشعل ضوءاً، يختفي الظلام. لذلك ليس غريباً أن نسأل أنفسنا: «إلى أين ذهب؟». ولا يمكن أن يوجد سوى جواب واحـد: «لم يذهب إلى أي مكان؛ فالظلام هو ببساطة الوجـه الآخـر للنـور، جانبـه السري». من المثير للشفقة أن أحداً لم يخبرني باكراً، عندما كنت طفلاً. أما اليوم فقد بت أعرف كـل شـيء حـول الظـلام والنـور، حـول النـور والظلام.

8 تشرين الأول: عودة إلى الموضوع

علمتنـا دروس الحيـاة كـم سـتكون الديموقراطيـة السياسـية قليلـة الفائدة، مهما بدت متوازنة بشـكل جيـد في بناهـا الداخليـة ووظائفهـا المؤسساتية، إذا لم تشكل الأساس لديموقراطية اقتصادية فاعلة وحقيقية ولديموقراطية ثقافية ليست أقل فاعلية وحقيقية. قد يبـدو شـيئاً مألوفـاً قديماً وبالياً أن نقول شيئاً كهذا اليوم حول بعض الهمـوم الأيديولوجيـة للماضي، لكنه سيكون تعامياً عن الحقيقة التاريخية إن لم نعترف بـأن الثالوث الديموقراطي ـ السياسة، الاقتصاد، الثقافة، كل جزء على حدة يكمل الجزأين الآخرين ويمكنهمـا ـ في ذروة ازدهـاره كفكـرة للمسـتقبل إنما كان يمثل إحدى الرايات المدنية الأكثر إثارة للعواطف التي نجحت في التاريخ الحديث في إيقاظ الوعي وحشـد الإرادات وتحريـك القلـوب. اليوم، إن فكرة الديموقراطية الاقتصادية، وقد ازدريت ورميت في مزبلة

الصيغ التي اهترأت وجُردت من طبيعتها الحقيقية، قد أفسحت الطريق لسوق منتصرة انتصاراً فاحشاً، حتى في لحظة الأزمة الأخيرة إلى أقصى درجة على محورها المالي، في حين أن فكرة الديموقراطية الثقافية انتهى بها المطاف إلى أن تستبدل بالتسويق الجماهيري المصنَّع المغرِّب للثقافة. إننا لا نتقدم، بل نتراجع. ويصبح أكثر عبثية أن نتكلم عن الديموقراطية إذا ألححنا على تعريفها بشكل خاطئ حصراً بالتعبيرات الكمية والميكانيكية عنها التي نسميها الأحزاب السياسية والبرلمانات والحكومات، بدون أن نولي أي اهتمام لمضمونها الفعلي والفائدة المشوهة، الفاسدة التي تميل إلى جنيها من التصويت الذي بررها، وضعها حيث هي.

لا ينبغي عليك أن تستنتج مما كتبته للتو أنني ضد وجود الأحزاب: فأنا نفسي عضو في واحدٍ منها. ولا ينبغي أن تظنوا أنني أمقت البرلمانات أو أعضاءها: كنت أتمنى أن يكونا كلاهما [الأحزاب والبرلمانات] أفضل، أكثر فاعلية واستجابة في كل الأمور. ولا تظنوا أنني المبدع بالعناية الإلهية لوصفة سحرية تسمح للبشر من الآن فصاعداً بأن يعيشوا بدون أن يكون عليهم أن يتحملوا حكماً فاسداً وأن يضيعوا الوقت على انتخابات نادراً ما تحل المشاكل: أرفض تماماً أنه من الممكن فقط أن نحكم ونتمنى أن نُحكم وفقاً للنماذج الديموقراطية المزعومة المطبقة حالياً، التي هي برأيي مشوهة ومتنافرة، والتي يريد بعض السياسيين (ليسوا دائماً بإيمان جيد) أن يجعلوها عالمية، جنباً إلى جنب مع الوعود الكاذبة بالتطور الاجتماعي التي بالكاد تنجح في إخفاء الطموحات الأنانية وعديمة الرحمة التي تحركهم في الواقع. إننا نغذي هذه الأمراض في بيتنا، ثم نتصرف كما لو كنا مخترعي الدواء العام الشامل القادر على شفاء أمراض جسد وروح سكان الكوكب البالغ

عددهم ستة آلاف مليون نسمة. خذ عشر قطرات من ديموقراطيتنا ثلاث مرات في اليوم وستكون سعيداً إلى الأبد. الحقيقة هي أن الخطيئة الوحيدة القاتلة حقاً هي النفاق.

9 تشرين الأول : الله وراتسينغر

ماذا يمكن أن يكون رأي الله براتسينغر؟ ماذا يمكن أن يكون رأي الكنيسة الكاثوليكية الرومية والرسولية الذي يشغل راتسينغر منصب البابا فيها؟ كما أعرف (ومن الإنصاف أن أقول إنني أعرف القليل)، أن أحداً لم يتجرأ بعد على طرح هذه الأسئلة المهرطقة، وهو ربما يعرف مسبقاً أنه لا توجد ولن توجد أجوبة عليها. كما كتبت ذات مرة أثناء نوبة استفهام ميتافيزيقي لا طائل تحته، منذ خمسة عشر عاماً، فإن الله هو صمت الكون والإنسان هو الصرخة التي تعطي المعنى لذاك الصمت. لقد كتبت ذلك في **مفكرات لانزاروتي**، وقد استشهد به كثيراً لاهوتيو البلد المجاور الذين كانوا لطيفين للغاية بقراءة عملي. بالطبع، لكي يفكر الله شيئاً براتسينغر أو بالكنيسة التي كان البابا يحاول إنقاذها من موت متوقع كلياً ـ سواء من الجوع أو من الفشل في إيجاد الآذان لسماعه أو الإيمان لتعزيز أسسها ـ سيكون من الضروري إثبات وجود المسمى الله، وهو أكثر المهمات استحالة، برغم البراهين المفترضة التي قدمها القديس أنسيلم؛ حتى القديس أوغسطين اعترف بأن محاولة تفسير الثالوث كانت مثل إفراغ المحيط بدلو في حفرة في الرمل. السبب في أن الله، إنْ كان موجوداً، ينبغي أن يكون ممتناً لراتسينغر هو القلق الذي أبداه البابا في الآونة الأخيرة من الحالة الدقيقة للطائفة الكاثوليكية. فالناس لا يذهبون إلى القداس، إذ كفوا عن الإيمان

بالعقائد، ويتصرفون بناءً على الأحكام المسبقة التي كونت بشكل عام أساس الحياة الروحية لأسلافهم، والأساس لحياتهم المادية أيضاً، كما حدث، على سبيل المثال، مع الكثير من الصيارفة الذين نشؤوا في السنوات الأولى من الرأسمالية، وكانوا كالفينيين متزمتين وكانوا، كما يمكن للمرء أن يستنتج، ذوي نزاهة شخصية ومهنية منيعة ضد أي إغراء شيطاني من نوع الرهن العقاري. قد يظن القارئ أن هذا التحول المفاجئ في الموضوع المبهم الذي بدأت ببحثه، أي السنودس البابوي الذي التأم في روما ـ كان حيلة جدلية تقريباً لإدخال نقد للسلوك الشاذ (هذا أقل ما يقال) للصيارفة المعاصرين. وهذا لم يكن قصدي ولا هو مجال خبرتي، إنْ كان لدي مثل هذا الشيء.

هكذا، إذاً، دعونا نعود إلى راتسينغر. فقد حصل شيء ما لهذا الرجل، الذكي بلا ريب، ذي السيرة النشيطة بشكل مفرط داخل الفاتيكان وحوله (يكفي أن نقول إنه كان رئيس التجمع من أجل عقيدة الإيمان، وهو الخلف، وإن كان يستخدم أساليب أخرى، للمكتب المقدس المشؤوم، (المعروف سابقاً بشكل أفضل باسم محكمة التفتيش)، وهو شيء لا يمكن أن يتوقعه المرء من شخص له درجته من المسؤولية. ينبغي علينا أن نحترم إيمانه في حين لا نحترم التعبير عن تفكيره القروسطي. إنه المصدوم بالعلمانية، المحبط من هجر المؤمنين للكنيسة، الذي فتح فمه في القداس الذي بدأ به السنودس بتعليقات ساخطة من قبيل «إذا نظرنا إلى التاريخ، فإننا مجبرون على الاعتراف بأن هذا الاغتراب المباعد للمسيحيين المفككين وعصيانهم ليسا فريدين. كنتيجة لذلك، كان على الله في كثير من الأحيان أن يلجأ إلى العقاب، رغم أنه لا يخلف وعده بالخلاص». في قريتي اعتادوا أن يقولوا إن الله لا يعاقب بالعصا أو بالحجارة، وهذا هو السبب في أننا يجب أن نخشى طوفاناً

آخر من الطوفانات القادمة لإغراق كل الكافرين، اللاأدريين العلمانيين في العموم، جنباً إلى جنب مع المشجعين الآخرين على الفوضى الروحية إجمالاً. لكن خطط الله غير محدودة وغير معروفة، لذلك ربما كان الرئيس الحالي للولايات المتحدة جزءاً من العقاب المخبأ لأجلنا. فأي شيء ممكن إذا أراده الله وذلك بالشرط الحاسم وهو أن يكون موجوداً، بالطبع. فإذا لم يوجد (أو على الأقل، إذا لم يتكلم إلى راتسينغر)، عندئذ تكون كل هذه مجرد قصص لم تعد تخيف أحداً. فالله، كما يقولون، هو سرمدي، ولديه الوقت لكل شيء. قد يكون سرمدياً؛ يمكننا أن نقبل ذلك لكي لا نعارض البابا، لكن سرمديته ليست سوى سرمدية العدم الأبدي.

13 تشرين الأول : إدواردو لورنسو

بقيت مديناً بإصرار إلى إدواردو لورنسو منذ عام 1991 لمدة سبعة عشر عاماً بالضبط. إنه دَينٌ فريد، لأنه رغم أن من الطبيعي بالنسبة له، بصفته الدائن، ألا يكون قد نسيه أبداً، فمن المألوف أقل ألا أكون أنا، المدين، خلافاً لطبيعة نوعي، قد أنكرته أبداً. مع ذلك، إذا كان صحيحاً بالفعل أنني لم أتظاهر أبداً بأنني كثير النسيان لدَيني، فينبغي أن يقال أيضاً إنه لم يسمح لي أبداً بأن أنخدع بصمته التكتيكي عن الموضوع، وهو ما يكسره من حين لآخر، قائلاً: «إذاً، ماذا عن تلك الصور الفوتوغرافية؟» ويكون ردي هو نفسه دائماً: «أوه، يا للجحيم، لقد كنت مشغولاً جداً بالعمل، لكن الأنكى من ذلك هو أنني لازلت غير قادر على إيصالها لأحصل على النسخ جاهزة». وهو بكل تأكيد ثابت على المبدأ مثلي، إذ يقول: «يوجد منها ست، احتفظ بثلاث وأعد لي

البقية». «لا، أبداً، هذا هراء، ينبغي أن تأخذها جميعاً»، هكذا أرد دائماً، شهماً بشكل منافق. الآن، لقد حان الوقت حقاً لأشرح ما هي هذه الصور. لقد كنا ـ هو وأنا ـ في بروكسل، في يوروباليا، وكنا نتسكع مثل أي ثنائي آخر من صالة إلى أخرى، نعلق على الأشياء الجميلة والثرية المعروضة، وكان أوغستو كابريتا معنا، وآلة التصوير جاهزة، بحثاً عن لحظة خالدة. لا أعرف بالضبط ما كان يتوقع أن يجده في تلك اللحظة عندما وقفت وإدواردو وقد أدرنا ظهرينا للوحة مطرزة باروكية لمشهد تاريخي وأسطوري، «هناك بالضبط»، أمر كابريتا، بتلك النبرة القاسية التي يمتلكها المصورون فيما أتخيل أنهم يعتبرونها أوضاعاً حرجة. إلى هذا اليوم ليست لدي أية فكرة أي شيطان صغير جعلني لا آخذ وقاره على محمل الجد. إذ بدأت بتسوية ربطة عنق إدواردو ثم اخترعت شيئاً حول عدم كون نظارتيه على استقامة واحدة وكرست نفسي لوضعهما في مكانهما الصحيح، حيث كانتا في الحقيقة طوال الوقت. طفقنا نضحك مثل صبيين صغيرين، في حين استغل أوغستو كابريتا المناسبة التي قدمت له على طبق، بأخذ لقطة تلو الأخرى. بعد ذلك بأيام قليلة أرسل أوغستو كابريتا الصور إلي، وقد توفي منذ عامين، معتقداً بلا شك أنها ستكون في أيدٍ أمينة. لقد كانت بالفعل في أيد أمينة أو ليست في أيد سيئة. لكنها، كما شرحت، ليست أيد فعالة.

بعد انقضاء زمن قصير على إقدامي على كتابة رواية ***كل الأسماء***، التي لم يكن بوسعي، كما كنت أظن في ذاك الوقت ومازلت أؤمن إلى اليوم، أن أجد أفضل من إدواردو لتقديمها. أعلمته بذلك، وهو الشاب الطيب، فوافق فوراً. جاء اليوم، كانت أكبر غرفة في فندق ألتيس الممتلئ حتى آخره، ولا إشارة أو كلمة من إدواردو لورنسو. يمكنك أن تتنفس الصعداء في الهواء الثقيل ـ لا بد أن شيئاً ما قد حدث. في ذروة

ذلك: كان لكاتب المقالات العظيم سمعة سيئة بسبب سوء طالعه بالفعل، وربما يكون قد نزل في الفندق الخطأ. إنه سيء الطالع للغاية، سيء الطالع بالفعل، بحيث أنه عندما وصل أخيراً أعلن بأخفت صوت في العالم، أنه فقد خطابه. فكان ثمة «آه» ذعر عامة، لم أشارك فيها. لأن شكاً رهيباً كان قد استبد بروحي: إن إدواردو لورنسو قد قرر أن ينتهز الفرصة للثأر لنفسه من أجل حادثة الصور. لقد كنت مخطئاً. مع ملاحظاته أو بدونها، كان الرجل ذكياً كما كان دوماً. فقد تجاوز بعض الأفكار، معدلاً إياها بالنفحة المضللة لشخص يفكر في شيء آخر، فترك قليلاً منها جانباً من أجل امتحان ثان، ورتب أفكاراً أخرى على صينية غير مرئية، ما يسمح لها بأن تطور الربط الضروري بينها وبين الأفكار الصغرى الأخرى التي تبين في الواقع أنها أكثر قيمة مما كانت تبدو للوهلة الأولى. فكانت النتيجة النهائية، إذا كان يجوز لي استعمال هذا المجاز، شذرة من الذهب الخالص.

كان دَيني قد زاد، فصار أوسع من الثقب في طبقة الأوزون. لقد مضت السنون. حتى ـ وهناك دائماً «حتى» تصوبنا أخيراً، كما لو أن الزمن، بعد الكثير من الانتظار، فقد صبره. في هذه الحالة كانت قراءتي الحديثة لمقالة كتبها إدواردو لورنسو بعنوان «*حول السحيق في القدم أو رقصة الزمن*»، نشرت في مجلة دراسات أدبية وثقافية برتغالية من جامعة ماساشوسيتس في دارتماوث. سيكون من المهين أن ألخص هذه القطعة الاستثنائية. سأحصر نفسي بأن أؤكد لكم أن النسخ الشهيرة باتت الآن في حيازتي أخيراً وأن إدواردو سوف يستلمها في غضون أيام قليلة. مع أعظم الصداقة وأعمق الإعجاب.

14 تشرين الأول : خورخي أمادو

منذ سنوات كثيرة أراد خورخي أمادو أن يكون صوت البرازيل ومعناها وبهجتها، وكان يعرف كيف يكون كذلك. لا يحدث غالباً أن ينجح كاتبٌ في أن يصبح مرآة لشعبه بأكمله وصورة وجهية [بورتريه] له. إن جزءاً هاماً من عالم القراء خارج البلد قد بدأ يتعرف على البرازيل عندما بدأ يقرأ خورخي أمادو. ودهش كثير من الناس باكتشاف كتب خورخي أمادو، على أوضح الأدلة، لتغاير المجتمع البرازيلي، ليس من الناحية العرقية فحسب، بل من الناحية الثقافية أيضاً. إن الرأي المعمم المنمط القائل بأن البرازيل يمكن اختزالها إلى المجموع الآلي لسكانها البيض والسود والخلاسيين والهنود - الذي تم تصحيحه، بأي حال، بشكل مضطرد، وإن يكن بشكل متفاوت، بسبب ديناميك التطور في القطاعات المتعددة للتفاعل الاجتماعي في البلد - هذا الرأي هو الذي لقي في أعمال خورخي أمادو الدحض الأكثر جدية والسار في الوقت نفسه. لم نكن غافلين عن الهجرة البرتغالية المبكرة، ولا عن الهجرة الألمانية والإيطالية (على صعيد مختلف في أزمنة مختلفة)، لكن خورخي أمادو هو من وضع أمام أعيننا القليل الذي نعرفه حول هذا الموضوع هناك. فالنسيم الطري الذي هب على الثقافة البرازيلية قد جاء من غنى إثني وتنوع ما كنت لتصدقهما أبداً لو نظرت من خلال عيون الأوروبيين، الذين تعتمت رؤيتهم بالممارسات العزلية للاستعمار. في الحقيقة، منذ القرن التاسع عشر مروراً بالقرن العشرين حتى اليوم، تركت جماعات من الأتراك والسوريين واللبنانيين بلدانها الأصلية وبأعداد كبيرة tutti quanti لينتقلوا، جسداً وروحاً، إلى إغواءات الإلدورادو البرازيلي، وإلى مخاطره أيضاً. وقد فتح خورخي أمادو أبواب كتبه واسعة لهم.

سأعطي مثالاً على ما أقول كتاباً صغيراً ومبهجاً، عنوانه ***اكتشاف أمريكا من قبل الأتراك***، قادراً على حشد الاهتمام المباشر للقراء الأكثر لامبالاة. أبدأ بسرد قصة تركيين، وهما ليسا تركيين، كما يقول أمادو، بل عربيين، يدعيان رضوان مراد وجميل بشارة، قررا الهجرة إلى أمريكا سعياً وراء المال والنساء. على كلٍ، لا تستغرق القصة وقتاً طويلاً (ويبدو أنها بدأت بوحدة واعدة) لتتفرع إلى قصتين أخريين، تظهر فيهما دزينات من الشخصيات الأخرى ـ رجال عنيفون، سكيرون وعاهرات، نساء متعطشات إلى الجنس بقدر تعطشهن إلى الوئام المنزلي، وكلهم يقطنون في مقاطعة ايتابونا (باهيا)، بالضبط حيث ولد أمادو. (هل هي صدفة؟). ليست بلاد البرازيل التشردية أقل عنفاً من شبه الجزيرة الأيبرية. فنحن في بلاد البنادق المستأجرة ومزارع الكاكاو التي كانت فيما مضى مناجم ذهب، والنزاعات التي تحل بضربات المناجل، والكولونيلات المتمردين على القانون الذين يمارسون سلطة لا أحد يفهم كيف حصلوا عليها، ومواخير يتم فيها التقاتل على البغايا كما يتم على الزوجات الأكثر عفة. هنا الناس لا يفكرون إلا بالزنا ومراكمة المال والعشيقات وفرص العربدة. إنهن اللحم لأجل الحكم النهائي، لأجل اللعنة الأبدية. ومع ذلك.... ومع ذلك، على مدى كل هذه القصة العاصفة لأشخاص ذوي سمعة سيئة، هناك يتنفس (أمام ذهول القارئ) نوع من البراءة، طبيعي كالريح التي تهب أو كالماء الذي يجري، عفوي كالأعشاب البرية التي تنبت بعد الأمطار. إن أعجوبة المهارة السردية، ***اكتشاف أمريكا من قبل الأتراك***، بغض النظر عن إيجازها شبه التخطيطي وبساطتها الظاهرة، تستحق أن تحتل مكانها جنباً إلى جنب مع البانورامات الرومانسكية الكبيرة مثل جوبيابا *Jubiaba* أو خيمة المعجزات *A Tendo dos milagres* أو الأرض العنيفة *Terras do*

Sem- Firm. يقولون إن بإمكانك أن تميز عملاقاً من إصبعه. حسناً، إذاً، هنا إصبع العملاق، إصبع خورخي أمادو.

15 تشرين الأول : كارلوس فوينتس

((كارلوس فوينتس، الذي ابتدع عبارة « La Mancha Territory» [أرض لامانشا] صيغة سعيدة صارت تعبر عن تنوع وتعقيد التجارب الثقافية الوجودية التي تربط شبه الجزيرة الأيبرية بأمريكا الجنوبية، نال جائزة دون كيخوته في طليطلة. فيما يلي تقديري للكاتب، الإنسان والصديق)).

كان أول كتاب قرأته لكارلوس فوينتس هو أورا *Aura* . رغم أنني لم أعد إليه، فقد احتفظت إلى هذا اليوم (وقد مضى أكثر من أربعين عاماً) بانطباع كوني قد اخترقت عالماً يختلف عن أي شيء عرفته من قبل مع جو من الموضوعية الواقعية والسحر الغامض، وهذان النقيضان ـ وهما ليسا متناقضين كما يبدو رغم كل شيء ـ امتزجا ليأسرا روح القارئ بطريقة فريدة تماماً. إن قليلاً من لقاءاتي مع الكتب قد تركني مع مثل هذه الذكرى الكثيفة والدائمة.

كان عصراً لم تكن فيه الآداب الأميركية (وهنا أشير إلى أمريكا الجنوبية) تتمتع بحظوة خاصة من الجمهور المثقف. لما كنا على مدى أجيال مفتونين بالأنوار الفرنسية، التي خبت اليوم، فقد كنا نراقب بشيء من اللامبالاة (اللامبالاة المزعومة بالتجاهل التي تعاني من وجوب أن تعترف بنفسها هكذا) ما كان يجري أسفل الريوغراند، وهي، لمجرد مفاقمة الوضع، من الممكن أن تكون قد ارتحلت بحرية نسبياً إلى إسبانيا لكنها كادت أن تتوقف في البرتغال. كان ثمة فجوات، كتب

ببساطة لم تظهر أبداً في المكتبات، والنقص المحزن للنقد المنافس الذي يمكن أن يساعدنا على أن نجد ضمن متناولنا الأشياء الرائعة والتي بقيت تلك الآداب، التي تصارع غالباً ضد شواذ متشابهة، تواصل العمل عليها بشكل مثابر. في الأعماق، قد يكون هناك تفسير آخر: الكتب كانت ترتحل قليلاً. أما نحن أنفسنا فكنا أقل ارتحالاً.

كانت رحلتي الأولى في المكسيك إلى موريليا، حيث شاركت في مؤتمر حول تدوين الأحداث كشكل أدبي. ولم يكن لدي الوقت حينها لزيارة المكتبات، لكنني كنت قد بدأت أدرس بشكل مواظب عمل كارلوس فوينتس، بقراءة أعماله الرئيسية مثل ***La region mas transparence*** [نشر بالإنغليزية تحت عنوان ***Where the Air is Clear***] ***وموت أرتيميو كروز***. لقد بات واضحاً لي أنه كان كاتباً من المعيار الفني الأرقى وذا غنى مفاهيمي نادر. فيما بعد، كان ثمة رواية استثنائية أخرى عنوانها ***Terra Nostra***، التي فتحت لي آفاقاً جديدة، ولا حاجة بي لذكر أية عناوين أخرى هنا (باستثناء ***المرأة المدفونة***، وهو عمل أساسي لا غنى عنه لأي فهم حساس وواع لأمريكا اللاتينية كما فضلت أن أدعوها دائماً) لإثبات أنني منذ ذاك الوقت فصاعداً رأيت نفسي تحديداً كمعجب مخلص لمؤلف كتاب ***غرينغو العجوز*** The ***Old Gringo*** أنا أعرف الكاتب؛ مع ذلك كان علي أن أقابل الرجل.

الآن حان وقت الاعتراف. أنا، شخصياً، لا أخوْف بسهولة، بل العكس تماماً. لكن لقاءاتي الأولى مع كارلوس فوينتس كانت مهذبة دوماً بطبيعة الحال، كما يتوقع المرء من شخصين حسني التربية، ولم تكن سهلة ولا بسبب أي عيب فيه بل بسبب نوع من المقاومة إلى أقصى درجة من طرفي للقبول بشكل طبيعي بشيء ما هو في كارلوس فوينتس طبيعي إلى أقصى حد، أي أسلوبه في اللبس. نحن جميعاً نعرف أن

فوينتس يجيد ارتداء الملابس، بأناقة وذوق حسن؛ فقميصه لا يتجعد أبداً، لكن لسبب غامض كنت أظن أن الكاتب، وخصوصاً الكاتب من ذاك الجزء من العالم، لا ينبغي أن يلبس بتلك الطريقة. إنه خطأي. فقد نجح كارلوس فوينتس في جعل أعظم المطالب النقدية وأعظم الصرامة الأخلاقية - اللذان يمتلكهما - متناسبين مع ربطة عنق أحسن اختيارها. صدقوني. هذا ليس شيئاً قليلاً.

16 تشرين الأول : فيديريكو مايور زاراغوزا

معرض فرانكفورت للكتاب يبدأ: تجمع الكل هناك، كبار مقاولي عالم الكتاب يعلنون عن أوقات عصيبة للشيء الذي طالما كنا نستمد منه مصدر العيش ومازلنا ندين له بالكثير. وكما يبدو فإن كل دور النشر الكبيرة هناك، لكن ثمة عدد لا حصر له من الناشرين الصغار الذين لا يمكنهم السفر، والذين لا يمكنهم أن يتحملوا أجور الأكشاك التي يمكن أن يتحملها الآخرون، ويكافحون مع ذلك ضد تحقق تلك النبوءة القاتلة: مدة السنوات العشر التي ستشهد انتهاء الكتب الورقية وسيطرة الكتب الرقمية. فكيف سيكون شكل المستقبل؟ لا أعرف، رغم أننا لم نصل إلى ذاك اليوم بعد، فهو يوم سيمر قاسياً. ولسكان مجرة غوتنبرغ، أقدم هنا ثناءً مقتضباً للناشرين الصغار، كدار أنفورا الإسبانية، على سبيل المثال، التي توشك أن تنشر كتاباً من تأليف صديقي فيديريكو مايور زاراغوزا، الرجل الذي أراد أن تكون اليونسكو شيئاً أكثر من مجرد اسم أوائلي أو مكان للنخبة. بعبارة أخرى، أرادها منتدى حقيقياً لحل المشاكل، باستخدام الثقافة والتعليم بوصفهما المكونين الأساسيين، إن لم يكونا الوحيدين. لقد كتبت مقدمة لكتاب مايور زاراغوزا عند

قدمي السلام *En Pie de paz* والذي كان نذراً أكثر من كونـه عنوانـاً، وقد أحضرته إلى هذه المدونة اليوم، كتقدمة متواضعة أملاً في أن يضـاف إلى عدد الذين يكافحون لتحسين حياة الآخرين ـ حيـاة النـاس المغفلـي الأسماء الذين هم مادة الكوكب.

عند قدمي السلام

[يترجم فيديريكو مايور زاراغوزا عذابات ضميره إلى قصائد. بالطبع، إنه ليس الشاعر الوحيد الذي يفعل ذلك، لكن الفرق ـ هو برأيـي فـرق أساسي ـ يكمن في حقيقة أن هذه القصائد، بدون اسـتثناء تقريبـاً، هـي نداء إلى ضمير العالم، وقد ألقيت هذه المرة بدون أوهام تفاؤليته المنهجية القديمة. بمخاطبة ضـمير العـالم يمكـن بسـهولة اعتبـاره إيمـاءة مبهمـة أخرى مع ذلك تضاف إلى تلك الإيماءات التي كانت في الآونة الأخـيرة تفسد الخطاب الأيديولوجي وما يُدعى تفكير قطاعات معينة من اليسار. لكن الأمر ليس كذلك. إذ يعرف فيديريكو مايور زاراغوزا البشرية والعالم أفضل من معظم الشعراء، فهو سائح أفكار متقلب، أحد الذين يكرسـون اهتمامهم لاكتشاف أي اتجاه تهب فيه الريح ومن ثم يحددون مسـارهم بشـكل متسـق إلى حيـث يـرون الأنسـب. عنـدما أقـول إن زاراغـوزا في قصائده يناشد ضمير العالم، فأنا أعني أنه يخاطب النـاس، كـلاً علـى حدة ومجتمعين، الـذين يهيمـون، مشوشـين، فاقـدين حـس الاتجـاه، مشدوهين، وسط رسائل متناقضة بشـكل مقصـود، يحـاول ألا يسـتنشـق هواء الأكاذيب المنظمة التي باتت تنافس الأوكسجين البسيط والنتروجين البسيط.

سيقول البعض إن شعر زاراغوزا كان يتغـذى مـن المخـزون الـذي لا ينضب من النوايا الحسـنة. شخصياً، أنا لا أوافق علـى ذلـك. زاراغـوزا

يتغذى ـ شعرياً وحيوياً ـ من مخزون آخر، المخزون الذي يضم كنز لطفه الاستثنائي الذي لا ينضب. فقصائده الأكثر سفسطة مما تكشف بساطتها الشكلية، هي التعبيرات عن شخصية نموذجية، رجل لم ينسلخ عن الجماهير الحية، رجل ينتمي إليها من خلال الشعور والعقل، وهما خاصيتان بشريتان بلغتا مستوى أرقى لدى زاراغوزا. إننا ندين إلى هذا الرجل، هذا الشاعر، هذا المواطن أكثر بكثير مما يمكن أن نتخيل].

17 تشرين الأول : الله بوصفه مشكلة

على قائمة الأشياء الأقل احتمالاً في العالم، فإن إمكانية أن يقرأ الكاردينال روكو فاريلا هذه المدونة ستكون قريبة من الذروة. مهما يكن، بما أن الكنيسة الكاثوليكية مستمرة في الإيمان بحدوث المعجزات، سأضع ثقتي في ذاك اليقين والأمل بأنه ذات يوم ستقع عينا هذا الشخص اللامع الواسع المعرفة واليساري العادي للشيوعية على السطور التالية. ثمة مشاكل أكثر إلحاحاً بكثير من العلمانية، يعتبرها نيافته مسؤولة عن النازية والشيوعية، وعن هذه المشاكل تحديداً أتكلم هنا. لذا اقرأ، يا سيدي الكاردينال، اقرأ، احصل على بعض التمرين الروحي.

الله بوصفه مشكلة

لا شك لدي في أن هذا الخطاب، بدءاً بعنوانه ذاته، هذه المرة على الأقل، سيحقق معجزة التوفيق بين الأخوين العدوين الذين لا يمكن مصالحتهما اللذان يدعيان الإسلام والمسيحية، وخصوصاً فيما يتعلق بالذروة الكونية (أي الكاثوليكية) التي يطمح إليها الإسلام والتي لا تزال المسيحية تعتقد نفسها خطأ أنها تحتلها. في ردود الفعل الأكثر أماناً،

سيصرخ حسنو النية أنه استفزاز لا يغتفر، عدوان لا يغتفر على المشاعر الدينية للمؤمنين على الجانبين، وفي أسوأ الأحوال (افتراض أن لا شيء أسوأ من هذا) سوف أتهم بالتحقير، وتدنيس المقدسات، والتجديف والتدنيس والازدراء وأية اعتداءات أخرى من المرتبة نفسها قد يكونون قادرين على اكتشافها. وبذلك، من يدري، تستحق العقاب الذي سيكون خزياً لبقية حياتي. لو كنت نفسي أنتمي إلى النادي المسيحي، لكان على كاثوليكية الفاتيكان أن تقطع مشاهد أسلوب سيسيل ب. دو ميل التي تطلقها حالياً لاستغلال المشكلة بحرماني كنسياً؛ مع ذلك، حالما نفذوا هذا الالتزام التأديبي وجدوا أنفسهم يفقدون أعصابهم. لقد كانوا قبلئذ يفتقرون إلى القوة من أجل أفعال أكثر جرأة، ذلك أن الدموع التي يذرفها ضحاياهم قد بللت ـ إلى الأبد، كما نأمل ـ الحطب الذي شكل الترسانة التكنولوجية لأول محكمة تفتيش. أما فيما يتعلق بالإسلام، في شكله الأصولي الحديث (العنيف والأصولي كما كانت الكاثوليكية في طبعتها الإمبراطورية)، فإن كلمة السر بامتياز، التي يتم الإعلان عنها بشكل جنوني كل يوم، هي الموت للكافرين، أو بترجمة حرة، إذا كنت لا تؤمن بالله فأنت صرصور قذر، وهو، حتى رغم ذلك، أيضاً، مخلوق ولد من الأمر الإلهي، فأي مسلم يتبع طرقاً ناشطة له حق مقدس وعليه واجب أن يسحقه تحت الخف [الشبشب] الذي سيدخل به جنة محمد التي سيُستقبل فيها بأحضان الحوريات المثيرة. لذلك اسمحوا لي بالقول الآن إن الله، الذي كان مشكلة على الدوام، هو الآن المشكلة.

مثل أي شخص آخر ليس غير مبال بوضع العالم المثير للشفقة الذي يعيش فيه، قرأت بعضاً مما كتبه آخرون حول الدوافع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية والاستراتيجية وحتى الأخلاقية التي تجذرت فيها الحركات العدوانية، الحركات التي ترمي ما يدعى

العالم الغربي (وليس هنا فقط) في حالة من الضياع والخوف وحتى الرعب الشديد. فالقنابل ذات القدرة المتدنية نسبياً (ينبغي أن نتذكر أنها كانت تحمل بشكل شبه دائم إلى موقع الهجمات في حقائب الظهر)، القليل فقط هنا وهناك، كانت كافية لأن تهز حضارتنا المستنيرة جداً وبدأت تصدع أسسها، مقربة الانهيار الكبير للبنى المعرضة للخطر بشكل مطلق للأمن الجماعي الذي تمت إقامته وصيانته بمثل هذا الجهد والكلفة. لقد تبين أن أقدامنا، التي كنا نظن أنها منعلة بأقوى فولاذ، هي أقدام من طين.

قد تقول إنه صدام الحضارات. ربما، لكنه لا يبدو كذلك بالنسبة لي. فأكثر من ستة آلاف مليون نسمة، سكان هذا الكوكب، جميعاً، يعيشون في ما يمكن أن ندعوها بشكل دقيق حضارة نفط عالمية: حتى أولئك المحرومون من «الذهب الأسود» النفيس ليسوا خارج سيطرتها. تخلق حضارة النفط هذه (بشكل غير متكافئ، كما نعرف) حاجات متعددة وتشبعها وتستدرج إلى النبع نفسه إغريقيي الشهرة الكلاسيكية وطرواديها، جنباً إلى جنب مع العرب وغير العرب، المسيحيين والمسلمين، دون أن تذكر أولئك الذين لازالوا، لكونهم لا هؤلاء ولا أولئك، حيثما أمكنهم ذلك، يمتلكون سيارة ليقودوها، أو حفارة لينصبوها للعمل، أو ولاعة سجائر ليشعلوها. من الواضح أن ذلك لا يعني ألا نكون قادرين تحت هذه الحضارة المشتركة بين الجميع على تمييز آثار (أو أكثر من الآثار في بعض الحالات) الثقافات والحضارات القديمة داخلة الآن في السيرورات التكنولوجية للتغريب كما لو كانت في مسيرة إجبارية ـ نجح التغريب في اختراق النواة الأساسية للذهنيات الفردية والجماعية لهذه الثقافات بصعوبة كبيرة فقط. ولسبب ما يقولون إن العادة لا تجعل القرد...

إن تحالف الحضارات، إذا تحقق، يمكن أن يمثل خطوة هامة نحو تخفيض التوترات العالمية، خطوة يبدو أننا كنا بعيدين عنها دوماً، لكنها ستكون غير كافية، إن لم تكن غير قابلة للتطبيق كلياً، إذا لم تتضمن حواراً بين الطوائف، لأنه بدونه لن تكون هناك إمكانية حتى بعيدة للتحالف.... نظراً إلى أنه لا يوجد مبرر للخوف من أن الصينيين أو اليابانيين أو الهنود، على سبيل المثال، قد يمولون مخططاتهم الخاصة للسيطرة على العالم، ناشرين معتقداتهم المختلفة (الكونفوشيوسية، البوذية، الطاوية، الهندوسية) بوسائل سلمية أو عنيفة، سيكون أكثر من واضح أنني عندما أتكلم عن تحالف الحضارات فإنما أفكر بشكل خاص بالمسيحيين والمسلمين، الأخوة الأعداء الذين تناوبوا عبر التاريخ ـ تارة هؤلاء وتارة أخرى أولئك ـ في دوري الجلاد والضحية المتساويين والأبديين ظاهرياً.

من هنا، سواء أحببت ذلك أم لا، لدينا الله كمشكلة. الله كالصخرة في منتصف الطريق، الله كذريعة لأجل الكراهية، الله كعنصر للشقاق. لكن لا أحد يجرؤ على ذكر هذه البينة الأكثر وضوحاً من النظرة الأولى prima facie في أي تحليل من التحليلات الكثيرة للمسألة، سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم سوسيولوجية أم منفعية استراتيجية بطبيعتها. إنه كما لو كان نوعاً من الخوف التبجيلي، أو التسليم بما هو مكرس بوصفه قويماً من الناحية السياسية، قد منع المحلل من رؤية ما هو موجود في خيوط الشبكة، النسيج المتاهي الذي لم يكن هناك أي مهرب منه، أي الله. لو كان علي أن أخبر مسيحياً أو مسلماً أن الكون مكون من أكثر من أربعمائة ألف مليون نجم، وأن الإله، سواء كان الله أو غيره، لم يكن بمقدوره أن يصنع ذلك، لأجابوا بشكل غاضب أنه

فيما يتعلق بالإله، سواء كان الله أو غيره، لاشيء مستحيل. سوى أنه بشكل ظاهري ـ كما كنت سأجادل ـ فإن إقامة السلام بين الإسلام والمسيحية، عن طريق مصالحة الأنواع الحيوانية الأكثر بؤساً التي يقال إنها قد ولدت من مشيئته، فإن النوع المصنوع على صورته، أي النوع البشري.

في الكون الفيزيائي لا توجد محبة ولا عدالة. ولا توجد وحشية. لا سلطة تتسيد على الأربعمائة ألف مليون مجرة والأربعمائة ألف نجم التي توجد في كل مجرة. لا أحد يجعل الشمس تشرق كل نهار والقمر يطلع كل ليل، حتى عندما لا يكون مرئياً في السماء بما أننا وُضعنا هنا بدون معرفة لماذا أو من أجل ماذا كان علينا أن نخترع كل شيء. لقد اخترعنا الإله أيضاً، لكنه لم يذهب أبعد من أفكارنا؛ بالأحرى، لقد بقي داخل رؤوسنا. في بعض الأحيان كحقيقة من حقائق الحياة، بشكل شبه دائم كأداة للموت. يمكننا القول، «ها هو المحراث الذي اخترعناه»، لكننا لا يمكننا القول: «ها هو الله الذي اخترع الإنسان الذي اخترع المحراث». لا يمكننا أن نلغي هذا الإله من عقولنا. حتى الملحد مثلي لا يمكنه فعل ذلك. لا جدوى من القول إن القتل باسم الله يجعل الله قاتلاً. بالنسبة لأولئك الذين يقتلون باسم الله فإن الله ليس القاضي الذي سيغفر لهم ذلك فحسب، بل هو أيضاً الأب القوي الذي اعتاد في أذهانهم أن يؤمن الحطب لأجل محارق التفتيش autos da fe والآن يحضر ويأمر بزرع القنابل. دعونا نناقش هذا الاختراع، دعونا نحل هذه المشكلة، دعونا نعترف على الأقل بأن المشكلة قائمة. قبل أن نجن جميعاً. ومن هناك فصاعداً، من يدري؟ ربما ستكون تلك هي الكيفية التي سوف ننجح بها في ألا نستمر في قتل بعضنا بعضاً.

20 تشرين الأول: جريمة (مالية) ضد البشرية

«كنت أفكر بالكتابة في المدونة حول الأزمة الاقتصادية التي تحل علينا، لكن كان علي أن أكرس نفسي بدلاً من ذلك للإيفاء بالتزام لوسيلة تواصل أخرى. هنا أعرض عليكم أفكاري التي نشرت قبلاً في إسبانيا في صحيفة ببليكو *Publico* وفي البرتغال في مجلة إكسبرسو *Expresso* الأسبوعية:

حرب (مالية) ضد البشرية

القصة معروفة جداً، وفي الأيام الخوالي عندما كانت المدارس تعتبر نفسها الأدوات المثالية للتعليم، وكانت تدرس للأولاد كمثال على التواضع والتعقل اللذان ينبغي أن يبقيا فينا عندما يغرينا الشيطان بالتمسك برأي حول مسألة لا نعرف شيئاً أو نعرف القليل عنها. أتاح أبيلز Apelles للإسكافي بأن يكتشف خطأ في حذاء الشخص الذي رسمه، لأن الأحذية هي شغل الإسكافي، لكن الإسكافي نفسه ينبغي ألا يتجرأ على إبداء رأيه في تشريح الركبة، على سبيل المثال. باختصار، هناك مكان لكل شخص وكل شخص في مكانه. للوهلة الأولى، كان أبيلز على حق: فقد كان هو الأستاذ، كان الرسام، كان المرجع، وفيما يتعلق بالإسكافي، فسوف يُستدعى في الوقت المناسب عندما تكون المسألة هي وضع نصف نعل على زوج من الأحذية. في الواقع، أين سنكون إذاً لو كان بإمكان أي شخص، بمن في ذلك الأكثر جهلاً بشكل شامل، أن يسمح لنفسه بأن يعرض رأياً حول أشياء لا يعرفها؟ لو أن شخصاً ما لم يكمل الدراسات الضرورية، لبقي صامتاً وترك مسؤولية صنع القرارات الأنسب (المناسبة لمن؟) لأولئك الذين يعرفون.

نعم,للوهلة الأولى كان أبيلز على حق، لكن فقط للوهلة الأولى. فرسام فيليب والإسكندر المقدوني، الذي كان يعتبر عبقرياً في يومه، قد نسي جانباً هاماً واحداً من المسألة: إن للإسكافي ركبتين. لذلك فإنه بالتعريف كفؤ في هذين المفصلين، حتى ولو فقط ليشكو من الآلام التي يشعر بها فيهما (إن شعر). الآن سيكون القارئ النبيه قد فهم أن هذه السطور ليست في الواقع حول أبيلز ولا حول الإسكافي. فما تدور حوله هو الأزمة الاقتصادية والمالية الخطيرة إلى درجة قصوى التي تلف العالم، إلى حد أننا لا نستطيع أن نهرب من الشعور المكروب بأننا قد وصلنا إلى نهاية عصر بدون أن نكون قادرين على ألا نلمح ما هو العصر التالي أو ما الذي سيجلبه ولا كيف سنقوم بعد فترة وسيطة، مدة من الزمن من المستحيل التنبؤ بها، بترميم الخرائب وفتح مسارات جديدة.

كيف ذلك؟ كيف يمكن لحكاية أسطورية قديمة أن تشرح كوارث اليوم؟ حسناً، لم لا؟ فالإسكافي هو نحن، أولئك الذين يجلسون عاجزين فيما القوى الاقتصادية والمالية العظمى تقترب، ساحقة، مجنونة لتغزو المزيد ثم المزيد من المال، والمزيد ثم المزيد من السلطة، بأية وسيلة قانونية أو غير قانونية في قبضتها، مهما كانت نظيفة أو قذرة، عادية أم إجرامية. وأبيلز؟ أبيلز هو بالتحديد أولئك الصيارفة، أولئك الساسة، أصحاب شركات التأمين، المضاربون الكبار. الذين استجابوا على مدى السنوات الثلاثين الماضية لاحتجاجاتنا الجبانة، بالتواطؤ مع وسائل الإعلام، بغطرسة أولئك الذين يعتبرون أنفسهم مالكي الحكمة المطلقة. أي، حتى إذا آلمتنا ركبتانا فليس مسموحاً لنا أن نتكلم عن ذلك، أن نشجب ذلك، أن نحمل إصابتهما إلى الإدانة العامة. تلك العقود الثلاثة كانت حقبة الإمبراطورية المطلقة للسوق، ذاك الكيان الذاتي التوازن والذاتي الاتزان والذاتي التصحيح بشكل مفترض المسؤول عن المصير الثابت لترتيب سعادتنا الشخصية والجماعية والدفاع عنها طوال كل

الوقت، حتى لو كان في الواقع ينكر ذلك علينا بشكل ثابت.

هكذا وماذا الآن؟ هل ستصل الفراديس المصرفية والحسابات المرقمة إلى نهايتها أخيراً؟ هل ستكون هناك استقصاءات لا تكل ولا تمل لأصول الودائع المصرفية الهائلة، والمكائد المالية الإجرامية بشكل صارخ، والاستثمارات المبهمة التي لم تكن في كثير من الأحيان أكثر من غسيل بالجملة للمال القذر، لمال المتاجرة بالمخدرات؟ وبما أننا نتحدث عن الجرائم.... فهل سيقتنع المواطنون العاديون برؤية المسؤولين عن الزلزال الذي يهز بيوتنا، وحياة أسرنا ووظائفنا وهم يساقون إلى المحاكمة ويدانون؟ من سيحل مشكلة العاطلين عن العمل لأشهر أو لسنوات، اللذين يكافحون للعيش على الإعانات الحكومية البائسة في حين أن الرؤوساء التنفيذيين والمدراء الكبار اللذين أوصلوا بشكل متعمد شركاتهم إلى الجدار يتمتعون بملايين وملايين الدولارات، تحميهم العقود المحصنة التي تدعي السلطات المصرفية، التي تتلقى رواتبها من مال دافعي الضرائب، بأنها لا تعرف شيئاً عنها؟ والتواطؤ الفعال للحكومات، من سيحقق في ذلك؟ بوش، ذاك النتاج الخبيث للطبيعة في إحدى أسوأ لحظاتها، سيقول إن خطته قد أنقذت (ستنقذ؟) الاقتصاد الأمريكي الشمالي، لكن ثمة أسئلة سيكون عليه أن يجيب عليها: ألم تكن تعرف ماذا كان يحدث في غرف الاجتماعات المترفة جداً، التي حتى في السينما قد أدخلتنا إليها، وهي لم تدخلنا وحسب بل أظهرت لنا القرارات الإجرامية التي يتم اتخاذها، التي يعاقب عليها كل قانون جزائي في العالم؟ ما هو الخير الذي تمثله لكم الـ CIA والـ FBI، أو دزينة من مؤسسات الأمن القومي الأخرى التي تكاثرت فيما تسمى خطأً الديموقراطية الأميركية الشمالية، حيث يتعين على المسافر الداخل إلى البلد أن يسلم حاسوبه إلى ضابط من شرطة الحدود

وأن يسمح له بنسخ قرصه الصلب؟ ألم يتحقق السيد بوش أن له عدو في الداخل، أو بالأحرى، هل تحقق لكنه لا يبالي؟

من كافة النواحي، ما يحدث هو جريمة ضد البشرية، وفي ضوء ذلك ينبغي أن يُدرس ذلك في كل منتدى عام وفي كل ضمير. أنا لا أبالغ، فالجرائم ضد البشرية ليست محصورة بالإبادة الجماعية الإثنية، بمعسكرات الموت، التعذيب، الاغتيالات المدبرة، المجاعات المفتعلة بشكل متعمد، التلوث الشامل، كبت هويات الضحايا من خلال الإذلال، الجريمة ضد البشرية هي ما تقترفه السلطات المالية والاقتصادية للولايات المتحدة، بالتواطؤ الفعلي أو الضمني لحكومتها، بدم بارد ضد ملايين البشر في العالم، المهددين بفقدان كل ما تركوه من مال، بعد أن فقد الكثيرون منهم ـ لا أشك في وجود الملايين منهم ـ مصدر دخلهم الوحيد، غير الكافي غالباً: العمل.

المجرمون معروفون، لهم أسماء وكنيات، مع ذلك فإنهم يستقلون سيارات الليموزين إلى مضمار الفولف، واثقين للغاية بحيث أنهم لا يفكرون حتى بالتخفي. من السهل القبض عليهم. من يجرؤ على جلب رجال العصابات هؤلاء إلى المحكمة؟ حتى لو لم ينجح العمل ضدهم، سنكون جميعاً ممتنين للغاية. إذ سيكون ذلك إشارة على أن كل شيء لم يضع بالنسبة للشرفاء.

21 تشرين الأول : دساتير ووقائع

دخل الدستور البرتغالي حيز التنفيذ الفعلي في 25 نيسان 1976. بعد عامين من الثورة ونهاية حقبة مضطربة من الصراعات الحزبية وعدم الاستقرار الاجتماعي. منذئذ مر بسبعة تنقيحات، كان آخرها في

عام 2005. إنه إعلان نية في كثير من مواده المكونة للدستور السياسي.
لا ينبغي على الدستوريين أن يمزقوا ثيابهم عندما أقول هذا: أنا لا أحاول أن أقلل من أهمية هذه الوثائق، التي أدرسها هنا بالتوازي مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي كان ساري المفعول (أو بالأحرى، ينبغي أن نقول، في حالة كمون) منذ 1948. كما سنعرف، إن التغييرات الطارئة على الدستور هي شكل من التصحيح المملاني، التعديلات على الواقع الاجتماعي، عندما لا تكون ببساطة نتيجة للإرادة السياسية لغالبية برلمانية قادرة على تعزيز أفضلياتها الخاصة أو فرضها. من الناحية الأخرى، قد يكون من خلال الإطاحة أو العطالة، من غير المألوف بالنسبة للدساتير، أو لبعضها على الأقل، أن تحتفظ بالبقايا الأحفورية [المستحاثية] للمواد التي فقدت كلياً أو جزئياً معناها الأصلي. لا توجد طريقة أخرى لشرح كيف احتفظ بمقدمة الدستور البرتغالي، كما لو أنه لا يمكن مسه، وحتى كما لو أنه امتياز بلاغي خاص، عبارة «ليفتح طريقاً إلى الاشتراكية». في عالم تهيمن عليه ليبرالية اقتصادية ومالية هي الأكثر وحشية سبق تخيلها، فإن هذه الإشارة، الصدى الأخير لألف طموح شعبي، تخاطر بإثارة ابتسامة، أي ابتسامة مليئة بالدموع. الدساتير توجد، وفي ضوئها أعتقد أننا ينبغي أن نحكم على إدارة حكوماتنا. فقانون الغاب الذي حكم هذه السنوات الثلاثين المنصرمة ما كان لينتج التبعات التي نراها اليوم لو أن الحكومات، كلها، قد جعلت كل واحدة منها دستور بلدها vade mecum المراد ليلاً نهاراً، الكتاب الأول لكل المواطنين الصالحين. قد يكون الأمر أن الصدمة الرهيبة التي يمر بها العالم سوف تقودنا إلى معاملة دساتيرنا بوصفها شيئاً أكثر من الإعلانات البسيطة للنية التي تبقى هكذا في كثير من الجوانب. دعونا نأمل ذلك.

22 تشرين الأول : تشيكو بوارك دي هولندا

هل توجد أكوان متوازية؟ في مواجهة «البراهين» المختلفة المقدمة إلى محكمة الرأي العام من قبل أولئك الكتاب الذين يكرسون أنفسهم للخيال العلمي، ليس من الصعب تصديق وجودها، أو على الأقل التسليم بهذه الفرضية الجريئة التي لن ننكر أياً منها - أي، فائدة الشك. الآن، بافتراض أن هذه الأكوان المتوازية موجودة، سيكون من المنطقي وأعتقد أنه من الحتمي أن نعترف بوجود الآداب المتوازية. لن تفشل الروح الساخرة في تذكيرنا بأننا لا داعي لأن نمضي بعيداً إلى هذا الحد لنجد كتاباً متوازين، معروفين بشكل أفضل بأنهم منتحلون لآراء غيرهم، ومع ذلك لا يصبحون فعلا منتحلين حقيقيين على الإطلاق لأنهم يشعرون بأنهم ملزمون بوضع شيء ما من جهدهم في العمل الذي يوقعونه باسمهم الخاص. كان الانتحال الحقيقي هو ما فعله بيير مينارد الذي نسخ رواية **دون كيخوته**، بحسب بورخس، كلمة كلمة، وحتى في هذه الحالة فقد حذرنا بورخس نفسه من أن كلمة عدالة في القرن العشرين لا تعني الشيء نفسه (أو العدالة نفسها) كما كانت تعني عندما كتبت في بداية القرن السابع عشر.... ثمة نوع آخر من الكاتب الموازي (يدعى في هذه الأيام «شبح») هو الكاتب الذي يكتب للآخرين بحيث يمكنهم أن يستمتعوا بالمجد المفترض أو الفعلي لرؤية أسمائهم على غلاف كتاب. هذا النمط من المؤلف هو ما تدور حوله كما يبدو رواية بودابست لتشيكو بوارك دي هولاندا، وإذا قلت كما يبدو فذلك فقط لأن الشبح الذي نتابع مغامراته المضحكة (ونحن مستمتعون وفي الوقت نفسه مفعمون بالشفقة) هو مجرد السبب اللاواعي لسلسلة من التكرارات، التي، إن لم تكن أكواناً أو آداباً مكررة فعلا، هي بالتأكيد، على نحو

محبط تكرارات لمؤلفين وكتب. إن ما هو أكثر إثارة للقلق، مع ذلك، هو الشعور بالدوار الذي ينتاب القارئ بشكل مستمر، الذي كان يعرف من لحظة إلى لحظة أين كان لكنه من لحظة إلى لحظة لا يعرف أين هو. بدون أن تبدو أنها تحاول فعل ذلك، تعبر كل صفحة من الرواية عن سؤال «فلسفي» واستفزاز «أونطولوجي»: ما هو الواقع، رغم كل شيء؟ ماذا ومن أكون أنا، بعد كل شيء، في هذا المخطط الذي علموني أن أسميه الواقع؟ الكتاب يوجد، يكف عن الوجود، وسوف يوجد مرة أخرى. كتبه شخص، ووقعه شخص آخر؛ إذا اختفى الكتاب، فهل سيختفيان، أيضاً؟ وإذا اختفيا، فهل سيختفيان دفعة واحدة أم جزئياً فقط؟ إذا نجا أحدهما، فهل سينجو في هذا الكون أم في كون آخر؟ من ساكون، إذا لم أعد بنجاتي من كنت أنا؟ يبدي تشيكو بوارك جراءة كبيرة في هذا الكتاب؛ فهو يكتب عبر السير على حبل مرتفع وجعله إلى الجانب الآخر. إلى الجانب حيث نجد عمله منجزاً ببراعة، كاشفاً عن أستاذية في اللغة، في البناء السردي، في مجرد الخداع. لا أظن أنني مخطئ عندما أقول إن شيئاً ما جديداً حدث في البرازيل مع ظهور هذا الكتاب.

23 تشرين الأول: هل للجلادين أرواح ؟

على مدى الأيام القليلة الماضية كان القاضي غارزون هدفاً للهجوم. فحتى أولئك الذين يدافعون عنه جادلوا بأن شخصيته مثيرة للجدل، كما لو كنا ملزمين، كل على حدة، بأن نكون مطابقين لجارنا الأقرب إلينا... الموضوع هو أن غارزون، مع مراسيمه الفردية إلى حد كبير، هو الذي قدم أعظم البهجة إلى الذين يتوقعون - برغم كل شيء - الكثير من العدالة أو، لنكن أكثر دقة، من أولئك الذين عهد إليهم بمهمة

تحقيقها. بمتابعة بعض الشكاوى التي أثارت اهتمامه،فقد خاض غارزون في قضية أكبر منه ومن كل المؤسسات القضائية مجتمعة: الحرب الأهلية الإسبانية، لاشرعية الفرانكوية، مصير الذين دافعوا عن الجمهورية وعن طريقة حياة بأكملها. هو يعرف أنه ربما كان عليه أن يغادر ساحة المعركة، لكنه سيترك الأبواب مفتوحة للإطلاع على بعض الحقائق، و لتحديد هويات الموتى دفنهم بشكل لائق في نهاية المطاف. إن العهد الانتقالي الإسباني، وهو الفترة التي عاش خلالها [الناس] أملاً في حدوث الممكن، ليس تصرفاً آمناً: لقد خضع اليسار لأن الفرانكوية العسكرية والمدنية بدأتا بالظهور. لكنه [اليسار] لم يستسلم، لم يقل، «هذه هي الكلمة الأخيرة». إنه ببساطة انتظر مجيء اليوم الذي يمكنه فيه أن يحصي أمواته وأن يسمي الأشياء بأسمائها الصحيحة. لقد استعمل غارزون موقعه في السلطة للمساعدة، ولم يشعر أحد بالفرح لذلك أكثر مما شعر ضحايا الحرب الذين نجحوا في البقاء أحياء إلى هذا اليوم.

ليس القاضي غارزون حزبياً. إنه يفهم الآن أن لاشيء إنسانياً يمكن أن يكون غريباً عليه، وهو ينقب في مسائل يعتبرها جنائية لأنه يمتلك السلطة لفعل ذلك. إنه يتساءل أيضاً ما إذا كان للجلادين أرواح، وهو مؤشر أكثر من كاف على أنه يقترب من تحليل كلي الجانبين. منذ أشهر قليلة طلب مني أن أكتب مقدمة لعمل كان قد انتهى منه مع الصحافي فيسنتي روميرو. وهذا العمل، أكرر القول، كان استقصاء في سلوك الجلادين. لقد نصحت بحماس بقراءة هذا الكتاب ـ ***روح الجلادين*** ***El Alma de los Verdugos***، *الذي نشرته دار RBA* وإلى أن تحصل على نسخة في متناول يديك سأتركك مع هذه السطور التي كتبتها بأسلوب المقدمة من أجل بالتاسار غارزون وفيسنتي روميرو.

هل للجلادين ارواح؟

إن فكرة الروح التي يمكن اعتبارها مسؤولة عن أي جرم وعن كل جرم نرتكبه يجب أن تقودنا بالضرورة إلى حد الاعتراف بالبراءة الكاملة للجسد، مختزلاً إلى كونه الأداة المنفعلة للإرادة، للتوق، للرغبة التي يستحيل تحديد موقعها في أي جزء معين بذاته. فاليد المسترخية، بعظامها وأعصابها وأوتارها، مستعدة لتنفيذ أمر في اللحظة التي يُعطى فيها، فالأمر ليست اليد مسؤولة عنه، سواء كان الأمر هو تقديم زهرة لشخص ما أو إطفاء سيجارة على جلد شخص ما. من الناحية الأخرى، فإن رد المسؤولية مسبقاً عن كل أفعالنا إلى كيان لامادي، هو الروح، أي الذي يتوسطه ضميرنا، وهو أيضاً القاضي [الذي يحكم] على تلك الأفعال، إنما يقودنا إلى حلقة شريرة، لا يكون فيها المتهم في النهاية مسؤولاً عن عمله. نعم إننا نقبل أن تكون روحه مسؤولة، لكن أين تكون هذه الروح بالنسبة لنا لكي نضعها في الأغلال ونرسلها إلى المحاكمة؟ نعم، يمكننا أن نبين أن المطرقة التي حطمت جمجمة الضحية قد استخدمتها يده، لكن إذا كانت اليد التي قتلت من الممكن أن تكون قبلئذ بالسهولة نفسها - أو بشكل غير واع - قد قدمت زهرة، فكيف يمكننا أن نجرمها؟ هل الزهرة تبرئ المطرقة؟

لقد ذكرت آنفاً أن الإرادة، الحاجة، الرغبة (المرادفات، لنتكلم تحديداً، لا يمكن إبقاؤها جانباً) لا يمكن تحديد موقعها بشكل خاص في الجسد. من المؤكد أن ذلك كثير. إذ لا أحد يمكنه أن يصرح، على سبيل المثال، بأن الإرادة توجد بين الإصبعين الوسطى والسبابة لليد المستخدمة حالياً في خنق شخص ما بمساعدة شريكتها اليسرى. مع ذلك، فإننا جميعاً نتصور أنه إذا كانت الإرادة تمتلك بيتاً، ولا بد أنها تمتلكه، عندئذ لا يمكن أن تكون إلا داخل الدماغ، ذاك الكون المعقد

(القشرة المخية تبلغ سماكتها حوالي خمسة ميلليمترات وتحتوي على سبعين ألف مليون خلية عصبية مرتبة في ست طبقات مترابطة) الذي لازالت وظيفته بحاجة إلى أن تدرس على نطاق واسع. إننا الدماغ الذي نملكه في أية لحظة مفترضة، وتلك هي الحقيقة الأساسية الوحيدة التي يمكننا أن نعلنها حول أنفسنا. ما هي، إذاً، الإرادة؟ هل هي شيء مادي؟ لا يمكنني أن أتخيل، ولا أظن أحداً أمكنه أن يتخيل، أي صنف من الحجج يمكنك أن تستعمله للدفاع عن المادية المزعومة للإرادة بدون تقديم بعض البرهان المادي على المادية نفسها....

إن الإرادوية، كما تعرف على نطاق واسع، هي النظرية التي تقول بأن الإرادة هي أساس الكينونة، جذر الفعل، وهي، علاوة على ذلك، الوظيفة الجوهرية للحياة الحيوانية. فالنزعات الإرادوية وجدت قبل الآن في العصور القديمة الكلاسيكية في الأرسطوية والرواقية. في الفلسفة المعاصرة، يضم الإرادويون شوبنهاور (الإرادة بوصفها جوهر العالم، لكن خارج نطاق التمثل المعرفي) ونيتشه (إرادة القوة كمبدأ لأجل تحقيق النجاح في الحياة). هذه مسألة خطيرة، وكل الدليل يحتاج إلى شخص ما هنا (ليس الشخص الذي يكتب هذه السطور) يكون قادراً على ربط هذه التأملات والتأملات الفلسفية الأخرى حول الإرادة بمحتويات هذا الكتاب، الذي عنوانه، دعونا لا ننسى، هو *روح الجلادين*. ربما كان علي أن أتوقف هنا، لفائدة مفهومي للشرف، لولا أن عيني لم تقعا ـ فيما يدي تقلب متلهية عبر قاموس متواضع ـ على التعريف التالي: «الإرادة، القدرة على تقرير القيام أو عدم القيام بشيء ما». الحرية متجذرة فيها. لا شيء يمكن أن يكون أوضح، كما ترى: من خلال إرادتي يمكنني أن أقرر فعل أو عدم فعل شيء ما، والحرية تجعلني حراً في أن أقرر بنفسي هذا الطريق أو ذاك. بما أن اللغة قد عودتنا على

أن نعتبر الإرادة والحرية مفهومين ايجابيين بشكل متأصل، ندرك فجأة خوفاً غريزياً من أن الميداليتين البراقتين يمكن أن تظهرا النقيض العام والمطلق على وجهيهما المقابلين. فمن خلال استخدام حريته مع ذلك (الصادم مع ذلك هو أن استعمال هذه الكلمة قد يبدو لنا في سياق كهذا) أن الجنرال فيديلا أصبح، من خلال إرادته الخاصة ـ وأنا ألح على ذلك، من خلال إرادته الخاصة ـ أحد أقرف المشاركين في التاريخ العالمي الدموي والذي لا نهاية له كما يبدو من التعذيب والقتل. وبشكل مماثل كان باستعمال إرادتهم وحريتهم أن المعذبين [الجلادين] الأرجنتينيين نفذوا عملهم المروع. لقد أرادوا فعل ذلك، وفعلوه. لذلك لا غفران ممكناً. لا مصالحة وطنية أو شخصية ممكنة.

إن معرفة ما إذا كانوا يملكون أو لا يملكون أرواحاً لا تهم كثيراً. في الحقيقة، إن الشخص الذي ينبغي أن يعرف أكثر حول هذا الموضوع هو القس الكاثوليكي الأرجنتيني كريستيان فون فرنيتش، الذي حكم عليه منذ أشهر قليلة بالحبس مدى الحياة من أجل الإبادة الجماعية. يظهر سجل خدمته ستة جرائم قتل وتعذيب أربعة وثلاثين شخصاً، واثنين وأربعين حالة خطف. وإذا كان مسموحاً لي بالتهكم المأساوي، فمن الممكن حتى أنه في لحظة معينة قدم لأحد ضحاياه آخر الشعائر [الدينية].

24 تشرين الأول : خوسيه لويس سامبدرو

بعد ظهر هذا اليوم سمعت ذكراً لخوسيه لويس سامبدرو، وهو عالم اقتصاد وكاتب وهو فوق كل شيء رجل حكيم، ذو حكمة لا تأتي مع العمر (رغم أن العمر يمكن أن يساعد قليلاً)، بل من التأمل كطريقة للحياة. سئل على التلفزيون حول أزمة 1929، التي مر بها عندما كان

طفلاً ودرسها كأكاديمي. فقدم إجابات ذكية سيجدها في كتبه أي شخص مهتم بفهم ما يجري (لقد كتب خوسيه لويس سامبدرو الكثير للغاية)، أو بالبحث عن مقالاته الصحفية على الشبكة، لكن كان ثمة سؤال واحد طرحه بنفسه ـ وليس المذيع الذي أجرى المقابلة ـ وبقي محفوراً في ذاكرتي. سألنا الأستاذ، وسأل نفسه، كيف نفسر السبب في أن المال المستعمل لإنقاذ البنوك قد ظهر بهذه السرعة ومنح بشكل غير مشروط، وما إذا كان هذا المال سيظهر بنفس السرعة لو أنه استجدي للمساعدة بحالة طوارئ في أفريقية، أو لكافحة الآيدز. لم نستغرق وقتاً طويلاً لنحرز الجواب. إن الاقتصاد الذي يمكننا أن ننقذه، وليس الكائن البشري، هو الذي ينبغي أن يحظى بالأولوية المطلقة، أياً كان وأينما كان أو كانت. خوسيه لويس سامبدرو هو إنساني عظيم بالإضافة إلى كونه مثالاً على الاستبصار. في مقابل ما يقال أحياناً، فإن العالم لا يفتقر كلياً إلى الناس الجديرين مثله، لذلك ينبغي أن نوليه اهتماماً متأنياً. وأن نفعل ما يخبرنا به: تدخلوا، تدخلوا، تدخلوا!

27 تشرين الأول: عندما أكبر أريد أن أكون مثل ريتا

ريتا التي أريد أكون مثلها هي ريتا ليفي ـ مونتالتشيني، الحائزة على جائزة نوبل في الطب عام 1984 من أجل أبحاثها في نشوء الخلايا العصبونية. بفرض أنني حصلت على جائزة نوبل، فليس ذلك بأي طموح من أجل مجد أكثر أو أقل (خيارات أولئك المطلعين على معلومات غير متاحة) بحيث أنني مستعد للكف عن كوني من أنا لكي أصبح ريتا. على هذا النحو، بما أنني من عمر يبدو فيه أي ضرب من التغيير، مهما كان واعداً، على الدوام تضحية بالمسارات التي ينتهي بنا المطاف أكثر أو أقل إلى تبنيها.

لماذا إذاً أريد أن أكون مثل ريتا؟ إنها مسألة بسيطة. ففي حفل تقليدها كطبيبة (Honaris Causa)، وهي تلقي المحاضرة التدشينية لجامعة كومبلوتنسي في مدريد، فإن هذه المرأة، التي سيبلغ عمرها مئة عام في نيسان، أدلت بتصريحات قليلة (من العار أننا لم نتمكن من الحصول على نسخة مكتوبة كاملة من خطابها المرتجل) تركتني موزعاً بين الذهول والامتنان بالتناوب، مهما يكن من القسوة أن أتخيل هذين الشعورين المتطرفين معاً ومجتمعين. قالت: «لم أفكر في نفسي أبداً. فالحياة أو الموت هما سيان. لأنه من الناحية الطبيعية ليست الحياة في هذا الجسد الضئيل. ما يهم هو الطريقة التي نعيش بها والرسالة التي نتركها وراءنا. هذا هو ما يبقينا أحياء. ذاك هو الخلود». وقالت أيضاً: «إن الهوس بالشيخوخة مثير للسخرية. فدماغي الآن هو أفضل مما كان عندما كنت شابة. صحيح أنني لا أبصر جيداً وسمعي أسوأ حتى، لكن رأسي قد عمل جيداً على الدوام. الشيء الحاسم هو دائماً الحفاظ على الدماغ فاعلاً. محاولة مساعدة الآخرين والإبقاء على فضولك حول العالم». وهذه الكلمات التي جعلتني أشعر كما لو أنني قد وجدت روحاً شقيقة: «أنا ضد الإصلاح أو أي نوع آخر من الإعانة المالية الحكومية. لقد بقيت حية بدونها. في عام 2001 لم أكسب شيئاً وعانيت مصاعب مالية إلى أن سماني الرئيس تشيامبي سناتوراً مدى الحياة».

لا يتفق كل شخص مع هذه الراديكالية. لكنني كنت سأراهن على أن كثيراً مما تقرؤون هذا سوف تتمنون أن تكونوا مثل ريتا عندما تكبرون. ليكن كذلك. فإذا فعلتم ذلك يمكننا أن نكون واثقين من أن العالم سيتغير قريباً نحو الأفضل. أليس هذا ما كنا نقول أننا نريده؟ ريتا هي الطريق إلى فعل ذلك.

إن قصة إعداد رواية Ensaio sobre a Cegueira[2] للسينما قد امتلأت بالصعودات والنزولات منذ أن سأل فرناندو ميريلس، في عام 1997 أو حوله، لويز شفارتز Luiz Schwarcz، محرري البرازيلي، إن كنت مهتماً بالتخلي عن الحقوق في ذلك. فتلقى نفياً قاطعاً في رده على السؤال: «لا. مع ذلك، في مكاتب وكيلي الأدبي في باد هومبورغ، فرانكفورت، بدأ وابل شديد ودام لمدة عشر سنوات، من الرسائل والإيميلات والمكالمات الهاتفية ورسائل من كل أنواع المنتجين من بلدان أخرى، وبالأخص من الولايات المتحدة، فسأل السؤال نفسه. لا. هل كانت هذه غطرسة؟ لا، لم تكن مسألة غطرسة؛ كانت مجرد أنني لم أكن واثقاً، أو حتى متفائلاً، بأن الكتاب سيُعامل باحترام. وهكذا مضت السنون. ثم ذات يوم حضر كندييان في لانزاروتي، يرافقهما وكيلي، كانا قد جاءا مباشرة من تورنتو، وكانا يأملان في أن يصنعا الفيلم: نيف فيتشمان، المنتج، ودون ماك كيلار، كاتب السيناريو. كانا ينتميان إلى جيل جديد، ولم يذكرني أي منهما بسيسيل ب. دو ميل، وبعد محادثة صريحة، بدون أية تحفظات فكرية، أعطيتهما العمل. كنا لا نزال لا نعرف من سيكون المخرج. ستمضي سنوات أخرى قبل أن يأتي اليوم الذي سألاني فيه ما هو رأيي بفرناندو ميريلز. أما وقد نسيت كلياً ماذا حدث في ذاك العام البعيد، 1977، فقد أجبت بأن رأيي فيه جيد. فقد شاهدت وأحببت مدينة الله Cidade de Deus والبستاني الثابت، لكنني مع ذلك لم أربط اسم هذا المخرج بشخص حقيقي. والآن هاهي زبدة ذلك كله معنا أخيراً. إنها فيلم يحمل عنوان *العمى*، الذي

---

[2] نشر في المملكة المتحدة بترجمة مارغريت جول كوستا، بعنوان العمى Blindness.

يؤمل أنه سيجعل من الأسهل على الناس على الشبكة الدولية أن يربطوه بالكتاب. لم أر مبرراً للدفاع عن هذا القرار. لقد تم اليوم في لشبونة تقديم العمى بالصورة والصوت. كان الجمهور مؤلفاً من عدد لا بأس به من الصحافيين الذين آمل أنهم سيكونون قادرين على تقديم وصف جيد له. سيكون العرض الأولي غداً. عندما كنا نتحدث حول فصول التاريخ الحديث، طلعت بيلار ـ الأكثر عملية وموضوعية من بين كل الأفراد الذين أعرفهم ـ بفكرة: «كما أفهم الكتاب، فإنه قد تنبأ بنتائج الأزمة التي نعاني منها اليوم. فأولئك الناس الذين يجوبون وول ستريت يائسين، من مصرف إلى مصرف، قبل أن ينضب المال، لا يختلفون عن الذين يتنقلون عمياناً، بدون اتجاه، من خلال الرواية والآن من خلال الفيلم. الفرق هو أنهم لا يملكون زوجة طبيبة ترشدهم وتحميهم». تعالوا نفكر بذلك، فهذه المرأة الأندلسية قد تكون على حق.

29 تشرين الأول : رأسمالية جديدة

منذ بضعة أيام، وقع عدد منا من بلدان مختلفة ومواقف سياسية مختلفة النص الذي أعيد نشره أدناه. إنه دعوة إلى اليقظة، احتجاج، تعبير عن الذعر الذي نشعر أننا نواجهه مع الأزمة والحلول المكنة المقدمة. إذ لا يمكننا أن نكون مشاركين في الجريمة.

رأسمالية جديدة

لقد حان الوقت لأجل التغيير على الصعيد الجماعي والفردي. حان الوقت لأجل العدالة.

الأزمة المالية تدمر اقتصاداتنا مرة أخرى، تضرب حيواتنا بقسوة.

خلال هذا العقد المنصرم تكررت تمزقاته بشكل زائد ودراماتيكي. فشرق آسية والأرجنتين وتركيا والبرازيل وروسيا ومجزرة الاقتصاد الجديد، تثبت أن هذه ليست مجرد حوادث عشوائية تحدث على سطح الحياة الاقتصادية، بل هي منقوشة في صميم النظام بالذات.

هذه التمزقات التي انتهت بإحداث انكماش كارثي للحياة الاقتصادية المعاصرة، وتستعمل لتبرير البطالة وانتشار اللامساواة، وتشكل علامة على تبعثر الرأسمالية المالية والتصلب المفصلي النهائي للنظام الاقتصادي العالمي الذي نعيش فيه. لذلك من الضروري أن نغيره جذريا.

في مناقشته مع الرئيس بوش صرح دوراو باروزو، رئيس الاتحاد الأوروبي، أن الأزمة الراهنة ينبغي أن تؤدي إلى «نظام اقتصادي عالمي جديد»، وهو حل مقبول طالما أن هذا النظام الجديد يهتدي بالمبادئ الديموقراطية - التي ينبغي عدم التخلي عنها أبداً - مبادئ العدل والحرية والمساواة والتضامن.

لقد أدت قوانين السوق إلى حالة من الفوضى تسببت في إنقاذ آلاف ملايين الدولارات - للمجرمين وليس للضحايا. بعبارة أخرى، كان «الإنقاذ» يعني «خصخصة الأرباح وتأميم الخسائر». هذه فرصة فريدة لإعادة تعريف المنظومة الاقتصادية العالمية لصالح العدالة الاجتماعية. لم يكن يوجد مال لتحويل الكفاح ضد الايدز، ولا دعم لإطعام العالم. وأخيراً، في الزوبعة المالية العالمية، يتبين أنه كان ثمة أموال كافية لتنقذ من الخراب نفس أولئك الناس الذين دمروا الصرح الاقتصادي العالمي «للعولمة»، بالمحاباة الزائدة لعصابات اللصوص doctom وفقاعات الملكية.

هذا هو السبب في أنه من الخطأ تماماً أن يتكلم الرئيس ساركوزي عن تحقيق المساعي الكثيرة للغاية تحت رعاية الأطراف ذات المصلحة

التي تهدف إلى «رأسمالية جديدة»! ومن الخطأ أن يكون الرئيس بوش، كما يتوقع المرء، قد وافق على أن «حرية السوق» تنبغي حمايتها (بدون التخلص من الإعانات المالية الحكومية للمزارعين).

لا: الآن نحن المواطنون، الذين ينبغي إنقاذنا، وينبغي علينا بسرعة وبشجاعة أن نشجع الانتقال من اقتصاد الحرب إلى اقتصاد التنمية العالمية، يتم فيه التغلب على التوفير الجماعي لثلاثة آلاف مليون دولار باليوم التي تستثمر في الأسلحة في حين أن أكثر من ستين ألف شخص يموتون من الجوع. إن اقتصاد التنمية الذي من شأنه أن يزيل الاستغلال المؤذي للموارد الطبيعية الذي يحصل حالياً (النفط، الغاز، الفلزات، الفحم) ويطبق المعايير تحت إشراف أمم متحدة أعيد تكوينها ـ بما في ذلك صندوق النقد الدولي والبنك الدولي «لإعادة البناء والتنمية»، التي ينبغي ألا تكون نادياً خاصاً للدول بل مؤسسة من مؤسسات منظمة الأمم المتحدة ـ باستخدام أية وسائل شخصية أو بشرية وتقنية ضرورية لممارسة سلطتها القضائية والأخلاقية بفعالية.

إن الاستثمار في الطاقة المتجددة وإنتاج الأغذية (الزراعة والزراعة المائية)، استخراج وتوزيع الماء، وفي الصحة والتعليم والإسكان... لكي يكون «النظام الاقتصادي الجديد» في النهاية ديموقراطياً ونافعاً للأفراد. إن أخطاء العولمة وأخطاء اقتصاد السوق يجب أن تتوقف! فالمجتمع المدني لن يبقى متفرجاً مستسلماً، وإذا دعت الضرورة فسوف يستخدم كل سلطة المواطنة بكل وسيلة اتصال حديثة يمتلكها الآن بين يديه.

رأسمالية جديدة؟ لا!

لقد حان وقت التغيير على الصعيد الجماعي والفردي. لقد حان وقت العدالة.

فيديريكو مايور زاراغوزا

فرانسيسكو ألتمير

خوسيه ساراماغو

روبرتو سافيو

ماريو سواريس

خوسيه فيدال نييتو

30 تشرين الأول : السؤال

"وكنت سأسأل علماء الاقتصاد السياسي، علماء الأخلاق، إن كانوا قد حسبوا عدد الأفراد الذين يجب الحكم عليهم بالبؤس، بالأشغال الشاقة، بالإفساد الأخلاقي، بالطفالة، بالجهل الخسيس، بسوء الطالع الذي لا يُذلل، بالفقر المدقع المطلق، لكي ينتجوا شخصا غنياً واحداً؟"
ألميد

تشرين الثاني / نوفمبر 2008

3 تشرين الثاني : الزيف، الحقيقة

في عشية الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، ليست هذه الملاحظة الصغيرة، كما أظن، خارج المكان. منذ بعض الوقت كان سياسي برتغالي، كان في الحكومة آنذاك، يقول لكل من هو مستعد ليسمع إن السياسة هي بالدرجة الأولى فن عدم قول الحقيقة. كان أسوأ شيء هو أنه بعد أن قال ذلك لم يوجد، على حد علمي، سياسي واحد، من اليسار أو اليمين، يصحح له، بأن يقول: لا، مطلقاً، فالحقيقة ينبغي أن تكون الهدف الأول والأخير للسياسة. لسبب بسيط هو أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها إنقاذ الاثنين ـ الحقيقة تنقذها السياسة والسياسة تنقذها الحقيقة.

4 تشرين الثاني : الحرب لم تقع

وماذا عن ذلك؟ في آذار 1975 ، وعلى نحو زائد في الشهر التالي، وصلتنا الشائعات في البرتغال عن انزعاج الحكومة الاسبانية ـ في الوقت الذي كانت فيه برئاسة كارلوس أرياس نافارو ـ من المسار، الخطير برأي نافارو، الذي كانت تأخذه الثورة البرتغالية. فهزيمة انقلاب 11

آذار العسكري اليميني، الذي كان ملهمه وقائده الجنرال سبينولا، كان من نتائجه المباشرة انتعاش القوى السياسية لليسار، بما فيها النقابات. يبدو أن أرياس نافارو أصيب بالهلع، إلى درجة أنه في اجتماع مع نائب وزير الخارجية الأميركية الشمالية، روبرت اينغرسول، طرح فكرة أن البرتغال هي تهديد خطير لإسبانيا، ليس فقط بسبب الطريقة التي كان يتطور بها الوضع، بل أيضاً بسبب الدعم الخارجي الذي سيكون البلد قادراً على الحصول عليه من الأوساط المعادية لإسبانيا. فالتطور التالي، وفقاً لأرياس نافارو ـ قد يكون الحرب. في تقريره إلى وزير الخارجية هنري كيسنجر، المقدم بعد الاجتماع مباشرة، قال انغرسول: «إن إسبانيا ستكون مستعدة لزج نفسها في القتال ضد الشيوعية بمفردها إذا دعت الحاجة. فهي بلد قوي ومزدهر. إن أرياس نافارو لا يريد طلب المساعدة. لكنه يثق بأنهم سيحظون بتعاون أصدقائهم وتفهمهم، ليس فقط لمصلحة إسبانيا بل لمصلحة أولئك الذين يفكرون بالطريقة نفسها». في محادثة أخرى، في 9 نيسان، مع ولز ستابلر، سفير الولايات المتحدة إلى إسبانيا، قال أرياس نافارو: «إن الجيش الإسباني مدرك لمخاطر الشيوعية من خلال تجربته في الحرب الأهلية، وهو موحد بشكل مطلق».

وماذا عن هذا؟ ها نحن هنا، مهتمون بإقامة مستقبل أكثر لياقة بالبرتغال ضد الرياح والمدود الداخلية الألف، والقوى الأخرى المجهزة ضدنا من الخارج، وجيراننا، وأشقائنا، كانت تخطط مع الولايات المتحدة لشن حرب ربما ستدمرنا ومما لا شك فيه أنها ستترك إسبانيا نفسها متضررة بشكل سيء أيضاً. منذ المحادثات التي أجراها فرانكو مع هتلر بهدف تقاسم المستعمرات البرتغالية ـ واحدة لي، واحدة لك ـ كان التهديد الصريح بالغزو يحوم فوق رؤوسنا. غزو كان من المكن ألا يحتاج

إلى أكثر من نعم من الولايات المتحدة. هل علي أن أخبركم أن هذا لم يكن هو السبب في أنني كتبت كتاب حجر *الرمث* A Jangada de Pedra.

5 تشرين الثاني : غوانتانامو

لا يزال أمام اللجنة الانتخابية ساعات قليلة من العمل. لن يبدأ قبل الساعات الأولى من الصباح ظهور النتائج الأولى لمن سيكون الرئيس التالي للولايات المتحدة. في خضم الحدث المقلق بشكل عميق وهو أن السيناتور ماكين هو من سيفوز، فإن ما أكتبه سيبدو مثل عمل شخص تعاني أفكاره حول العالم الذي يعيش فيه من انعدام كامل للواقعية، جهل تام بالخيوط التي تحاك بها الحقائق السياسية والجهل بالأهداف الإستراتيجية المختلفة للكوكب. إن السيناتور ماكين، وخصوصاً لأنه بطل حرب (كما لا تمل الدعاية الإعلامية من قوله، ولن يجرؤ مدني بائس مثلي على تفنيده)، من متطوعي حرب فييتنام، لن يهدم معسكر الاعتقال والتعذيب المقام في قاعدة غوانتانامو العسكرية ويفكك القاعدة نفسها، نزولاً إلى آخر برغي، معيداً المكان الذي احتلته إلى مالكيه الشرعيين، الشعب الكوبي. لأنه، سواء أحببتم ذلك أم لا، رغم أن الرداء الكهنوتي لايصنع قسا بالتأكيد فإن اللباس العسكري لا يصنع الجنرال دوما. يهدم؟ يفكك؟ أي نوع من الشخص السانج الذي كان يحمل تلك الفكرة؟

حتى الآن هذه هي القضية بالضبط. فمنذ دقائق قليلة أرادت محطة إذاعة برتغالية أن تعرف ماهو أول مرسوم للحكومة سأقترحه على باراك أوباما في حال صار - كما كان يحلم الكثيرون منا لمدة عام ونصف - الرئيس الجديد للولايات المتحدة. كان بمقدوري أن أجيب بسرعة:

تفكيك القاعدة العسكرية في غوانتانامو، إعادة جنود المارينز، محو العار الذي يمثله معسكر الاعتقال (ومعسكر التعذيب، دعونا ألا ننسى)، قلب الصفحة وطلب غفران كوبا. وريثما يتم ذلك، لينهي الحصار، الإعدام خنقاً الذي حاولت به الولايات المتحدة ـ بلا جدوى ـ أن تخنق إرادة الشعب الكوبي. قد يحدث ـ وهنا يوجد أمل بأن يحدث ذلك ـ أن النتائج النهائية لهذا الانتخاب سوف تمنح السكان الأميركيين الشماليين بكرامة جديدة واحترام جديد، لكنني أود أن أذكر الذين يتظاهرون بأنهم لا يبالون بالدروس المبجلة بشكل حقيقي، التي يمكن أن تكون واشنطن قد تعلمت منها، التي يقدمها شعب كوبا يومياً أثناء حوالي خمسين سنة من المقاومة الوطنية.

لكن بالتأكيد من غير الممكن فعل كل شيء كهذا، في جلسة واحدة؟ صحيح، ربما ليس ممكناً، لكن أرجوك، السيد الرئيس، على الأقل أن تفعل شيئاً ما. على العكس مما قد تكون أخبرت به في ردهات مجلس الشيوخ ـ أن الجزيرة هي أكثر من مجرد نقطة على الخارطة. آمل، يا سيدي الرئيس، أنك ذات يوم ستطلب زيارة كوبا للقاء الذين يعيشون هناك. أخيراً، أؤكد لك أن لا أحد هناك سيؤذيك.

6 تشرين الثاني : 106 أعوام

المرأة ذات الـ 106 أعوام، آن نيكسون كوبر، التي أشار إليها أوباما عندما كان يلقي خطابه الأول كرئيس منتخب للولايات المتحدة، قد تشغل مكاناً في صالة الشخصيات المحبوبة من قبل القراء الأميركيين الشماليين، إلى جانب المرأة التي رفضت الوقوف لتخلي مقعدها في الباص لرجل أبيض. لم يكتب الكثير حول بطولة النساء. إن ما أخبرنا

به أوباما حول أن نيكسون كوبر لم يتضمن أية مآثر من البطولة العامة، سوى مآثر يومية، لكن دروس السكوت يمكن أن تكون في كل جزء منها بنفس قوة دروس الكلمات. تمر مئة وستة أعوام من مراقبة العالم، مراقبة اضطراباته العنيفة، نجاحاته وإخفاقاته، انعدام التقوى لديه، فرحه بكونه حياً برغم كل شيء. في آخر ليلة شاهدت فيها هذه المرأة صورة واحد من عرقها على ألف ملصق وفهمت ـ لم يكن من الممكن ألا تكون قد فهمت ـ أن شيئاً جديداً كان يحدث. أو أنها ببساطة احتفظت بالصورة المكررة في قلبها، أملاً في أن فرحتها ستكون مبررة ومؤكدة. العجائز هم مثل ذلك أحياناً: فجأة يتخلون عن المألوفات ويسيرون عكس التيار، يطرحون أسئلة خارجة عن الموضوع ويحتفظون بسكتات عنيدة تفسد الحفلة. لقد عانت آن نيكسون كوبر من عبودية من مختلف الأنواع ـ كونها سوداء، كونها امرأة، كونها فقيرة. عاشت حياة خضوع؛ ربما تغيرت القوانين في العالم الخارجي لكنها لم تغير الأشياء التي كانت تخاف منها، عندما تطلعت حولها ورأت النساء يعاملن بسوء، ويتم استخدامهن وإذلالهن وقتلهن، دائماً من قبل الرجال. رأت أن النساء يدفع لهن أجر أقل من أجر الرجال مقابل العمل نفسه؛ وأن عليهن أن يتحملن مسؤوليات منزلية تبقيهن غير مرئيات، مع أن هذه الواجبات ضرورية؛ رأت كيف تعاق خطواتهن المقررة، وكيف أنهن لا زلن مستمرات في السير إلى الأمام، أو يرفضن الوقوف في الحافلة ـ ينبغي أن نذكر مرة أخرى، تلك المرأة السوداء الأخرى، روز بانكس، التي صنعت التاريخ أيضاً.

تمضي مائة وستة أعوام من مراقبة العالم. ربما تراه جميلا، كما رأته جدتي، قبل وفاتها بزمن ليس طويلا، عجوزا وجميلة وفقيرة. ربما شعرت المرأة التي حكى لنا أوباما عنها البارحة بسكينة الفرح

الخالص، بحلاوة ربما سنعرفها، نحن أيضاً، ذات يوم. مع ذلك، إننا نهنئ الرئيس المنتخب على كونه قد قدم لها ثناء ربما لم تكن في حاجة إليه، لكننا نحتاج إليه. عندما كان أوباما يتحدث حول آن نيكسون كوبر، فهمنا أنه مع كل كلمة كان مثالها يجعلنا أفضل، أكثر إنسانية، أقرب إلى حافة الأخوة المطلقة. يعود الأمر لنا إن كنا نعرف كيف نجعل هذا الشعور يدوم.

7 تشرين الثاني : كلمـــات

لحسن الحظ أنه توجد كلمات لكل شيء. لحسن الحظ أنه توجد كلمات ستقول دائماً إن من يعطي يجب عليه أن يعطي بكلتي يديه بحيث لا يحتفظ بشيء يخص شخصاً آخر شرعاً. مثلما أن اللطف يجب ألا يخجل من كونه لطفاً، كذلك فإن العدل ينبغي ألا ينسى أنه قبل كل شيء إعادة ملك إلى مالكه، إعادة الحق إلى صاحبه. كلها، تبدأ بالحق الأساسي في العيش بكرامة. لو طلب مني أن أضع الإحسان واللطف والعدل وفق ترتيب الأسبقية، لأعطيت المكان الأول للطف والثاني للعدل والثالث للإحسان. لأن اللطف يوزع العدل والإحسان من تلقاء ذاته، ولأن منظومة العدل المنصفة تحتوي بداخلها ما يكفي من الإحسان. فالإحسان هو ما يتبقى عندما لا يوجد اللطف ولا العدل.

9 تشرين الثاني : روزا باركس

روزا باركس وليس روز بانكس. انقطاع مؤسف في الذاكرة، لم يكن الأول ولن يكون الأخير، جعلني أرتكب إحدى أسوأ زلات اللسان التي

من الممكن اقترافها في منظومة العلاقات المعقدة دوماً بين الأشخاص: أن تسمي شخصية ما باسم ليس اسمها. بعيداً عن القارئ الصبور لهذه السطور المتواضعة، لا يوجد من أساله الغفران، لكنني عوقبت بما فيه الكفاية لأجل الأخطاء بالإحساس بالارتباك الشديد الذي استولى علي عندما تحققت فوراً من فداحة غلطتي. حتى أنني فكرت في جعلها تمر، لكنني قاومت الإغراء وهاهنا أعترف بالغلط وأعد من الآن فصاعدا بأن أكون حذراً في التدقيق في كل شيء، حتى الأشياء التي أظن نفسي متأكدا منها.

يمكن أن تتأتي الأشياء الجيدة من الأشياء السيئة [رب ضارة نافعة]، وفقا للحكمة الشعبية، وربما يكون ذلك صحيحاً. لذلك أنتهز الفرصة لأعود إلى روزا باركس، تلك الخياطة ذات الاثنين وأربعين عاماً، التي كانت مسافرة على متن حافلة في مونتغمري، في ولاية ألاباما، في الأول من كانون الأول عام 1955، رفضت أن تخلي مقعدها لشخص أبيض عندما أمرها السائق أن تفعل ذلك. هذه الجريمة أدخلتها السجن بتهمة الإخلال بالنظام العام. ينبغي إيضاح أن روزا باركس كانت جالسة في الجزء المحجوز لأجل السود في الحافلة، لكن قسم البيض كان مشغولاً بالكامل، فأراد الشخص الأبيض مقعدها.

رداً على سجن روزا بانكس، قاد قس معمداني غير معروف، هو مارتن لوثر كينغ الأصغر، الاحتجاجات ضد شركة حافلات مونتغمري، وهو ما أجبر سلطة النقل العمومي على إنهاء ممارسة الفصل العنصري في تلك الحافلات. كانت الإشارة التي فجرت احتجاجات أخرى ضد الفصل. في عام 1956 وصلت قضية باركس أخيراً إلى المحكمة العليا الأميركية، التي قضت بأن الفصل على الحافلات غير دستوري. إن روزا باركس، التي كانت عضواً في الرابطة القومية لتقدم الملونين منذ

عام، وجدت نفسها وقد تحولت إلى أيقونة لحركة الحقوق المدنية، التي استمرت تعمل لصالحها طوال حياتها. توفيت في عـام 2005. لولاهـا، لما كان باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة.

10 تشرين الثاني : وصفة لأجل قتل إنسان

تذكرنيالإشارة إلى مارتن لوثر كينغ في المدونة السابقة بعمـود نشـر في عام 1968 أو 1969 تحت عنوان «*وصفة لأجل قتل رجـل*»، أضـمنها هنا مرة أخرى إجلالاً لثوري حقيقي فـتح الطريـق إلى الإنهـاء الوشـيك والحاسم للفصل العنصري في الولايات المتحدة.

وصفة لأجل قتل إنسان

خذ كيلوهات قليلة من اللحم البشري والعظام والدم، وفقاً للأشـكال ذات الصلة. رتبها بشكل متناسق محـولاً إياهـا رأس وجـذع وأطـراف، املأها بالأحشاء وشبكة من الأوردة والأعصـاب، مـع الحـرص علـى أن تتجنب عيوب الصانع التي يمكن أن ينتج عنها ظهور ظـواهر عجائـب المخلوقات. ليس للون البشرة أية أهمية.

امنح نتاج هذه العمل الفني البارع اسم إنسان. قدمه سـاخناً أو بارداً، تبعاً لخط العرض والفصل من السنة والسن والمزاج. عندما تقصد أن تطلق نماذجك الأصلية في السوق، اغرس فيها صفات قليلـة سـتجعلها تتميـز عن المخزون الشائع: الشـجاعة، الـذكاء، الحساسـية، الخُلُق، حـب العدالة، اللطف الفاعل، احترام المرء لجاره القريب ولأولئـك البعيـدين. منتجات الصنف الثاني سـوف تمتلك واحدة أو أخرى من هذه الخصـال الإيجابية، بدرجة أكبر أو أصغر، إلى جانب تلك الصفات المضادة التي

تنحو إلى الغلبة. يتطلب التواضع ألا نعتبر المنتجات الإيجابية بشكل كامل أو السلبية بشكل كامل هي قابلة للحياة. بأي حال، احذر في هذه المسائل على أن يكون لون البشرة عديم الأهمية.

لكن الإنسان يُصنف بعلامة شخصية، لكي تميزه عن أقرانه الذين خرجوا من خط الإنتاج مثله تماماً، وحُدد له أن يعيش في بناء يدعى المجتمع. سيشغل واحداً أو آخر من طوابق هذا البناء، لكنه لن يُسمح له بصعود السلم إلا نادراً. النزول مسموح، وفي بعض الأحيان يكون ميسراً حتى. تضم طوابق البناء بيوتاً عديدة، تحددها المكانة الاجتماعية، وفي أحيان أخرى تحددها المهنة. تتم الحركة عبر قنوات تدعى العادات والأعراف والأحكام المسبقة. إن السباحة ضد هذا التيار خطيرة، مع أن بعض الناس يفعلون ذلك طوال حياتهم. هؤلاء الناس، الذين تُحمل كتلتهم اللحمية الصفات التي تكاد تلامس الكمال، أو الذين اختاروا صفاتهم بشكل متعمد، لا يمكن تمييزهم بلون بشرتهم. فالبعض منهم يكونون بيضاً والبعض الآخر يكونون سوداً؛ البعض يكونون صفراً والبعض الآخر يكونون سمراً. يوجد البعض الأقل من هم ذوي بشرة نحاسية اللون، وهؤلاء نوع على وشك الانقراض.

مصير الإنسان النهائي هو الموت، كما عرفنا منذ بداية العالم. فالموت، في لحظته الدقيقة، هو نفسه بالنسبة لكل إنسان. أما ما يسبقه مباشرة فهو ليس كذلك. إذ يمكن أن يموت المرء ببساطة مثل شخص يغط في النوم؛ يمكن أن يموت المرء في قبضتي أحد تلك الأمراض التي يقال بتعبير ملطف إنها لا تغفر. يمكن أن يموت المرء تحت التعذيب، في معسكر اعتقال؛ يمكن أن يموت المرء وقد تحول إلى بخار داخل شمس ذرية؛ يمكن أن يموت عند عجلة سيارة جاغوار أو مدهوساً من قبل سيارة؛ يمكن أن يموت من الجوع أو من عسر الهضم؛ يمكن أن

يموت أيضاً من طلقة بندقية، في وقت متأخر من العصر عندما يكون ضوء النهار لازال ساطعاً ولا تعتقد أن الموت قريب. لكن لون بشرة الإنسان لا أهمية له.

كان مارتن لوثر كينغ إنساناً مثل أي واحد منا. كان يمتلك الفضائل التي نعرفها عنه، وكان بلا شك يمتلك بعض النقائص التي لا تقلل بأي شكل من الأشكال من فضائله. كان لديه عمل يقوم به ـ وكان يقوم به. كان يكافح ضد تيارات العادة والعرف والحكم المسبق، التي كان غائصاً فيها إلى عنقه. إلى أن جاءت طلقة البندقية لتذكرنا، نحن الناس الساهين، بأن لون بشرة الإنسان هو هام جداً بالفعل.

11 تشرين الثاني : الشيوخ والشباب

يقول البعض إن الكلبية مرض يصيب الكهول، اعتلال اليوم الأخير للمرء، تصلب الإرادة. ما كنت لأتجرأ على القول إن هذا التشخيص مغلوط تماماً، بل كنت سأقول إنه من السهولة بمكان أن نبعد مشاكلنا بهذه الطريقة، كما لو كانت الحالة الراهنة للعالم هي مجرد تبعة لحقيقة أن الشيوخ هم عجائز... إلى هذا اليوم لم تنجح تفاؤلية الشباب في جعل العالم مكانا أفضل، وفظاظة الشيوخ الدائمة الازدياد لم تكن سيئة للغاية إلى درجة أنها جعلته أسوأ. بالطبع إن العالم ـ هذا الشيء القديم البائس ـ ليس مسؤولاً عن الأمراض التي يعاني منها. فما ندعوها حالة العالم هي حالتنا نحن، البشرية التعيسة، المكونة حتماً من مسنين لم يعودوا شباباً، وشباب سيكونون شيوخاً، وأولئك الذين لم يعودوا شبابا لكنهم لم يصبحوا مسنين بعد. واللوم؟ لقد سمعت يقال إن اللوم يقع علينا جميعاً، وأنه لا يوجد واحد يمكنه أن يتبجح بكونه بريئاً،

لكن يبدو لي أن هذه البيانات التي تظهر لتوزع العدل بالتساوي، تفيد فقط في تخفيف المسؤليات وحجبها بجرم جماعي تخيلي عن أولئك الذين يقع عليهم اللوم فعلاً. ليس من أجل حالة العالم بل من أجل حالة الحياة.

إنني أكتب هذا في يوم وصل فيه مئات الرجال والنساء والأطفال إلى إسبانيا وإيطاليا على متن مراكب هشة يستخدمونها عادة لبلوغ الفراديس المفترضة لأوروبة الثرية. أحد هذه القوارب بلغ جزيرة هييرو، في الكناري، يحمل طفلاً ميتاً، وبعض الأشخاص الناجين من غرق سفينة قالوا إنه في أثناء الرحلة مات عشرون شهيداً آخر من زملائهم وتم رميهم في البحر.... أرجوكم لا تحدثوني بعد عن الكلبية....

12 تشرين الثاني : العقائد [الدوغما]

العقائد الأكثر ضرراً ليست في الواقع تلك العقائد التي أُعلن صراحة أنها كذلك، كما هي الحال مع العقائد الدينية، لأنها تدعو إلى الإيمان، والإيمان لا يعرف ولا يمكن أن يناقش نفسه. ما هو سيء هو التحول إلى عقيدة منظومة علمانية أو نظرية لم تطمح إلى أن تكون عقيدة على الإطلاق. فماركس، على سبيل المثال، لم يكن عقائدياً [دوغمائياً]، لكن بعده لم ينعدم وجود الماركسيين الزائفين الذين حولوا كتاب رأس المال إلى كتاب مقدس جديد، مستبدلين الفكر الفاعل بالتعليقات العقيمة أو التفسير المنحرف. ورأيتم ماذا حدث. ذات يوم إذا كنا قادرين على التحرر من القوالب الحديدية القديمة، وخلع الجلد القديم الذي لا يسمح لنا بأن نكبر، فسوف نلتقي ماركس مرة أخرى؛ ربما كانت إعادة قراءة ماركسية للماركسية ستساعدنا على فتح مسارات أكثر رحابة إلى

فعل التفكير. عندئذ سيكون علينا أن نبدأ بالبحث عن جواب على السؤال الأساسي: «لماذا أفكر بالطريقة التي أفكر بها؟» بعبارة أخرى، «ما هي الأيديولوجيا؟» هذه الأسئلة قد تبدو ذات أهمية ضئيلة، لكنني لا أعتقد أن ثمة أسئلة أهم منها......

13 تشرين الثاني : ر. ك. ب

ترمز هذه الأحرف الأولى إلى راديو كلوبي بورتوغويز ـ راديو كلوب البرتغالي ـ ولا أظن أن ثمة شخصاً برتغالياً واحداً لا يعرفه. اليوم، الثالث عشر من تشرين الثاني، اليوم الذي أكتب فيه هذه السطور الموجزة، قرر ر. ك. ب. أن يكرس جزءاً من بثه للعرض الأول لفيلم *العمى*، الذي أخرجه المخرج السينمائي البرازيلي فرناندو ميريلليس F. Meirelles والمأخوذ عن روايتي **مقالة في العمى** *Ensaio sobre a Cegueira* [نشرت بالإنغليزية تحت عنوان *Blindness*]. إن بيلار، التي لا تملك سوى الأفكار الجيدة، قد فكرت في أننا ينبغي أن نقوم بزيارة مجاملة إلى القناة وإلى مقدمي برنامج Janela Aberta [*النافذة المفتوحة*]، وهو اسم البرنامج موضوع البحث. ذهبنا إلى هناك في منتهى السرية، واثقين من أننا سنقدم لهم مفاجأة سارة. ما لم نتوقعه هو كم كانت المفاجأة التي أعدوها لنا أحسن من مفاجأتنا. فقد كان مقدما البرنامج أعميين ـ كانت عيناهما معصوبتين بقماشة سوداء.... ثمة لحظات تنجح في أن تكون مؤثرة وسارة، وتلك كانت واحدة منها. أود أن أسجل امتناني واعترافي العميق ببرهان الصداقة الذي قدموه لنا.

16 تشرين الثاني : ست وثمانون عاماً

يقال لي إن المقابلات تستحق الإجراء. أنا، كالعادة، أميل إلى الشك في ذلك، ربما لأنني مللت من الاستماع إلى نفسي. فما قد يبدو جديداً للآخرين قد تحول مع مرور الزمن إلى حساء أعيد تسخينه. أو الأسوأ من ذلك، أحس بمرارة متبقية مردها إلى اليقين بأن حفنة الأشياء ذات المعنى التي قلتها في حياتي قد تبين بعد كل شيء أنها عديمة الجدوى بشكل مطلق. ولماذا ينبغي أن تكون ذات جدوى؟ فما أهمية طنين النحل داخل الخلية؟ هل يستعمله لأجل التواصل فيما بين أفراده؟ أم هو ظاهرة بسيطة من ظواهر الطبيعة، مجرد نتيجة مترتبة على كون [النحل] حياً، مع عدم وجود وعي مسبق أو قصد لذلك، مثل شجرة تفاح تحمل تفاحات بدون أي اهتمام بمن سيأتي لأكلها دون غيره؟ وماذا عنا نحن؟ هل نتحدث لنفس السبب الذي نتعرق لأجله؟ لمجرد أن نفعل ذلك؟ العرق يتبخر، يزول، يختفي، يصعد عاجلاً أم آجلاً إلى الغيوم. والكلمات، إلى أين تذهب؟ كم يتبقى منها؟ وكم تدوم؟ ومن أجل ماذا، بعد كل ذلك؟ أعرف، هذه كلمات تافهة، لا تليق بشخص في السادسة والثمانين. أو ربما لا تكون بهذه التفاهة عندما أفكر في جدي جيرونيمو، الذي ذهب في ساعاته الأخيرة لوداع الأشجار التي غرسها، وكان يعانقها وهو يبكي لأنه عرف أنه لن يراها مرة أخرى. إنه درس يستحق التعلم. لذلك أعانق الكلمات التي كتبتها، أتمنى لها عمراً طويلاً، وأستأنف كتابتي من حيث توقفت. لا يمكن أن يوجد رد آخر.

18 تشرين الثاني : حي، حي كثيراً جداً

أجرب أن أكون نوعاً عملياً من الرواقي، بطريقتي الخاصة، لكن اللامبالاة كشرط للسعادة لم تكن أبداً جزءاً من حياتي، وإذا كان صحيحاً أنني أسعى بشكل عنيد إلى السلام الروحي، فالصحيح أيضاً أنني لم أتحرر ـ ولا أقصد أن أتحرر ـ من العواطف. إنني أجرب أن تعويد نفسي على فكرة (بدون الكثير من الدراما) أن ليس الجسد لابد أن يفنى ذات يوم فحسب بل إنه من ناحية معينة، وفي كل لحظة، آخذ في الفناء. على كل، ما أهمية ذلك إذا كانت كل إيماءة، كل كلمة، كل عاطفة قادرة على إنكار هذه الفنائية، في كل لحظة أيضاً؟ الحقيقة هي أنني أشعر أنني حي، حي كثيراً جداً، كلما كان عليَّ لسبب أو لآخر أن أتحدث عن الموت...

19 تشرين الثاني : إغـــراق

لقد عدت للتو من الكازا دو ألنتيخو حيث شاركت في فعل تضامني مع الشعب الفلسطيني من أجل سيادته الكاملة وتحرره من الأفعال الحمقاء والجرائم التي تقترفها إسرائيل. قدمت اقتراحاً هناك ـ أنه منذ 20 كانون الثاني / يناير، موعد تسلم باراك أوباما للسلطة، يجب إغراق البيت الأبيض برسائل الدعم للشعب الفلسطيني التي تطالب بحل سريع للنزاع. إذا أراد باراك أوباما أن يخلص بلده من عار العنصرية فيجب عليه أن يفعل الشيء نفسه في إسرائيل. فعلى مدى ستين عاماً تُرك الشعب الفلسطيني يعاني بدم بارد بالتواطؤ الصامت أو الفاعل للمجتمع الدولي. لقد حان الوقت لإيقاف ذلك.

20 تشرين الثاني : كل الأسـماء

كنت أوقع نسخاً من كتابي *رحلة الفيل*[1] في دار النشر علـى مـدى جـزء كـبير مـن الصـباح. معظـم النسـخ سـيبقى في البرتغـال، كهـدايا للأصدقاء والزملاء، أما البقية فسوف ترحل إلى بلدان بعيـدة كالبرازيـل وفرنسـا وإيطاليـا وإسـبانيا وهنغاريـا ورومانيـا والسـويد ـ حيـث كـان المستلمون هم أماديو باتل، ابن بلدنا وأستاذ الأدب البرتغالي في جامعـة سـتوكهولم، والشـاعر والروائـي كييـل إسـبمارك، عضـو الأكاديميـة السويدية. فيما كنت أكتب إهداء الكتاب إلى إسبمارك تذكرت ما حكاه لي ولبيلار حول ما جـرى خلـف الكـواليس بخصـوص الجـائزة الـتي منحت لي. كانت رواية *العمى* قد ترجمت إلى السويدية وتركت انطباعاً حسناً لدى أعضاء الأكاديمية، وكان انطباعاً حسناً في الحقيقة إلى درجة أنهم قرروا تقريباً فيما بينهم أن تكون جائزة نوبل لذاك العام، 1998، من نصيبي. على كل، هكـذا حـدث أنـني في العـام السـابق كنـت قـد نشرت كتاباً آخر بعنوان *كل الأسماء*، وهو مـن المفـترض، بـالطبع، ألا يشكل من حيث المبدأ أي عائق أمام القـرار المتخـذ، بعيـداً عـن سـؤال أثارته ترددات القضاة [أعضاء لجنة التحكيم]: «وماذا لو كـان الكتـاب الجديد رديئاً؟» لقد تحـدوا كييـل إسـبمارك أن يجـد جوابـاً علـى هـذا السـؤال، مسـندين إليـه مسـؤولية قـراءة الكتـاب بلغتـه الأصـلية. إن إسبمارك، الذي يمتلك إلماماً أكيـداً باللغـة البرتغاليـة، قـد نفـذ المهمـة بانضباط كبير. بالاستعانة بقـاموس، في ذروة شـهر آب، عنـدما يكـون

---

[1] روايـة سـاراماغو الجديـدة، الطبعـة البرتغاليـة نُشـرت في عـام 2008 مـن قبـل دار كامينهو. أما الطبعة الإنكليزية فسوف تنشرها دار هيوتن ميفلين هـاركورت (الولايـات المتحدة) ودار هارفيل سيكر (المملكة المتحدة).

أكثر إغراء أن تبحر بين الجزر التي تتعنقد حول الساحل السويدي، قرأ كلمة كلمة قصة الكاهن خوسيه والمرأة التي أحبها دون أن يكون قد رآها أبداً. لقد اجتزت امتحاني: الكتاب الصغير لم يكن أقل جودة من *العمى* بعد كل شيء.

22 تشرين الثاني : في البرازيل

إننا مسافران إلى البرازيل[2]، حيث ينتظرنا برنامج مثقل بالحمولة مثل سماء تهدد بالمطر. على كل، أنا أثق بأن فرصة ما يمكن ترتيبها بحيث لا يتطلب هذا الحوار تعليقه لمدة أسبوع، وهي المدة التي سوف يستغرقها غيابي. لكوننا في البرازيل، فنحن نعرف أنه لن يكون هناك نقص في المادة [الصحفية]، لذلك فإذا كانت هناك مشكلة فستكون قصر الوقت المتاح. سنرى. تمنوا لنا رحلة سعيدة، ومن الآن فصاعداً نرجو أن تتكرموا برعاية الفيل لأجلنا فيما نحن مسافران.

23 تشرين الثاني : الماشية

لم يكن من السهل الوصول إلى البرازيل. لم يكن حتى من السهل مغادرة المطار. إذ تعج بورتيلا بالناس من الجنسين الذين ينظرون إلينا بارتياب، كما لو كنا نمتلك تاريخاً من الإرهاب الفعلي أو الافتراضي مكتوباً على وجهينا، يشجبنا. هؤلاء الناس يسمون الأمن، وهو شيء مثير للسخرية تماماً، نظراً إلى أنه، بالحكم انطلاقاً من خبرتي الخاصة وخبرة أولئك الذين أراهم حولي، لا يوجد مسافرون يشعرون حتى بأي

---

[2] في جولة كتب من أجل A Viagem du Elefante.

شيء من الأمن بوجودهم. لقد واجهنا مشكلتنا الأولى عندما جرى تفتيش حقائبنا اليدوية. لما كنت لا أزال في حالة نقاهة من مرض عانيت منه وأتعافى منه لحسن الحظ، كان علي أن أتناول دواء بشكل منتظم ـ كل أسبوعين ـ يجب أن يرافقه تقرير طبي عندما أمر عبر المطار. قدمنا هذا البيان، مختوماً وموقعاً كما تقتضي الأنظمة، ظناً منا أنه في خلال دقيقة سيسمح لنا بالمرور. لكن هذا لم يكن ما حدث. فالورقة قرأت بمشقة من قبل «الأمن» (وكان امرأة)، التي رأت أن من الأفضل أن تستدعي أحد رؤسائها، الذي قرأ البيان بجبين مقطب، ربما بانتظار وحي ما أن يظهر له بين السطور. ثم بدأت لعبة الدفع والحشر. كانت امرأة الأمن قد أطلقت الإعلان المقلق مرتين أو ثلاث «سيكون علينا أن نفتش»، وهو تصريح أيده رئيسها الذي كرره ليس مرتين أو ثلاث، بل خمس أو ست مرات. ما كان عليهم أن يفتشوه كان أمام أعينهم تماماً، الورقة والدواء؛ لم يكن ثمة شيء آخر ليروه. كانت مناقشة منشطة، لم توقف إلا عندما قلت ـ فاقد الصبر وغاضباً ـ : «حسنا، إذا صار عليكم أن تفتشوا فلتفتشوا إذن، وننتهي من ذلك». هز الرئيس رأسه ورد قائلاً: «لقد فتشت للتو، لكن هذه الزجاجة يجب أن تبقى». صودرت الزجاجة ـ إذا كان بإمكاننا أن نطلق هذا الاسم على قطرميز [حنجور] لبن بلاستيكي صغير ـ لتنضم إلى متفجرات خطيرة أخرى كانت قد قبض عليها سابقاً. بينما كنا ننصرف لم أستطع إمساك نفسي عن الظن في أن المسؤولية عن أمن المطار، عند هذا المستوى، سينتهي بها الأمر إلى أن تسلم إلى شركة وورشيبفل التابعة لأصحاب النوادي الليلية.....

الأسوأ، مع ذلك، لم يأت بعد. فلأكثر من نصف ساعة لا أعرف كم من المسافرين جُمعنا معاً، محشورين مثل السردين في الحافلة التي كانت مخصصة لنقلنا إلى المطار. لأكثر من نصف ساعة، كنا متلاصقين

إلى درجة لا يمكن معها الحركة، والأبواب مفتوحة بحيث يمكن لهواء الصباح البارد أن يهب كما يشاء. لا تفسير. لا كلمة اعتذار. عوملنا كالماشية. لو تحطمت الطائرة لكان من الممكن للمرء أن يقول إن ركوب الحافلة ذاك إنما كان رحلتنا إلى المسلخ.

24 تشرين الثاني : خبـران

في البرازيل، بين مقابلة والمقابلة التي تليها، علمت بخبرين: الأول كان الخبر السيئ الرهيب وهو أن العاصفة التي تهب في أحيان قليلة فوق ساو باولو وبعد دقائق عنيفة قليلة تخلف سماء صافية والشعور بأن لا شيء قد حدث، قد تسببت بوفاة تسع وخمسين شخصاً على الأقل في الجنوب، وتركت آلاف الأشخاص بلا مأوى، بلا سقف فوق رؤوسهم ليباتوا ليلتهم، وبدون مكان ليسكنوا فيه. لا يمكننا أن نكون غير مبالين تجاه قصص كهذه، مهما كان عدد المرات التي نقرأها. على النقيض تماماً ـ في كل مرة نسمع فيها عن كارثة طبيعية جديدة يزداد ألمنا ونفاد صبرنا. ونسأل السؤال الذي لا يمكن لأحد أن يجيب عليه، حتى رغم أننا نعرف جواباً موجوداً: إلى متى سنعيش، أو إلى متى سيعيش أفقر الناس، تحت رحمة الأمطار والرياح والجفاف، عندما نعرف أن حلاً لكل هذه الظواهر يمكن إيجاده في الطريقة التي تُرتب بها حيواتنا؟ إلى متى سنغض أنظارنا، كما لو أن الكائنات البشرية لا أهمية لها؟ فالأشخاص التسع والخمسون الذين ماتوا في سانتا كاتارينا، البرازيل، البلد الذي أتواجد فيه الآن، لا داعي لأن يكونوا قد ماتوا هذه الميتة. هذا شيء نعرفه جميعاً.

الخبر الآخر هو أن الجائزة الوطنية الإسبانية للآداب قد مُنحت

لخوان غويتيسولو، الذي أستذكره اليوم منذ الوقت الذي كان فيه في لانزاروتي، مع مونيك، مع غوميز أغويليرا يتحدثون معاً حول كتبهم ومهنة الكتابة. مونيك لم تعد معنا؛ لا يمكنها أن ترى هذه الجائزة التي مُنحت أخيراً لغويتيسولو، وذلك بعد وقت طويل من قراءتنا لكتابه الأول، الذي كان آنئذ قد نشر للتو. خوان أرسل إليك قبلة وتهانيَّ لك.

25 تشرين الثاني : الصفحة اللامحدودة للانترنت

لقد خرجنا للتو من مؤتمر صحافي في ساو باولو ـ مقابلة جماعية كما يسمونها هنا.

فوجئت بأن بضعة صحافيين أرادوا أن يسألوني عن دوري كمدون، عندما كنا نضع وراءنا ملصقاً [بوستر] من أجل معرض فخم، تنظمه مؤسسة سيزار مانريكي في معهد تومي اوهتاكي، مع أهم الوفود والرعاة المولين، ومع تقديم الكتاب الجديد عند العرض. لكن صحافيين كثيرين كانوا مهتمين بقراري الكتابة على «الصفحة اللامحدودة للإنترنت». بشكل أوضح، هل من الممكن هنا أن نكون جميعاً متشابهين بشكل شبه تام؟ هل هذا هو أقرب شيء لدينا إلى سلطة المواطن؟ هل نحن أكثر إنساً عندما نكتب على الإنترنت؟ ليست لدي أجوبة؛ أنا أذكر الأسئلة فحسب. واستمتع بالكتابة هنا الآن. لا أعرف ما إذا كانت أكثر ديموقراطية. أعرف فقط أنني أشعر تماماً بنفس شعور الشاب ذي الشعر الطويل والنظارات المذهبة الحواف، في أوائل العشرينيات من عمره، الذي كان يسألني الأسئلة. من أجل مدونة، بلا شك.

27 تشرين الثاني : يـوم معاش جيداً

لازلنا في البرازيل، بيلار وأنا، وتهزنا مأساة سانتا كاتارينا، التي بقي عدد الموتى والمفقودين فيها يرتفع، كما يزداد عدد قصص المصالح البشرية، وقصص عزلة ويأس الناجين، الذين يأتون إلينا من هناك. اجتزنا الطرق مع الرئيس لولا، في طريقه إلى زيارة المنطقة التي أصابتها المأساة. كان عليه أن يجلب الكثير من العزاء لكي يقنع الناس بأن الدولة مفيدة. العزاء بالكلمات وبالأفعال. فنحن الكائنات البشرية نحتاج هذين العزاءين. يحكون لنا أن الناس الذين يعملون في الشركات ينظمون بشكل عفوي مجموعات لمساعدة الضحايا. بالنسبة لأولئك الناس، مثلنا، الذين لم يختبروا المأساة بشكل مباشر، فإن إيماءات كهذه تعزينا أيضاً؛ إنها تجعلنا نصدق أن المرأة الشابة من دار النشر مهتمة بمصير أناس لم نلتق بهم أبداً. هذه صورة لعالم ممكن.

في عصر هذا اليوم قدمت كتابي *رحلة الفيل* في أكاديمية الآداب البرازيلية. قال ألبرتو دا كوستا إي سيلفا في خطابه إننا جميعاً مكتبات، لأننا نحفظ ما نقرأ بداخلنا مثل أفضل أجزاء ذواتنا. ألبرتو وأنا صديقان قديمان، وهذا هو السبب في أن هذا الرئيس السابق للأكاديمية والسفير السابق أراد أن أقدم كتابي بوصفه شيئاً له صلة به. عقدنا مقدما لقاء مع أعضاء الأكاديمية، حضره أصدقاء كرام مثل كليونيتشي بيراردينيلي وتيريزا كريستينا سرديرا دا سيلفا، اللذان ليسا عضوين، مع أنهما جزء من الأرستوقراطية الروحية، وهو شيء ضروري حقاً لأجل التطور الاجتماعي. قبل ذلك كنا مع تشيكو بواركي، الذي على وشك أن ينهي كتاباً جديداً. إذا كان يشبه كتابه *بودابست*، فسوف نحصل على عمل فني. إن شيكو، المغني، الموسيقي، الكاتب

هو أحد أولئك الرجال المتعددي البراعات الذين يجمعون إنجاز العمل ذي الجودة مع كونهم أشخاصاً طيبين. اليوم كان يوماً جديراً بالاهتمام. لاشك في ذلك.

28 تشرين الثاني : التربية الجنسية

«الاستغلال الجنسي هو موضوع من الأهمية بمكان للإنسانية بحيث لا يمكن أن يكون هناك أي نفاق في ذلك. يجب علينا أن نقنع الآباء في العالم بأن التربية الجنسية في المنزل هي بنفس أهمية الطعام على المائدة. فإذا لم تُدَرس التربية الجنسية في المدارس، فإن مراهقينا سيتعلمون مثل الحيوانات في الشارع. يجب أن نتخلص من النفاق الديني، وهذا يسري على كافة الأديان».

الكلمات التي أستشهد بها أعلاه هي كلمات لولا دا سيلفا، رئيس البرازيل. وقد كان يتكلم في مؤتمر عالمي، هو الثالث من نوعه الذي يدعى إليه لمواجهة مشكلة الاستغلال الجنسي الذي يتعرض له الأطفال والمراهقون في كل أنحاء العالم. ورفعت ملكة السويد أيضاً نداء لأجل عمل من شأنه أن يضع حداً للسلوك الجانح ضد الصغار الذي اجتاح الإنترنت. لقد تكلما كلاهما عن هذه المشاكل الخطيرة التي تؤثر على قسم مكشوف للاعتداء من المجتمع، التي تؤذي بشكل غالب جماعات السكان الأطفال والمراهقين في أفقر مناطق العالم، حيث تنعدم المدارس، ولا يوجد مفهوم الأسرة ببساطة، والناس محكومون بتلفزيون يبث العنف والجنس على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم. فمن سيسمع الكلمات الحكيمة التي قيلت في المؤتمر ضد الاستغلال الجنسي؟

على كل حال، أردت أن أتحدث عن تقديم كتاب رحلة الفيل في

ساو باولو، لكن هذا الموضوع وقع في طريقي وهو يأخذ الأولوية. سنترك الكتاب للغد.

30 تشرين الثاني : مكتبة كولتــورا

الصورة الأخيرة التي سنأخذها معنا من البرازيـل هـي صـورة متجـر كتب مبهج، كاتدرائية للكتب ـ حديثـة، كافيـة، جميلـة. إنـه مكتبـة كولتورا Livraria Cultura في الكونخونتو ناسيونال. إنها مكتبة لشراء الكتب، بالطبع، لكنها أيضاً لتقييم المنظر المؤثر للعناوين الكـثيرة جـداً المرتبة بطريقة جذابة، كما لو أنها لم تكن مخزناً، كما لو أن ما نتعامل به كان عملاً فنياً. إن مكتبة كولتورا هي عمل فني.

إن محرر أعمالي، لويس شفارتش، من كومبانيا داس لتراس، عرف أنني سأتأثر بهذه التحفة، وهو السبب في أنـه أخـذني إلى هنـاك. لقـد تأثرت تماماً أيضـاً بمكتبـة كومبانيـا، وأنـا أرى تلـك الرفـوف المتألقـة بالنصوص الأساسية، مع الأعمـال الكلاسـيكية الخالـدة المعروضـة كمـا تُعرض الكتب الجديدة في أمكنة أخرى. وكلها تقدم للقارئ، الذي يقع في المأزق الصعب لكن الممتع، مأزق عدم معرفة ماذا يختار.

إرسالية جيدة من ساوباولو. في الليلة الماضية، قبل تناول العشـاء في بيت تـومي اومتـاكي، ذهبنـا لمشـاهدة معـرض «اتسـاق الأحـلام». كنـا الأخيرين من 700 شخص مروا خلال اليوم لمشاهدة المعرض الذي نظمته مؤسسة سيزار مانريك، في ظل فرناندو غـوميز أغـويليرا، حـول مؤلـف كتاب *رحلة الفيل*، الذي شوهد أيضاً في لانزاروتي ولشبونة. وسوف يُسر أغويليرا: فعمله مألوف تماماً على قارته، وهـو مـثير للاهتمـام، ودقيـق كالساعة، وجميل كمكتبة كولتورا. لقد وضعنا ثقتنا فيهم.

كانون الأول / ديسمبر 2008

1 كانون الأول : اختلافات

لقد تكلمت للتو هنا عن رحلتي إلى البرازيل، التي تحمل شهادة على الساعات السعيدة التي مررنا بها، على الكلمات التي سمعناها ونطقناها، على الصداقات القديمة والجديدة، على الأصداء المؤلمة لمأساة سانتا كاتارينا، تلك الأمطار الغزيرة، تلك التلال التي تحولت إلى طين دفن أكثر من مائة شخص لا حول لهم ولا قوة، كما هو المبدأ مع الكوارث الطبيعية، التي يبدو أنها تفضل أفقر الفقراء كضحايا لها. والآن ها قد عدنا إلى لشبونة، ويبدو أن هذه ستكون اللحظة المناسبة لأجل تخزين عام، تلخيص للأحداث، باستثناء أن وصف مشاعري - التي أعتقد أنني قد كشفتها بشكل مسهب في حياتي - لا يتطلب، هذه المرة، سوى استعمال صيغة شاملة ومقتضبة: «لقد مر كل شيء بخير». لو كان لدي مزيد من الكتب بداخلي، لما كان بإمكاني أن أتمنى استقبالا لها أفضل من الاستقبال الذي لقيه كتاب *رحلة الفيل* الذي أخذنا إلى البرازيل.

البارحة أرسلت عبارات إعجاب قليلة هنا حول المشروع الرائع لمكتبة كولتورا في ساوباولو. كنت أود العودة إلى الموضوع، أولاً لأكرر، كما يستحق الأمر ذلك بقوة، الانطباع المبهر الذي تركه فينا، بيلار

وأنا، لكن أيضاً لبعض الاعتبارات الأقل إيجابية، النتيجة لمقارنة حتمية بين نشاط لم يكن تجارياً محضاً، لأنه استتبع الدعابة الجيدة التي يقدمها المشترون الكثر، والكآبة غير القابلة للعلاج التي تجعل مكتباتنا رمادية، تفسدها المعايير المتدنية والتدريب المهني غير الكافي لمعظم الذين يعملون هناك. إن صناعة بيع الكتب لبلادنا الشقيقة هي شيء خطير وذات بنية جيدة، ليس بفضل ميزاتها فقط - التي هي كثيرة - بل أيضاً بفضل مستوى من الدعم من الدولة غير مفهوم بالنسبة لنا. الحكومة البرازيلية هي شار كبير للكتب، هي صنف من راع عمومي جاهز دائماً لحل كيس نقوده عندما يصل الأمر إلى مخزون المكتبات، محاكياً نشاط النشر، وتنظيم حملات للتشجيع على القراءة، تتميز كما انتهزت الفرصة لأثبت لنفسي، بفعالية استراتيجيتها التحفيزية. كل ذلك في مقابل ما يحدث هنا في البرتغال، التي تبقى في جوانب عديدة غير مستغلَة بعد، بانتظار إشارة ما، خطة عمل، وكذلك بانتظار شيك، إذا وجدت العذر لنفسي من أجل النزعة التجارية. فالمال، كما تقضي الحكمة الشعبية، هو ما تحتاجه إذا أردت أن تشتري البطيخ. وكذلك الكتب، والسلع الروحية الأخرى، السيد رئيس الوزراء، وأنت كنت غافلاً إلى حد ما عن هذه القضايا الثقافية. ثمة الكثير مما هو أسوأ لأجلنا.

3 كانون الأول: سولومون يعود إلى بليم

عصر هذا اليوم سيعود الفيل سولومون إلى بيليم. هذا معناه أن الشخصية الأدبية (لأن تلك هي الطريقة التي يرتب بها القدر مثل هذه القضايا) سوف يتم تقديمها في المكان الذي انطلق منه الفيل الحقيقي في

القرن السادس عشر. سولومون الحقيقي ارتحل من هناك إلى فيينا، متوقفاً في كاستيلو رودريغو وفالادوليد وروساس وجنوة وبادوا وأمكنة أخرى قبل اجتياز جبال الألب ومنهياً أيامه في بلاط ماكسيميليان.

الكاتب أنطونيو ميغا فيريرا والمعلم والكاتب مانويل ماريا كاريلهو سيكونان مسؤولين عن إدارة الحوار، الذي قد يكون موضوعه الرئيسي هو كتاب، لكنني لن أتفاجأ إطلاقاً لو أن بعض الموضوعات الأخرى المطروحة تهمنا نحن الثلاثة لأنها، كما يقول بعض الصحافيين، على أجندة الشؤون الراهنة. نعم، ما كنت لأمانع البتة لو كان تقديم هذا الفيل يمكن أن يفيد كفرصة لأجل الحديث عن العالم، هذا العالم الذي ينفتق في درزات كثيرة للغاية، لأنه منذ زمن الفيل سولومون وحتى الآن، لم تكن حتى أفضل الدرزات لتعيد اللحمة. لكي نتجنب دنو الليل.

4 كانون الأول : إلى من يهمه الأمر

قدمت كتاب *رحلة الفيل* وانتهزت الفرصة لأقول إن ذهني مشغول بكتاب جديد. هللوا!

4 كانون الأول : سافيانو

منذ سنوات عديدة خلت، كنت في نابولي أتجول في أحد تلك الشوارع التي يمكن أن يحدث فيها أي شيء، فأيقظ فضولي مقهى يبحث عن كل العالم كما لو أنه قد فتح أبوابه قبل أيام قليلة فقط. كان الأثاث الخشبي فاتح اللون، وطلاء الكروم يلمع، والأرض نظيفة ـ باختصار، كان بهجة ليس للعينين فقط بل للأنف والحنك، كما

برهنت القهوة الرائعة التي قدموها لي. سألني المستخدَم من أين أنحدر، فأجبت من البرتغال. فقال بكل عفوية شخص يقدم معلومة مفيدة: «هذا المكان هو كامورا. فوجئت، فكان كل ما أطلقته من فمي هو كلمة «أوه؟» التي لم تورطني على الإطلاق لكنها أفادت في أن أخفي القلق الذي كان يقعقع فجأة في تجويف معدتي. إن الشخص الذي كان أمامي من الممكن أن يكون مستخدَماً بسيطاً ليست له أية مسؤوليات عن النشاطات الإجرامية «لأرباب عمله»، لكن الفطرة السليمة تقتضي أن أنظر إليه بحذر وأن أكون متشككاً بأي تودد في غير مكانه، بالنظر إلى أنني لا أستطيع الآن أن انصرف كزبون عرضي. كنت عاجزاً عن فهم كيف يمكن تقديم إفشاء تجريمي ظاهرياً مع أكثر الابتسامات تودداً. دفعت وانصرفت وخرجت إلى الشارع؛ أسرعت الخطى كما لو أن عصابة من القتلة المأجورين المدججين بالسلاح قد أُرسلت لمطاردتي. بعد انعطاف ثلاث أو أربع زوايا، بدأت أهدأ. قد يكون مستخدَم المقهى مجرماً، لكن ليس لديه أي مبرر ليتمنى الأذى لي. فقد اكتفى بشكل واضح بإخباري شيئاً كنت ملزماً، بوصفي أحد سكان هذا الكوكب، بوجوب معرفته: أن نابولي، كلها، هي بأيدي الكامورا، وأن جمال الطفل هو قناع خادع ورقصة التارانتللا هي مسيرة جنائزية.

مرت السنون، لكن الواقعة بقيت في ذاكرتي. وتعود إلي الآن، كما لو أنني قد خبرتها البارحة: ذاك الأثاث الخشبي الفاتح اللون، تألق الطلاء الكرومي، الابتسامة المتواطئة للمستخدَم، الذي لم يكن مستخدَماً بل المدير، رجلاً تثق به الكامورا، كان كامورياً بحد ذاته. يخطر ببالي روبرتو سافيانو، وهو يتلقى تهديداً بالموت لكونه قد كتب كتاباً يشجب منظمة إجرامية قادرة على خطف مدينة بأكملها ومن يسكنون فيها. يخطر ببالي روبرتو سافيانو، الذي وضعوا رأسه على طبق، وأتساءل إن

كنا ذات يوم سنصحو من الكابوس الذي هو الحياة بالنسبة للكثيرين، الذين يُضطهدون بسبب قول الحقيقة، الحقيقة الكاملة، ولاشيء سوى الحقيقة. أشعر بالتواضع، بشبه التفاهة، أمام وقار وشجاعة الكاتب والصحافي روبرتو سافيانو، الرجل الذي أتقن فن العيش.

9 كانون الأول : شارع سانتا في

الشارع لا يوجد في سانتياغو دي تشيلي. فهناك حاصر عملاء بينوشيه بيتاً من طابق واحد كان بيت (أو بالأحرى ملجأ) كارمن كاستيللو ورفيق حياتها ونشاطها السياسي، ميغيل إنريكيز، القائد الرئيسي لحركة اليسار الثوري MIR، التي دعمت سلفادور أللندي وتعاونت معه. آنذاك كان الحزب هدفاً للاضطهاد من قبل السلطة العسكرية التي خانت الديموقراطية وكانت تعد نفسها لتأسيس أشرس الدكتاتوريات التي عرفتها أمريكا الجنوبية. قُتل ميغيل إنريكيز، وأصيبت كارمن كاستيللو، التي كانت حامل، بجروح بليغة. بعدئذ بسنوات عديدة ستدون كارمن تلك الأيام وتعيد تصويرها في فيلم وثائقي ذي صدقية وواقعية كان لنا امتياز مشاهدته هذه الليلة في سينما كينغ. إنه وثائقي ينجح أيضاً، بفضل حكمة مبدعته وحساسيتها، في أن يكون سينما من النوعية الأرقى. سنوافيكم بالمزيد لاحقاً.

10 كانون الأول : إجلال

تجميع اليوم هو في الكازا دو ألنتيخو، في الساعة السادسة مساءً. كما يوحي العنوان، فهذا التجمع هو إجلال. إجلال لمن؟ لا لأحد على وجه

الخصوص، لأنه سيعتبر الآداب البرتغالية في كليتها ـ من الألف إلى الياء إذا جاز القول ـ محتفلاً بذكراها في برنامج من الأغاني والقراءات التي يقدمها عشرون كاتباً وممثلاً وصحافياً، وضعوا وقتهم وموهبتهم بسخاء تحت تصرف فكرة ولدت في مؤسسة خوسيه ساراماغو. اليوم المختار ـ هذا اليوم، 10 كانون الأول 2008 ـ يستذكر منح جائزة نوبل لكاتب برتغالي عبر في خطاب قبوله للجائزة فهمه أن عليه أن يتقاسم هذا الوسام ليس فقط مع كل الكتاب الذين كانوا معاصريه، بلا استثناء، بل أيضاً كل الذين أتوا من قبلنا، أولئك الذين، كما قال كاموئيس، تحرروا من طغيان الموت. المؤلفون التالية أسماؤهم سيُقرأون أو يُنشدون: أنتيرو دي كوينتال، بادري أنطونيو فيئيرا، فيتورينو نيميسيو، خوسيه كاردوزو بيريز، روي بيلو، صوفيا دي مللو برينر، ميغيل تورغا، ايكا دي كويروز، ناتاليا كوريا، دافيد موراو ـ فيريرا، آري دوس سانتوس، كاميلو كاستيلو برانكو، تيكسيرا دي باسكواس، مانويل دا فونسيكا، ألمادو نيغريروس، خوسيه غوميز فيريرا، راؤل براندا‌و، فرناندو بسوا، خورخه دي سينا، أكويلينو ريبيرو، ألميدا غاريت، لويس دي كاموئيس، كارلوس دي اوليفيرا وفرناندو نامورا. موكب شرف حقيقي، يجب أن يكرمه كل شخص.

11 كانون الأول : بلتاسار غارزون (1)

برغم الطقس العاصف، والبرد ووابلات المطر المتقطعة، كانت السينما مليئة. كانت كارمن كاستيلو قد خشيت أن طول فيلمها، البالغ ساعتين ونصف، سوف يثبط جمهور المشاهدين، لكن الحال لم تكن كذلك. لم ينهض شخص واحد لكي يغادر [السينما]، وفي النهاية، مع استغراق

المشاهدين في قوة الصور والشهادات التي تقشعر لها الأبدان، التي أدلى بها أعضاء حركة اليسار الثوري الذين نجوا من الدكتاتورية التشيلية، لقيت كارمن الاحتفاء بها وقوفاً. لقد كنا نحن القادمون من مؤسسة ساراماغو فخورين بذاك الجمهور. لقد كنت واثقاً بهم، لكن الواقع تجاوز أكثر توقعاتي تفاؤلاً.

وفيما أنا اكتب، تتداول أكثر من مائتي ألف نسخة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في أيدي قراء صحيفتين هما: Diario de Noticias في لشبونة وJornal de Noticias في اوبورتو. اليوم، 11 كانون الأول، سيكون دور بلتاسار غارزون،الذي يأتي خصيصاً من مدريد ليتحدث حول حقوق الإنسان وحول تشيلي وغوانتانامو. ومثل تكريم الآداب البرتغالية الذي بشكل ناجح للغاية مساء البارحة، ستلقى محاضرة غارزون في الكاسا دو ألنتيخو، في الساعة السادسة مساء. إنها فرصة طيبة لنتعلم. نعم، لنتعلم.

12 كانون الأول : بلتاسار غارزون (2)

لقن القاضي بلتازار غارزون لشبونة درساً في القانون، أو بالأحرى فيما ينبغي أن يكون القانون. الحقيقة هي أنه بالمعنى الأضيق الذي تكلم حوله في الحدث الذي نظمته المؤسسة هو العدل. والفطرة السليمة: ثمة جرائم لا يمكن أن تمر بلا عقاب، ضحايا يجب أن ينالوا الرضا، ومحاكم يجب أن تسحب البساط لترى ماذا يوجد تحت الأشياء المرعبة. لأنه في غالب الأحيان، تحت الأشياء المرعبة، توجد مصالح اقتصادية، ومجرمون يمكن تحديد هوياتهم بشكل واضح، وأشخاص أو جماعات فعلية لا يمكن أن تتجاهلهم الدول التي تزعم أنها خاضعة

لحكم القانون. من يعرف ما إذا كان أولئك المسؤولون عن الجرائم ضد الإنسانية، التي هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني بها أن أصف الأزمة المالية والاقتصادية العالمية، لا يمكن أن يُحاكموا، مثل بينوشيه أو فيديلا أو دكتاتوريين رهيبين آخرين الذين ينشرون مثل هذا الألم. من يدري؟

جعلنا القاضي بلتاسار نفهم أهمية عدم الانزلاق إلى الحقارة حتى مرة واحدة كيلا نكون حقيرين إلى الأبد. فمن يدوس على حقوق الإنسان حتى مرة واحدة، في غوانتانامو على سبيل المثال، يرمي جانباً سنوات من القانون والقانونية. يجب ألا نكون متواطئين في الفوضى التي أبلت إدارة بوش بها نصف العالم. لا كحكومات ولا كمواطنين.

تابع جمهور كبير ويقظ آراء القاضي باحترام واهتمام. وصفق، مثل الناس الذين سمعوا حقائق غير مكشوفة بل صوتاً فاعلاً يحتاجه العالم إذا لم يرد أن يقع في سلوك المسامحة الوضيع.

المؤسسة راضية: لقد فعلنا ما بوسعنا لتذكير الناس بأن ثمة إعلان عالمي لحقوق الإنسان، لا يُحترم، وأن المواطنين يجب أن يطالبوا بألا يتحول إلى مجرد رسالة ميتة. لقد لعب بلتازار دوره وليس بوسعنا سوى أن نغتبط لكون هذا قد اتضح في لشبونة هذا المساء.

15 كانون الأول: بورخس

عادت ماريا كوداما إلى البرتغال، لتكون حاضرة في مناسبة تدشين نصب تذكاري لخورخي لويس بورخس. كان ثمة أناس كثيرون في حديقة أركو دو سيغو، حيث أقيم النصب التذكاري. عزفت فرقة اوركسترالية النشيد الوطني الأرجنتيني، ولم تعزف بعدئذ النشيد الوطني البرتغالي، بل نشيد ماريا دا فونتي، وهو تعبير موسيقي عن

الثورة التي سميت بهذا الاسم في حوالي 1846 ـ 1847 ويُعزف في المراسم المدنية والعسكرية إلى يومنا هذا.

النصب التذكاري نصب بسيط، كتلة شاقولية من الغرانيت من النوعية الممتازة، مع فضاء مفتوح يحتوي يداً ذهبية، وهو نموذج مأخوذ بشكل مباشر عن قالب ليد بورخس اليمنى، وهي تحمل قلماً. إنه بسيط، مثير للعواطف، وهو مفضل إلى حد بعيد على التمثال النصفي أو التمثال الكامل، الذي سنمل فيه سريعاً من البحث عن التشابهات. ارتجلت كلمات قليلة حول مؤلف كتاب *Ficciones*، الذي لازلت أعتبره مخترع الأدب الافتراضي، أدبه الذي يبدو أنه قد انفصل عن الواقع لكي يكشف بشكل أفضل ألغازه غير المنظورة. كان بداية جيدة لفترة بعد الظهر. وكانت ماريا كوداما سعيدة.

16 كانون الأول : الضربة القاضية

الضحك شيء عفوي. فرؤية رئيس الولايات المتحدة ينكمش خلف الميكروفون في حين يتطاير حذاء فوق رأسه في تمرين رائع لتلك العضلات الوجهية المسؤولة عن الضحك. هذا الرجل، المشهور بجهله السحيق وسخافاته اللغوية المتواصلة، قد أضحكنا مرات عديدة على مدى الأعوام الثمانية المنصرمة. هذا الرجل، المشهور أيضاً بصفات أخرى أقل جاذبية، كالبارانويا المرسخة فيه، قد قدم لنا ألف سبب لاحتقاره، هو و مساعديه، الشركاء في الزيف والخداع، الذين حولت عقولهم المنحرفة السياسة الدولية إلى مسخرة تراجيدية وجعلت الكرامة البسيطة هدفاً للسخرية الخالصة. إذا كان يجب قول الحقيقة، برغم المشهد المؤلم الذي يقدمه العالم يومياً، فإن هذا العالم لم يكن يستحق

بوش. لقد خبرناه، وعانينا من خلاله إلى درجة أن انتصار باراك أوباما قد اعتبره أناس كثيرون نوعاً من العدالة الإلهية. إنها متأخرة، كما تميل العدالة إلى أن تكون، لكنها نهائية. لكننا في النهاية لازلنا في حاجة إلى تلك الضربة القاضية، لازلنا في حاجة إلى حذاء قذفه صحافي من التلفزيون العراقي إلى السحنة الكذابة الوقحة التي رآها أمامه، ضربة كان من الممكن أن تؤخذ بطريقتين: إما أن يحتوي ذاك الحذاء قدما بداخله ويكون الهدف هو ذاك الجزء المدور من الجسم حيث يكتسي ظهر الرجل كونتوراً مختلفاً واسماً مختلفاً، أو أن معتصم الكايدي (ليحيا اسمه لأجيال القادمة) وجد طريقة أكثر كدماً وفعالية للتعبير عن احتقاره: من خلال السخرية. إن زوجاً من الرفسات ما كان يجب أن تخطئا الهدف، لكن السخرية تدوم إلى الأبد. إنني أصوت لصالح السخرية.

17 كانون الأول : كلمات

من غير الممكن إجراء مؤتمر صحافي بدون كلمات - في العادة باستخدام الكثير منها، وأحياناً أكثر مما ينبغي. تلح بيلار على الاقتراح القائل بأن أقدم إجابات مقتضبة، عبارات بليغة تلخص الخطابات الطويلة التي ستكون في غير مكانها هنا. إنها على حق، لكن ذلك ليس من طبيعتي. أعتقد أن كل كلمة تحتاج إلى كلمة واحدة أخرى على الأقل لتساعد في تفسيرها. وصلت الأمور إلى النقطة التي بدأت عندها أستبق الأسئلة التي سيتم طرحها، لأنني كنت أفعل ذلك لوهلة، وهو إجراء سهلته المعرفة المسبقة التي راكمتها حول أصناف المواضيع التي يميل الصحافيون إلى إيلاءها الاهتمام الأكبر. تبدأ التسلية مع الحرية

التي أمنحها لنفسي عندما أبدأ أحد هذه الخطابات. بدون أن يكون علي أن أقلق حول التأطير الموضوعاتي الدقيق الذي سينشئه كل سؤال بالضرورة، سواء كان يقصد ذلك أم لا، أطلق الكلمة الأولى، والثانية والثالثة، مثل الطيور التي فتح باب قفصها لتوه، دون أن أعرف حقاً، أو في الواقع غير عارف بالمرة، إلى أين ستأخذني. يصبح التكلم بهذه الطريقة مغامرة، إذ يتحول التواصل إلى البحث المنهجي عن مسار يؤدي إلى كل من يستمع، وأنا أدرك دائماً أن لا تواصل حاسم ولحظي، وأنه يكون من الضروري غالباً إعادة تتبع خطوات المرء لكي أوضح ما تم التعبير عنه بشكل مختصر فقط. لكن الجزء الأكثر إثارة للاهتمام من كل ذلك هو اكتشاف أن الكلام، بدلاً من أن يكون محصوراً بإضاءة وإظهار ما كنت أظن أنني أعرفه شخصياً حول عملي، ينتهي بشكل ثابت إلى أن يكشف ما كان مخفياً، ما كان محدوساً أو متنبأً به فقط، والذي يصبح فجأة دليلاً مباشراً أكون أول من يتفاجأ به، مثل شخص كان في الظلام وفتح عينيه للتو على ضوء مفاجئ. باختصار، أنا أتعلم طالما كنت أمضي قدماً، من خلال الكلمات التي أنطقها. هذه خاتمة جيدة، ربما أفضل خاتمة، لهذه المناقشة. وقد تبين أنها قصيرة رغم كل شيء.

18 كانون الأول : الناشرون

لم يكن لفولتير وكيل أدبي. لم يكن لديه وكيل، ولا كان لدى أي كاتب من عصره أو بعده بزمن طويل. فالوكيل الأدبي ببساطة لم يكن موجوداً. هذا الشغل ـ إذا أردنا أن نسميه كذلك ـ كان يقوم بوظيفته بطرفين متحاورين فقط، المؤلف والناشر. كان المؤلف يملك العمل، والناشر يملك الوسيلة لنشره، بدون وسيط بين الواحد والآخر. كان زمن

البراءة. لا أقصد بذلك أن الوكيل الأدبي كان، ولازال، الحية الغاوية المولودة لكي تفسد تناغمات جنة لم توجد في الواقع أبداً. سواء بشكل مباشر أم غير مباشر، كان الوكيل الأدبي هو البيضة التي وضعتها صناعة نشر كانت قد بدأت تهتم باكتشاف سلسلة من الكتب الأكثر مبيعاً (البست سلر) أكثر من اهتمامها بنشر الأعمال الجديرة وتوزيعها. إن الكتاب، وهم أناس ساذجون على العموم، يمكن استغباؤهم بسهولة من قبل وكيل أدبي من صنف ابن آوى أو القرش، يجرون وراء وعود بسلف نقدية ضخمة، أو بترقيات نجمية كما لو أن حياتهم تعتمد عليه. لكن الأمور ليست كذلك. فالسلفة هي ببساطة دفعة على الحساب، أما الترقيات، كما يجب أن نعرف جميعاً من الخبرة يكون الواقع فيها على الدوام تقريباً بعيداً عن التوقعات.

هذه الخواطر ليست أكثر من إضاءة متواضعة على المحاضرة الرائعة التي ألقاها باسيليو بلتازار في المكسيك في أواخر تشرين الثاني، تحت عنوان «موت الناشر المتوقع منذ زمن طويل»، بعد مقابلة أجرتها صحيفة إلبايس مع الوكيل الأدبي الشهير أندرو وايلي. أقول مشهور، وهو كذلك، وإن ليس دائماً لأسباب وجيهة. ما كنت لأتجرأ، ولا هو لائق هنا، على أن ألخص تحليلات باسيليو بلتازار اللاذعة، التي تتخذ منطلقاً لها من التصريح الغبي لوايلي المذكور أعلاه بأن «الناشر هو لاشيء، لاشيء»، وهو ما يذكرني بكلمات رولان بارت عندما أعلن موت المؤلف... حسناً، لم يمت المؤلف، رغم كل شيء، وانبعاث الناشر الذي يحب عمله هو بيدي الناشر نفسه، إذا كان يرغب أو ترغب في ذلك. وفي أيدي الكتاب، الذين أنصحهم بحماس بمحاضرة باسيليو بلتازار، التي ينبغي أن تُنشر، إلى جانب السجال الذي تلاه.

كما يعرف كل شخص، يرمز الحرفان UN إلى الأمم المتحدة، الـتي هـي، في الواقـع لا شـيء، أو شـيء قليـل جـداً. مـا الـذي يملكـه الفلسطينيون في غزة ليقولوه لها، هؤلاء الشعب الذي ينفد طعامه، أو قد نفد لتوه؟ لأن تلك هـي الطريقـة الـتي قـررت بهـا القـوات المحاصـرة الإسـرائيلية ما ينبغي أن تكونه الأشياء، منذ أن قررت ظاهرياً أن تحكم بالموت جوعـاً علـى 750000 شخصـاً المعـترف بهـم كلاجـئين هنـاك. فهؤلاء لم يعودوا يملكون حتى الخبز ـ فقد استُهلك الطحـين، والزيـت والعدس والسكر كلها على نفس الطريق. منـذ 9 كـانون الأول، لازالـت شاحنات الأمـم المتحـدة، المحملـة بالغـذاء، تنتظـر أن يسـمح الجـيش الإسـرائيلي لها بدخول قطاع غزة، وهو تفويض سيتم إنكاره مرة أخرى، أو يؤجل حتى الرمق الأخـير مـن الفلسـطينيين المحـبَطين والمجـوعين واليائسين. الأمـم المتحـدة؟ متحـدة؟ اعتمـاداً علـى التواطـؤ الأممـي، أو الجـبن الأممــي، تضــحك إســرائيل علــى التوصــيات والقــرارات والاحتجاجات، تفعل ما تختاره، عندما تختار، وكيف تختـار. يصـل ذلـك إلى حـد منـع دخـول الكتـب والآلات الموسـيقية، كمـا لـو كانـت منتجات ستضـع أمن إسـرائيل في خطـر. لـو كـان بمقـدور السـخرية أن تقتل، لمـا تُـرك جنـدي إسـرائيلي واحـد واقفـاً، ولا جنـدي إسـرائيلي واحد، أولئك المتخصصين في الوحشية، أولئـك الخـريجين في الكراهيـة الذين ينظرون إلى العالم في الأسفل من قمة الغطرسـة الـتي هـي في جـذر تربيتهم. إننا نفهم الإله التوراتي بشكل أفضل عنـدما نـرى أتباعـه. إن يهوه، أو أياً يكن اسمه، هو إلـه يتصـف بالضـراوة والقسـوة يـؤمن بـه الإسـرائيليون بوصفه وجوداً دائماً.

23 كانون الأول : بعد عـام

«توفيت» في ليلة 22 ديسمبر 2007، في الساعة الرابعة صباحاً، ولم تتم «إعادتي إلى الحياة» إلا بعد تسع ساعات. فشـل كامـل للأعضـاء، توقف الوظائف الجسدية، أوصلني إلى العتبة النهائيـة للحيـاة، حيـث بات الوقت متأخراً من أجل الوداعـات. لا أتـذكر شـيئا. كانـت بـيلار هناك، وشقيقة زوجتي ماريا كانت هناك، أيضا، كلتاهما كانتـا تقفـان أمام جسد هامد، كان مجرداً من أية قوة، ويبدو أن الروح غائبة عنـه، وهي التي كانت روحاً لجثة غير قابلـة للاسـترداد أكثـر ممـا هـي روح كـائن حـي. يحكـون لـي اليـوم كيـف كانـت تلـك السـاعات. وصـلت حفيدتي، آنا، عند العصر من اليوم نفسه، ووصلت فيولانتي عند عصـر اليوم التالي. كان أبوهما وجدهما لازالا، مثل اللـهب الشـاحب لشـمعة يهدد شهيقهما بإطفائها. علمـت لاحقـاً أن جثمـاني كـان سـيُعرض في المكتبة، محاطاً بالكتب - إذا أمكنني التعبير عـن ذلـك بهـذا الشـكل - وأزهار أخرى أيضاً. نجوت. عام من التعافي البطيء، البطيء على نحـو لا يصدق، كما أخبرني أطبائي أنه سيكون، رد إلي صـحتي، طـاقتي، قدرتي على التفكير. ذاك الدواء الشامل الذي يدعى العمل رُد إلي أيضاً. وأنا أنطلق نحو الحياة، وليس الموت، أنجزت كتابي *رحلة الفيل*، وها أنا هنا. في خدمتكم.

24 كانون الأول : عيد الميـلاد

عيد الميلاد. في الريف، ثلج.

في البيوت الدافئة مرة أخرى

شعور يحفظه اليوم

مشاعر مضت من قبل

قلب تحدى العالم،

وتلك الأسرة. يا لها من حقيقية

هكذا فكري ، عميق، يولد

هذا التوق الذي اشعره.

وكم هو حر وابيض

المشهد الغريب عني

منظورا إليه من خارج زجاج النافذة

نافذة البيت الذي لن اراه ابدا.

(فرناندو بسوا)

25 كانون الأول : العشـاء

بالعودة سنوات عديدة إلى الوراء، وتحديداً إلى عام 1993، كتبت كلمات قليلة في مفكرات لانزاروتي أبهجت بعض اللاهوتيين في هذا الجزء من أيبيريا، وبالأخص خوان خوسيه تاماي، الذي وهبني صداقته بسخاء منذ ذاك الوقت. وهذه هي الكلمات: «الله هو صمت الكون، والإنسان هو الصرخة التي تمنح المعنى لذاك الصمت». من الواضح أن هذه الفكرة ليست مصاغة بشكل رديء، بكميتها الكافية quantum satis من الشعر، ونيتها الاستفزازية بتفاهة، ومقتضاها أن الملحدين قادرون جيداً على استكشاف طرق اللاهوت المخادعة، حتى ولو بالطريقة الأكثر بدائية. في هذا اليوم عندما يُحتفل بعيد الميلاد، راودتني فكرة أخرى، ربما حتى أكثر استفزازية، ثورية بالفعل، يمكن

التعبير عنها بكلمات قليلة جداً. وهذه هي الكلمات. إذا كان صحيحاً أن يسوع قال في العشاء الأخير لتلامذته، مشيراً إلى الخبز والخمر على المائدة: «هذا جسدي، هذا دمي»، عندئذ سيكون من المشروع أن نستنتج أن العشاءات التي لا حصر لها، والأعياد البانتاغرولية وعربدات الولائم الهوميروسية التي يتعين أن تهضمها آلاف وملايين المعدات لكي تنجو من أخطار الانسداد المميت، لن تكون أكثر من النسخة المضاعفة ـ الفعلية والرمزية في آن معاً ـ للعشاء الأخير: مؤمنون يقتاتون على إلههم، يلتهمونه، يهضمونه، يتخلصون منه، حتى عيد الميلاد التالي، حتى عشاء عيد الميلاد التالي، متبعين طقساً من الجوع المادي والروحي الذي لا يُشبع دوماً. والآن دعونا نرى ما الذي يتعين على اللاهوتيين قوله.

29 ديسمبر: الأنسباء والنسيبات

إنهن مثاليات. حسناً، شبه مثاليات. إنهن يتحدثن بصوت عال ودون كلل، إنهن يعشقون النقاش لأجل النقاش، إنهم متعصبات غالباً، عنيفات الكلام، وإن كان ذلك في الأسلوب أكثر مما هو في الجوهر. إن النساء، اللواتي يوجد منهن خمس، يحدثن الكثير من الضوضاء، حتى بصوت أعلى من الرجال، الذين يوجد منهم عشرة. بالنسبة لهؤلاء الرجال، والنساء، لن يكون ثمة موضوع قد نوقش بشكل كاف. إنهم لا يخضعون أبداً. إن اللكنة الغرناطية تجعل ما يقولونه في كثير من الأحيان غير مفهوم. لا يهم. مهما كانت لدي شكوك، فإنهم يدعون أنهم قادرون على أن يفهموا أحدهم الآخر على نحو كامل. إنهم يمتلكون حساً متميزاً بالفكاهة غالبا ما يفوتني ولا يندر أن تجعلني أسأل نفسي ما هي النكتة. إن الخلان والخليلات، الأزواج والزوجات،

وهـي فئـة تشـملني، يراقبـون، مـذهولين، وبمـا أننـا لا نسـتطيع أن نحتملهم ، ينتهي بنـا الأمـر إلى الانضـمام إلى الفوضـى، إلا في الحالـة النادرة عندما أفضل الاحتفاظ بصمت كتوم. في خمس وعشرين عامـاً لم أر واحدة من هذه المجادلات يؤدي إلى إغضاب أحد، أو إلى أي شجار يتطلب استشارة العائلـة أو المصـالحة. مهمـا تكـن السماء قـد أمطـرت وأرعدت قبلئذ، فإنهـا تصـحو في النهايـة دومـاً. قـد لا يكونـون أناسـاً مثاليين، لكنهم، نعم، طيبون.

23 كانون الأول : كتـاب

أنا مشغول البـال بكتـاب جديـد. عنـدما أدع هـذا الخـبر ينزلـق في منتصف حوار، فإن السؤال الحتمي الذي يُطرح علـيَ (ابـن أخـي أولـو طرحه البارحة) هو: «ماذا سيكون عنوانه؟» كان الحـل الأكثـر إراحـة لي أن أجيب بأنني لا أملك عنواناً له بعـد، وعنـدما أصـل إلى النهايـة فقط سـأقرر بين البدائل الممكنة التي خطرت ببالي (بفرض أن البعض قد خطر ببالي فعلاً) في أثناء العمل. حل مـريح، بالتأكيـد، لكنـه زائـف. فالحقيقة هي أنه حتى قبل أن يُكتب السـطر الأول مـن الكتـاب كنـت أعرف؛ كنت قد عرفت لمدة ثلاث سنوات تقريباً، مذ راودتني الفكـرة، ماذا سيُدعى. لذا، سيسأل شخص ما: لماذا السرية؟ لأن كلمـة العنـوان (إنه مجرد كلمة واحدة) سوف تحكي القصة كاملـة. أنـا اعتـدت علـى القول إن أي شخص لا يملك الصبر على قراءة كتبي يمكنه علـى الأقـل أن يلقي نظرة على العبارات المقتبسة وسوف يعرف كل شيء هنـاك. لا أعرف ما إذا كان الكتاب الذي أشتغل عليه ستكون لـه عبـارة مقتبسـة [تتصدره]. ربما لا. فالعنوان سيكون كافياً.

ليس فألا جيداً أن يظل الـرئيس المستقبلي للولايـات المتحـدة يـردد المرة تلو المرة، بدون ارتعاشة في صوته، أنه سيصون «العلاقـة الخاصـة» مع إسرائيل التي توحد البلدين، وبالأخص الـدعم غـير المشـروط الـذي قدمه البيت الأبيض للسياسات القمعية (وقمعية هي تعبير ملطف) الذي لم تفعل به الحكومات الإسرائيلية (ولماذا ليس المحكومون أيضاً؟) شيئاً سوى قتل الشعب الفلسطيني بكل وسيلة ممكنـة. إذا لم يشـمئز بـاراك أوباما من فكرة تناول الشاي مع السفاحين ومجرمـي الحـرب، فشـهية طيبة bon appétit له، لكن عندئـذ لا يمكنـه التعويـل علـى استحسـان الناس الشرفاء. أما الآخرون من بين زملائه الرؤساء فقد فعلوا الشـيء نفسـه بدون الحاجة لتبرير أكثر من هذه «العلاقة الخاصة» الـتي غطـت الأعمـال المخزية الكثيرة للغاية التي دبرها البلدان ضد الحقوق القومية للفلسطينيين.

طوال الحملة الانتخابية لباراك أوبامـا، أعطـى الانطبـاع عـن نفسـه بوصفه أباً مجتهداً، سواء من خـلال تجربتـه الشخصـية أو مـن خـلال استراتيجيته السياسية. هذا يقودني إلى اقـتراح أن يحكـي الليلـة قصـة لابنته قبل أن يخلدا إلى النوم، قصة قارب كان ينقل أربعة أطنـان مـن الأدوية للتخفيف من الوضع الصحي المزري لشعب غزة، وكيف أن هذا القارب، الذي كان اسمه الكرامة، قد دُمـر في هجـوم مـن قبـل القـوات البحرية الإسـرائيلية بذريعـة أنـه لم يكـن يحمـل تفويضـاً بالرسـو علـى سـاحلها. (في غمـرة جهلـي، كنـت تحـت انطبـاع أن سـاحل غـزة فلسطيني) وينبغي ألا يُفاجأ إذا قالت له إحدى بنتيـه، أو الاثنتـان في انسجام): «لا تتابع يا بابا، فنحن نعرف قبلا ما هي العلاقة الخاصة: إنها تعني الشراكة في الجريمة».

كانون الثاني / يناير 2009

5 كانون الثاني : تصفية حساب

هل كان يستحق ذلك؟ هل كانت هذه التعليقات، هذه الآراء، هذه الانتقادات تستحق ذلك؟ هل العالم أفضل مما كان من قبل؟ وماذا عني، كيف أنا الآن؟ هل هذا ما توقعته؟ هل أنا راض عن عملي؟ إن الإجابة بنعم على جميع هذه الأسئلة، أو حتى على بعضها، تكشف بوضوح عمى عقلياً لا يُغتفر. والإجابة بـ «لا» بلا استثناءات، بماذا يوحي ذلك؟ إفراطاً في التواضع؟ في الاستسلام؟ أم مجرد إدراك أن أي إنجاز بشري ليس أكثر من الظل الباهت لما تم تخيله؟ يقولون إن ميكيل أنجلو، عندما أنهى [تمثال] موسى التي يمكن أن تراه في كنيسة سان بييترو في فينكولي بروما، ضرب ركبة التمثال بمطرقته وصاح: «تكلم!» لا حاجة للقول إن موسى لم يتكلم. فموسى لا يتكلم أبداً. بالشكل نفسه فإن ما كنت أكتبه هنا على مدى الأشهر المنصرمة لا يحتوي أي كلمات أكثر، ولا أية كلمات أكثر فصاحة، مما كان ممكناً كتابته ـ تحديداً الكلمات التي كان المؤلف يود أن يسألها، تمتمة، «تكلم، من فضلك، أخبرني من أنت، ماذا تمثل، إن كان ثمة شيء تمثله على الإطلاق». يبقون صامتين، لا يجيبون. إن مساءلة الكلمات هي مصير أيٍ شخص يكتب. مقالة؟ قصة؟ كتاب؟ حسنا ليكن ذلك؛ نحن نعرف قبلاً أن موسى لن يجيب.

6 كانون الثاني : ساركوزي اللامسؤول

لم أفكر كثيراً بهذا الجنتلمان، وأعتقد أنني منذ اليوم سأبدأ في التفكير به أقل، إن كان ذلك ممكنا. ولا ينبغي أن يكون كذلك، ليس إذا ـ كما أخبرتني الإنترنت للتو ـ كان المذكور أعلاه السيد ساركوزي في مهمة سلام إلى أراضي فلسطين المعذبة، وهو مسعى جدير بالثناء يستحق من النظرة الأولى الإطراء والتمنيات بالنجاح. كان سيحظى بكل هذه مني، لو لم يستعمل مرة أخرى الإستراتيجية القديمة للكيل بمكيالين والقياس بمقياسين. بحركة من النفاق السياسي الملحوظ، يتهم ساركوزي حماس بالتصرف على نحو غير مسؤول وبشكل لا يُغتفر بإطلاق الصواريخ إلى الأراضي الإسرائيلية. الآن، لست أنا من يغفر لحماس هذه الأعمال، ووفقاً لما قرأت فإنهم يعاقبون في كل خطوة عن طريق البطلان شبه الكامل لهذه المناورات الحربية، التي حققت أكثر قليلا من الإضرار بعدد قليل من البيوت وتهديم عدد قليل من الجدران. بما أن الكلمات السيئة لا يمكنها أن تؤذيه، فينبغي على السيد ساركوزي أن يشجب حماس. لكن على شرط واحد. أن تطبق نصائحه الأخلاقية على قدر المساواة على جرائم الحرب الرهيبة التي ارتكبت من قبل الجيش الإسرائيلي والقوات الجوية الإسرائيلية، على صعيد لا يمكن تصوره، ضد السكان المدنيين لقطاع غزة. من أجل هذا العار يبدو أن السيد ساركوزي لم يجد العبارات اللائقة في قاموس لاروس الخاص به. مسكينة فرنسا.

«لا تتخلوا عنا». لقد أعطيت العنوان بالإسبانية، لأن هذه هي الكيفية التي كتبت بها الكلمات. هذه القطعة يمكن أن تسمى «سكوتات ماركوس»، وهو عنوان يشرح كل شيء. يحيل نص اليوم إلى نائب القومندان الأسطوري - وإن يكن واقعياً بشكل كامل. ثمة أناس قلائل أعجبت بهم كثيراً في حياتي، وأناس قلائل جداً توقعت منهم الكثير للغاية. لم أخبره أبداً، للسبب البسيط وهو أن بعض المشاعر يفضل المرء ألا يذكرها أبداً: إنها أشياء يشعرها المرء وتبقى بتلك الطريقة. مسألة حياء، كما يبدو. عندما خرج الزاباتيون Zapatistas من أدغال لاكاندون، وقد عبروا نصف المكسيك للوصول إلى ساحة زوكالو، كنت هناك، من بين مليون شخص. شعرت بالقشعريرة، بنبض الأمل يسري في كل جسدي، بالرغبة في التغيير والرغبة في جعل نفسي شيئاً أفضل، أقل أنانية، أكثر قدرة على منح نفسي له. تكلم ماركوس، سمى كل واحدة من الجماعات الإثنية للشياباس، وعندما كان ينطق كل اسم كان كما لو أن رماد ملايين الهنود المحليين قد انفصل عن أضرحتهم وتقمص من جديد. أنا لا أكتب أدباً، الذي يأتي بسهولة، أنا أحاول - بشكل أخرق - أن أصوغ بكلمات شيئاً لا يمكن للكلمات أن تعبر عنه: اللحظة التي يتحول فيها الإنسان إلى إنسان خارق، ثم بخطوة واحدة يعود إلى أقصى إنسانيته.

في اليوم التالي، في حرم جامعة متواضعة، كان ثمة اجتماع حاشد ضم آلاف الأشخاص، وكان ثمة حديث عن حاضر ومستقبل شياباس، وعن الكفاح النموذجي للمجتمعات الهندية الذي حلمت بأنني سأراه ذات يوم يمتد عبر عموم أمريكا (أولئك الذين لديهم مزاج عصبي

يمكنهم أن يسترخوا، فذلك لم يحدث). على المنصة، كان، من بين آخرين، كارلوس مونسيفايس، إلينا بانياتوفسكا، مانويل فاسكيز مونتالبان وأنا. تكلمنا جميعاً، لكن بحدة، بشكل يكاد يكون غير محتمل، على حافة القدرة العاطفية لكل شخص. عندما انتهى كل شيء ذهبت لأعانق ماركوس وعندئذ قال في أذني، بهمسة خافتة، «لا تتخلوا عنا» No nos abandones فأجبت بالنغمة نفسها: «سيكون علي أن أتخلى عن نفسي بدلاً من أن يحدث ذلك». لم أره مرة أخرى، إلى هذا اليوم.

فكرت وقلت أيضاً إن ماركوس كان يتعين أن يتكلم في الكونغرس. فالمتكلم، تبعاً لقرار من القيادة العليا، كان الكومندانتي إستر، وقد فعلت ذلك على نحو يثير الإعجاب. لقد أثارت المكسيك كلها، لكنني أكرر، برأيي إن الشخص الذي كان ينبغي أن يتكلم هو ماركوس. فالدلالة السياسية لخطاب منه ستكون الطريقة الأكثر فعالية لإيصال مسيرة الزاباتيستا إلى ذروتها. هذا ما كنت أؤمن به، ومازلت أؤمن. ومر الزمن، وتبدل مسار العملية الثورية، وخرج ماركوس من أدغال لاكاندون. في الأعوام الأخيرة احتفظ بصمت مطبق، تاركاً إيانا ميتمين من تلك الكلمات الذي يعرف هو فقط كيف سيقولها أو يكتبها. إننا نفتقده. في الأول من كانون الثاني في أوفنتيك كان ثمة تجمع للاحتفال بانطلاق الثورة واستذكاره، والسيطرة على سان كريستوبال دي لا كاساس، نجاحات وإخفاقات رحلة مختلفة. ماركوس لم يذهب إلى أوفنتيك ـ حتى أنه لم يرسل رسالة، لا كلمة واحدة. لم أفهم، ولا زلت لا أفهم. منذ أيام خلت أعلن ماركوس عن إستراتيجية سياسية جديدة لأجل العام الذي بدأ. دعونا نأمل ذلك، إذا كانت استراتيجيات العام المنصرم قد فقدت كل فضيلة. دعونا نأمل، قبل كل شيء، ألا يخيم

عليه الصمت مرة أخرى. أي حق أمتلكه في قول ذلك؟ الحق البسيط لشخص لم يتخل عنهم أبداً. نعم، شخص لم يتخل عنهم أبداً.

8 كانون الثاني : من حجارة داوود إلى دبابات غوليات

هذه المقالة نشرت لأول مرة منذ أعوام قليلة. كانت خلفيتها هي الانتفاضة الفلسطينية الثانية، في عام 2000. لقد تجرأت على الاعتقاد بأنها لم تتقادم بشكل سيء، وأن «بعثها» تبرره الأفعال الإجرامية لإسرائيل ضد سكان غزة. وإليكم إياها.

من حجارة داوود إلى دبابات غوليات

تزعم بعض المرجعيات في القضايا التوراتية أن سفر صموئيل الثاني قد كُتب في أثناء عهد سليمان، أو بعده مباشرة ـ بأي حال، قبل السبي البابلي. يجادل فقهاء آخرون لا يقلون كفاءة في أن ليس السفر الأول فحسب بل السفر الثاني أيضاً قد كتب بعد النفي من بابل، فإنشاء الاثنين يخضع لما يدعى التركيب التاريخي ـ السياسي ـ الديني لنظام سفر التثنية، الذي هو تحالف الرب مع شعبه، خيانة الشعب، عقاب الرب، تضرع الشعب، غفران الرب. إذا كانت هذه الأسفار المبجلة تنحدر من عصر سليمان، فيمكننا القول إنها الآن قد مضى عليها حوالي ثلاثة آلاف عام، بالأرقام المدورة. فلو أن الكتاب قد شرعوا بعملهم بعد عودة اليهود من المنفى فقط، عندئذ لكان علينا أن نحسم حوالي خمسمائة عام من ذاك الرقم، بزيادة أو إنقاص شهر.

هذا الانهماك بالدقة الزمنية ليس له سوى قصد واحد، هو أن تعرض فكرة أن الحكاية الأسطورية التوراتية الشهيرة عن القتال (الذي

تبين في النهاية أنه لا يحدث) بين داوود الصغير والعملاق الفلستي غوليات قد حكيت بشكل رديء للأطفال على مدى عشرين أو ثلاثين قرنا على الأقل. مع مرور الزمن طورت مختلف الأطراف المهتمة بالموضوع ـ مع الاتفاق اللانقدي لأثر من مائة جيل من المؤمنين، اليهود والمسيحيين على حد سواء ـ تعمية مضللة كاملة حول عدم تكافؤ القوة الذي ميز البنية الجسدية الهشة لداوود الجميل المرهف عن غوليات المتوحش الذي يبلغ طوله أربعة أمتار. هذا اللاتكافؤ، الذي كان كبيراً على ما يبدو، قد تم التعويض عنه، ومن ثم تحول لصالح الإسرائيلي، بحقيقة أن داوود كان شاباً ماكراً وكان غوليات كتلة غبية من اللحم؛ وكان الأول ماكراً للغاية بحيث أنه قبل مواجهة الفلستي التقط خمس حجارة ملساء عن ضفة جدول مجاور ووضعها في حقيبة الراعي، وكان الثاني غبياً للغاية بحيث أنه لم يدرك أن داوود كان مسلحاً بمسدس. لكنه لم يكن مسدساً، سوف يحتج عشاق الحقائق الأسطورية السائدة بشكل ساخط، بل كان مقذاف حجارة [نقيفة]، مقذاف راع متواضع جداً، كان يستعمله خدم إبراهيم منذ الأزل لحماية قطعانهم. نعم، الحقيقة هي أنه لم يكن يبدو مثل مسدس: لم تكن له سبطانة، ولا قبضة، ولا زناد، ولا خرطوش ـ كل ما كان يمتلكه هو قطعتي خيط رقيقتين قويتين مربوطتين في الطرفين إلى قطعة جلد مرنة ضمن انحنائها تضع يد الراعي الخبيرة حجراً يطلق من مسافة، سريعاً وقوياً مثل رصاصة، إلى رأس غوليات، فيصرعه أرضاً، تاركاً إياه تحت رحمة نصل سيفه، الذي يقبض عليه رامي حجر ماهر. لم ينجح الإسرائيلي في قتل الفلستي و تقديم الانتصار إلى جيش صموئيل والله الحي لأنه كان الأكثر مكثراً، بل ببساطة لأنه كان يحمل سلاحاً طويل المدى ويعرف كيف يستعمله. الحقيقة التاريخية المتواضعة، اللاخيالية تماماً تعلمنا

فقط أن غوليات لم يحظ حتى بفرصة ليضع يديه على داوود، في حين أن الحقيقة الأسطورية، من نساج خبير للاستيهامات [الفانتازيات]، قد بقيت لثلاثين قرنا تهدهدنا بالحكاية الاستيهامية لانتصار الراعي الصغير على وحشية محارب عملاق تبين أن خوذته البرونزية الثقيلة ودرعه الصدري ودرع ساقه وترسه هي عديمة الفائدة. بقدر ما نكون قادرين على الاستنتاج من الطريقة التي انتهت بها هذه القصة المثقفة، فإن داوود، في المعارك العديدة التي جعلته ملك يهوده وملك أورشليم ووسعت سلطته حتى ضفة نهر الفرات، لم يستعمل [نقيفة] وحجراً مرة أخرى أبداً.

ولا هو يستعملها الآن. فعلى مدى الخمسين سنة المنصرمة نمت قوة داوود وحجمه إلى درجة أنه لم يعد ممكناً أن نرى أي فرق بينه وبين غوليات المتكبر، لذلك يمكن للمرء أن يقول - بدون أي أذى يصيب الوضوح المبهر للحقائق - إنه قد أصبح غولياتاً جديداً. إن داوود، اليوم، هو غوليات، لكنه غوليات الذي كف عن حمل أسلحة البرونز الثقيلة وعديمة الفائدة بشكل مطلق. فداوود العام الماضي الأشقر الشعر ذاك يطير فوق الأراضي الفلسطينية المحتلة في طائرة هليكوبتر ويطلق الصواريخ على أهداف عزلاء؛ داوود الماضي المرهف ذاك يحشد الآن أقوى الدبابات في العالم ويسحق ويدمر كل ما يجده في طريقه؛ داوود الغنائي ذاك الذي أنشد مدائح بتشيبا تجسد الآن في الشخصية الضخمة لمجرم حرب يدعى أرييل شارون، يطلق الرسالة «الشاعرية» أنه من الضروري سحق الفلسطينيين لكي يتفاوض بعد ذلك مع من تبقى منهم. هذا هو، باختصار، شكل الإستراتيجية السياسية الإسرائيلية منذ 1948، مع تغييرات تكتيكية طفيفة فقط. مسممة بالفكرة المسيحانية عن إسرائيل كبرى سوف تحقق في النهاية أحلام الصهيونية الأكثر

راديكالية؛ مشوبة «باليقين» الهائل والراسخ بأنه في هذا العالم العبثي الكارثي يوجد شعب اختاره الله، ولذلك فهو مبرر ومفوض بشكل تلقائي ـ باسم أهوال الماضي، أيضاً، ومخاوف الحاضر ـ في أي فعل من أفعاله ينجم عن عنصرية مهووسة، انفعالية، وإقصائية بشكل مرضي؛ إن اليهود، المتعلمين والمتمرسين في الفكرة القائلة بأن أية معاناة قد أنزلوها أو ينزلونها أو سينزلونها على الآخرين، وخصوصاً الفلسطينيين، هي دائماً أقل مما عانوه في المحرقة [الهولوكوست]، سوف ينكأون جرحهم إلى ما لا نهاية بحيث لا يتوقف عن النزف، لجعله غير قابل للشفاء، ويعرضونه أمام العالم مثل شعار. إن إسرائيل قد جعلت كلمات يهوه الرهيبة في سفر التثنية كلماتها: «الثأر ثأري وأنا سأرده». تريدنا إسرائيل أن نشعر بالذنب، كلنا، بشكل مباشر أو غير مباشر، من أجل أهوال المحرقة، إسرائيل تريدنا أن ننكر الحكم النقدي الأكثر أساسية ونحول أنفسنا إلى صدى مطواع لإرادتهم، إسرائيل تريدنا أن نعترف قانونياً de jure بما هو بالنسبة إليهم أمر واقع de facto: إفلاتهم المطلق من العقوبة. من وجهة نظر اليهود، لا يمكن أبداً سوق إسرائيل إلى المحاكمة، لأنهم عُذبوا و خنقوا بالغاز وحرقوا في أوشفيتز. أتساءل ما إذا كان أولئك اليهود الذين ماتوا في معسكرات الاعتقال النازية، الذين ذبحوا في المجازر، الذين تركوا يتعفنون في الغيتوهات، أتساءل ما إذا كانت الكتلة المنحوسة الهائلة من الناس لن تخجل من الأفعال المفزعة التي ارتكبها المتحدرون منهم. أتساءل ما إذا كانت حقيقة كونهم قد عانوا كل هذا القدر لن تكون أفضل عذر لئلا يجعلوا الآخرين يعانون.

إن حجارة داوود قد بدلت الأيدي، والفلسطينيون الآن هم الذين يرمونها. أما غوليات، من الناحية الأخرى، فهو المسلح والممول كما لم

يشاهد مثله أي جندي آخر من قبل في تاريخ الحروب، باستثناء صديقه في شمال أمريكا، بالطبع. نعم، بالطبع، إن القتل الفظيع للمدنيين من قبل مفجري القنابل الانتحاريين، نعم، المستحقين للإدانة بلا شك، نعم، بلا شك، لكن إسرائيل لا زال أمامها الكثير لكي تتعلمه إذا كانت غير قادرة على فهم الأسباب التي يمكن أن تؤدي بكائن بشري إلى أن يحول نفسه إلى قنبلة بشرية.

11 كانون الثاني : معاً مع غـزة

التظاهر العام لا يكون موضع تقدير من قبل أولئك الذين في السلطة، الذين يحظرونها في كثير من الأحيان أو يقمعونها. لحسن الحظ أن هذا ليس هو الحال في إسبانيا، حيث نزلت إلى الشارع بعض أكبر المظاهرات في أوروبة. لأجل هذا ينبغي أن نجل سكان بلد لم يكن فيه التضامن الأممي مجرد عبارة فارغة والذين سيعبرون عن ذلك بالتأكيد في العمل الجماهيري المخطط له يوم الأحد في مدريد. إن الهدف المباشر لهذه المظاهرة هو العمل العسكري الإجرامي، غير الشرعي، اعتداء ضد كل حقوق الإنسان الأساسية، قامت به الحكومة الإسرائيلية ضد سكان غزة الذين يتعرضون لحصار لا يرحم ويحرمون من المستلزمات الأساسية للحياة، من الطعام إلى المساعدة الطبية. الهدف المباشر، لكن ليس الوحيد. دعوا كل متظاهر يضع في ذهنه أن العنف والإذلال، والاحتقار التي كان الفلسطينيون ضحايا لها من الإسرائيليين قد استمرت لمدة ستين عاما بلا انقطاع. ولترتفع أصواتهم عالية، أصوات الحشد الذي أثق بأنه سيكون هناك، بالغضب من الإبادة البطيئة إنما المنهجية التي مارستها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني المكابد. ودعوا تلك الأصوات،

المسموعة عبر أوروبة، تصل أيضاً إلى قطاع غزة والضفة الغربية كلها. لا شيء أقل من ذلك يتوقع منا الذين يكابدون كل نهار وكل ليل في تلك الأصقاع. بشكل لا نهاية له.

12 كانون الثاني : لنفترض

لنفترض أنه في الثلاثينات، عندما بدأ النازيون حملاتهم لاصطياد اليهود، كان الشعب الألماني قد خرج إلى الشوارع، في مظاهرات مؤثرة ستدخل التاريخ، ليطالب بأن تنهي حكومته الاضطهاد وإعلان القوانين التي تحمي أية أقلية، سواء كانت يهوداً أو شيوعيين، أو غجراً أو مثليين جنسيين. لنتخيل أنه دعماً لهذا القرار المبجل والشجاع من قبل رجال ونساء بلاد غوته، كان شعب أوروبة قد جاب جادات وساحات مدنه وضم أصواته إلى جوقة الاحتجاجات في برلين، في ميونيخ، في كولونيا، في فرانكفورت. إننا نعرف قبلئذ أن شيئاً من ذلك لم يحدث، ولا كان من الممكن أن يحدث. سواء كان ذلك بدافع اللامبالاة أو فتور الشعور أو التواطؤ التكتيكي أو المفتوح مع هتلر، فإن الشعب الألماني - باستثناءات نادرة جداً فقط - لم يقم بخطوة، لم يبد إيماءة، لم يقل كلمة واحدة لإنقاذ أولئك الذين سيذبحون في معسكرات الاعتقال والمحارق، وعبر بقية أوروبة، لسبب أو لآخر (الفاشيات الوليدة الأخرى، على سبيل المثال) كان التستر المزعوم على القتلة النازيين يعني أن تؤدب أو تعاقب أية محاولات للاحتجاج.

إن الأمر مختلف اليوم. فنحن نمتلك حرية التعبير، حرية التظاهر، ولا أعرف كم من الحريات الأخرى. إذ يمكننا أن نخرج إلى الشوارع بآلافنا أو ملايينينا، تكون سلامتنا مؤمنة دائماً عن طريق الدساتير التي

تحكمنا، ويمكننا أن نطالب بنهاية للمعاناة في غزة أو إعادة السيادة إلى الفلسطينيين والتعويض عن الأضرار المعنوية والمادية التي عانوا منها على مدى ستين عاماً، بدون تبعات أسوأ من إهانات أو الجيش الإسرائيلي أو استفزازاته. إن مظاهراتي المتخيلة في الثلاثينات ستكون قد قمعت بعنف، في بعض الحالات بضراوة، في حين أن مظاهراتنا ستكون على الأقل قادرة على الاعتماد على انغماس التغطية الإعلامية ـ تليها مباشرة سيرورة نسيان الفعل. ستكون النازية الألمانية قد رفضت التراجع عن نهجها، وكل شيء سيحدث تماماً كما حدث وكما سجل التاريخ. إن الجيش الإسرائيلي بدوره، الذي اتهمه الفيلسوف ييشاياهو لايبوفيتز في عام 1982 بأنه يحمل عقلية يهودية ـ نازية، نظرا إلى أنه ينفذ أوامر حكوماته المتعاقبة وقادته، يتبع بشكل وفي عقيدة الإبادة الجماعية للذين عذبوا وخنقوا بالغاز وحرقوا أسلافهم. من الإنصاف حتى أن نقول إن التلاميذ قد بزوا أساتذتهم في بعض الجوانب. أما بالنسبة لنا فسوف نستمر في الاحتجاج.

13 كانون الثاني : أنغل غونزالز

منذ عام، في 12 كانون الثاني، على وجه التحديد، توفي أنغل غونزالز في مستشفى مدريد. ولكوني دخلت المستشفى في لانزاروتي بسبب مرض من غير المستبعد أن يكون قد هزمه، أجبت على مكالمة هاتفية من صحيفة تريد نشر كلمات قليلة حول خبر غير سعيد. بكلمات، لابد أن محاوري كان قادراً بشق النفس على سماعها، كان انفعالي شديداً للغاية، قلت إنني قد فقدت صديقاً كان أيضاً أحد أعظم شعراء إسبانيا. في ذكراه أترككم اليوم مع إحدى قصائده.

هكذا يبدو

يتهمني نقادي بالواقعية

أما أقاربي، في الوقت نفسه، فينسبون

إلي العيب المعاكس؛

فيقولون إنني ليس لدي

أي حس بالواقع.

بالنسبة لهم أنا، بلا شك، مشهد مقيت؛

المحللون النصيون، الأقارب من البلد،

قد خدعتهم جميعاً، كما يبدو.

ما الذي سنفعله بي؟

دعوني اقتبس بعض الأمثلة:

بعض عماتي المخلصات لا يقدرن على تمالك أنفسهن،

فيبكين لمجرد النظر إلي.

أما الأخريات، الأكثر خجلاً بكثير، فيصنعن لي البودينغ بالرز،

مثلما كن يفعلن عندما كنت صغيراً،

ويبتسمن نادمات، ويقلن لي:

كم أنت طويل،

لو كان بمقدور أبيك أن يراك.....

ويتوقفن، لا يعرفن ماذا يقلن غير ذلك.

ومع ذلك فأنا أعرف

أن إيماءاتهن الملتبسة

تخدع

إذ ثمة حنو صادق لا براء منه

يشع بكآبة في نظراتهن

وفي أسنانهن الأرنبية النقية الزائفة

وهن لسن وحدهن

في الليل

تعود عمتي العجوز كلوتيلده من قبرها

لتهز أصابعها أمام وجهي مثل الأغصان

وتكرر، بعتاب،

لا يمكنك أن تعيش على الجمال! ماذا تظن الحياة؟

وأمي المرحومة، بدورها،

بصوتها الرقيق والحزين

تتنبأ بنهاية حزينة لوجودي:

مستشفيات المجانين، المصحات، الصلع، مرض السيلان

لا أعرف ماذا أقول لهن، وهن

يعدن إلى صمتهن.

الصمت نفسه، كما من قبل.

مثلما عندما كنت صغيرا.

يبدو أن الموت لم يمر بيننا.

14 كانون الثاني : الرؤســـاء

ثمة واحد، هـو بـوش، يغـادر ولم يكـن ينبغـي أبـداً أن يكـون في السلطة، وآخر، هو أوباما، يُهيأ الآن للوصول ونأمل ألا يخيب أملنـا؛ وثمة آخر، هو بارتلت، ليس لدى أي شك في أنه سيبقى معنـا لـبعض الوقت. هذا هو الشخص الذي كرسنا له، بيلار وأنا، بعـض الوقـت في هذه الأيام ونحن نستمتع بالموسم الأخير من الجناح الغربي The West

Wing الذي يفضلون في البرتغال أن يطلقوا عليه اسم رجال الرئيس، وهو لقب ذكوري بشكل بارز، نظراً إلى أن بعض أهم الشخصيات في العرض هم من النساء. إن جد بارتلت Jed Bartlet، الذي لعب دوره مارتن شين (تذكر فيلم *القيامة الآن*) هو اسم الرئيس الذي تابعناه باهتمام متواصل، لأن توتر الصراعات الدرامية ومن أجل عناصر تعليمية قليلة موجودة بشكل ثابت في الطريقة الأميركية في شغل السياسة، الجيدة والبغيضة. لقد وصل بارتلت في نهاية ولايته الثانية، وكذلك هو في طريقه للخروج. إننا في منتصف حملة رئاسية، حملة مع حصته من الضربات المنخفضة، لكنها ستنتهي (كما نعرف قبلاً) ستنتهي بانتصار لأفضل المرشحين، رجل إسباني ذي أفكار واضحة وأخلاق معصومة يدعى ماتيو سانتوس. من المستحيل، بالطبع، أن نقاوم التفكير بباراك أوباما. هل استطاع كتاب القصة أن يمتلكوا موهبة التنبؤ؟ لأنه ما بين الرجل الإسباني والرجل الأسود لا يوجد اختلاف كبير.

15 كانون الثاني : الرجم بالحجارة وفظائع أخرى

الخبر يغيظ. أصدر مفتي العربية السعودية، أعلى سلطة دينية في البلد، فتوى تسمح ـ وكلمة «تسمح» هي تعبير ملطف، فالكلمة الصحيحة ينبغي أن تكون «يفرض» ـ الزواج على الفتيات اللواتي يبلغ عمرهن عشر سنوات. إن المفتي الآنف الذكر (يجب أن أذكره في صلواتي) يشرح السبب: لأن هذا قرار «عادل» لأجل النساء، كنقيض للفتوى المطبقة سابقاً، التي حددت سن خمسة عشر كحد أدنى للزواج، الذي اعتبره عبد العزيز الشيخ (هذا هو اسمه) «ظالما». أما فيما يتعلق بأسباب هذا الاستعمال لكلمتي «عادل» و«ظالم»، فلا نسمع كلمة

واحدة؛ فهو لا يخبرنا حتى إن كانت الفتيات من سن عشر سنوات تتم استشارتهن. صحيح أن الديموقراطية في العربية السعودية هي واضحة بغيابها، لكن في حال شيء بالغ الحساسية يمكن للمرء أن يوجد استثناء. بأي حال، إن المولعين [جنسياً] بالأطفال pedophiles يجب أن يكونوا سعداء؛ فلواطة الأولاد شرعية في العربية السعودية. والآن إلى خبر آخر يغيظ. في إيران، رُجم رجلان بسبب الزنا، وفي الباكستان دفنت خمس نساء وهن على قيد الحياة من أجل زواجهن زواجاً مدنياً من اختيارهن..... أتوقف هنا، إذ لم يعد بمقدوري سماع المزيد.

19 كانون الثاني : الأزمة الأخرى

الأزمة المالية، الأزمة الاقتصادية، الأزمة السياسية، الأزمة الدينية، الأزمة البيئية، أزمة الطاقة؛ إذا لم أذكرها جميعاً، فأعتقد أنني قد سميت أهمها. مع ذلك ثمة أزمة أخرى ناقصة هي، برأيي، كبيرة الأهمية. إنني أشير إلى الأزمة الأخلاقية التي تخرب العالم، وإذا جاز لي سأعطي أمثلة قليلة. فالأزمة الأخلاقية هي ما تعاني منها الحكومة الإسرائيلية، لأنه بدونها لا توجد طريقة لتفسير وحشية أفعالها في غزة، الأزمة الأخلاقية هي التي أصابت عقول حكومتي أوكرانيا وروسيا، التي تحكم بلا رحمة على نصف قارة بالتجمد حتى الموت، الأزمة الأخلاقية هي ما يمر به الاتحاد الأوروبي، العاجز عن تطوير وإحداث سياسة خارجية متماسكة تكون مخلصة لمبادئ أخلاقية أساسية معينة؛ الأزمة الأخلاقية هي ما يمر به الناس الذين استفادوا من هبات الإفساد لرأسمالية إجرامية، ويشكون الآن من كارثة كان عليهم أن يتنبؤوا بها. هذه ليست سوى أمثلة قليلة. أنا مدرك جيداً أن

الحـديث حـول الأخـلاق والأخلاقيـة في هـذه الأيـام يسـتدعي سـخرية الكلبيين والانتهازيين، وأولئك الأذكياء تماماً. لكـنني قلـت مـا قلـت، متأكدا من أنه يجب أن يوجد بعض المنطق مبرر مـا في كلمـاتي. لنـدع كل إنسـان يضع يده على قلبه ويخبرنا عما يجد هناك.

20 كانون الثاني : أوبـامـا

قتلوا مارتن لوثر كينغ. أربعون ألف ضابط شرطة يتأهبون في واشنطن لضمان ألا يحـدث الشـيء نفســه لبـاراك أوبامـا اليـوم. أقـول إنـه لـن يحدث، كما لو أن القدرة على الوقاية من أسوأ المحن تكمـن في يـدي. سيكون ذلك مثل قتل الحلم نفسه مـرتين. ربمـا نكـون جميعـاً مـؤمنين بهذا الإيمان السياسي الجديد الذي تفجر على الولايـات المتحـدة مثـل تسونامي خيري يجرف كل شـيء أمامـه، يفصـل القمـح عـن العصـافة والتبن عن الحب؛ ربما كنا لا نزال نؤمن بـالمعجزات بعـد كـل شـيء، بشيء يأتي من الخارج لينقذنا في اللحظة الأخـيرة، ينقـذنا بـين أشـياء أخرى من هذا التسونامي الذي يدمر العالم في الوقت الحالي. لقـد دأب كامو Camus على القول إنه إذا أراد شخص ما أن يكون معترفـاً بـه، فما عليه إلا أن يقول من هو. أنا لست هـذا المتفائـل، كمـا أن المشـكلة الرئيسية برأيي تكمن تحديداً في تعريـف مـن نكـون، الوسـيلة لتحقيـق ذلك. على كل، سـواء كـان ذلـك بمحـض الصـدفة أم بالتصـميم، فقـد أخبرنا أوباما الكثير عن نفسه في خطاباته ومقابلاته المختلفة وبمثل هذا الاقتنـاع والصـدق الظـاهرين، بحيـث أننـا نشـعر جميعـاً أننـا نعرفـه بحميمية، وأننا عرفناه إلى الأبد. إن رئيس الولايات المتحدة الذي يتسلم منصبه اليوم سوف يحل أو يحاول حل المشاكل الهائلـة الـتي تنتظـره؛

ربما سينجح وربما لن ينجح، وسيقف عاجزا بلا شك في وقت من الأوقات وسيكون علينا أن نغفر له، لأن الخطأ إنساني، كما علمتنا التجربة على نفقتنا. إن ما لم نكن قادرين على غفرانه هو إذا كان سينكر، أو يلتف، أو يلفق كلمة واحدة مما قاله أو كتبه. قد لا ينجح في جلب السلام إلى الشرق الأوسط، على سبيل المثال، لكننا لن نسمح له بالتغطية على الفشل بخطاب مضلل. إننا نعرف كل شيء حول الخطابات المضللة، أيها السيد الرئيس، ففكر فيما تقحم نفسك فيه.

21 كانون الثاني : أيـن؟

من أين ينحدر هذا الرجل؟ أنا لا أسألكم أين ولد، من هما والداه، ماذا درس، ما هو نوعٍ الحياة الذي خططه لنفسه ولعائلته؟ فنحن نعرف ذلك كله تقريباً؛ لدي سيرته الذاتية، كتاب خطير صادق، ومكتوب بذكاء، أيضاً. عندما أسأل من أين جاء باراك أوباما فإنني أعبر عن ارتباكي في هذا الزمن الذي نعيش فيه ـ الكلبي، اليائس، القاتم، الرهيب بألف طريقة ـ قد ابتدع شخصاً (إنه رجل، كان من الممكن أن يكون امرأة) يرفع صوته ليتكلم عن القيم، عن المسؤولية الفردية والجماعية، عن الاحترام للعمل، وكذلك عن أولئك الذين جاؤوا قبلنا. هذه المفاهيم التي كانت فيما مضى الرابطة لأجل أفضل تعايش إنساني لطالما عانى من احتقار الأقوياء، نفس أولئك الناس الذين سرعان ما سيرتدون، بدءاً من اليوم (أنا متأكد من ذلك) بالأسلوب الجديد ويصرخون بكل نوع من أنواع الصوت: «أنا أيضاً، أنا أيضاً». لقد أعطانا باراك أوباما، في خطابه، مبررات (المبررات) لئلا نسمح بأن نُخدع. العالم يمكن أن يكون أفضل من هذه الطبعة التي يبدو أننا محكوم علينا

أن نكونها حالياً. أساساً، ما أخبرنا به أوباما هو أن عالماً أفضل هو ممكن. إن الكثيرين منا كانوا يقولون ذلك قبل الآن لزمن طويل. ربما تكون هذه فرصة جيدة لنا لنجرب أن نتفق على الكيفية. ستكون بداية.

22 كانون الثاني : إسرائيل، مرة أخرى

إن سيرورة الاغتصاب العنيف لحقوق الشعب الفلسطيني الأساسية وأرضه من قبل إسرائيل قد مضت قدماً بشكل غير مكبوح، بتواطؤ أو لا مبالاة ما يسمى خطأ المجتمع الدولي. كتب الكاتب الإسرائيلي ديفيد غروسمان، الذي تصعدت انتقاداته الحذرة دائما لحكومة بلده مؤخراً، مقالة أعيد نشرها منذ بعض الوقت قال فيها إن إسرائيل لا تعرف الشفقة. كنا نعرف ذلك قبلئذ. مع وضع التوراة كستارة، ثمة معنى جديد يضفى على تلك الصورة الرهيبة التي لا يمكن نسيانها لجندي يهودي يهشم عظام يد فلسطيني شاب أُسر في أثناء الانتفاضة الأولى من أجل قذف الحجارة على الدبابات الإسرائيلية. من حسن الحظ أنه لم يقطعها. لا شيء ولا أحد، ولا حتى المنظمات الدولية، كالأمم المتحدة، التي من واجبها ذلك، نجح في إيقاف الأعمال الأكثر من قمعية - الإجرامية - للحكومات الإسرائيلية المتعاقبة وقواتها المسلحة ضد الشعب الفلسطيني. بناء على ما حدث في غزة، يبدو أن الوضع لا يتحسن أبدا. بل العكس تماماً. إن الحكومة الإسرائيلية، التي ووجهت بمقاومة فلسطينية بطولية، قد بدلت بعض استراتيجياتها الأولية، معتقدة أنه يمكن وينبغي استخدام كل وسيلة، حتى الأكثر وحشية وتعسفية، من

الاغتيالات الانتقائية إلى عمليات القصف بدون تمييز، إلى إخضاع وإذلال الشجاعة الأسطورية للشعب الفلسطيني. فكل يوم أضاف إلى السجل الذي لا ينتهي من أمواتهم، وكل يوم يجدد الرد الفوري لأولئك الذين لا زالوا أحياء.

23 كانون الثاني : ماذا؟

السؤالان «من أنت؟» و«من أنا؟» لهما جوابان سهلان: الشخص الذي يُسأل، أو يسأل نفسه، يحكي قصة حياته ولهذا يقدم نفسه لأشخاص آخرين. السؤال الذي ليس له مثل هذا الجواب السهل يصاغ بشكل مختلف: «ماذا أكون؟» ليس «من» بل «ماذا». أيا يكن من يسأل نفسه هذا السؤال ينبغي أن يواجه صفحة بيضاء، وما هو أسوأ أنه لا توجد كلمة واحدة يمكنه أن يكتبها عليها.

26 كانون الثاني : كلينتون؟

أي كلينتون؟ الزوج، الذي دخل التاريخ الآن؟ أم الزوجة، التي لازالت قصتها، برأيي، في بدايتها، كيفما كانت ذات نفوذ كعضو في مجلس الشيوخ؟ دعونا نبقى مع الزوجة. إذ دعاها باراك أوباما لتكون وزيرة الخارجية، ستنال فرصتها الكبيرة الأولى لتظهر للعالم ولنفسها جدارتها فعلاً. ستكون قد نالت فرصة أيضاً، بالطبع، وفرصة أكبر، لو اختيرت رئيساً للولايات المتحدة. بأي حال، كما يقولون في بلدي، إذا لم يكن لديك كلب، فاخرج إلى الصيد بقط، وأعتقد أننا نتفق جميعاً على أن وزيرة خارجية الولايات المتحدة هي، رغم كونها سنورية

feline، ليست قطاً، بل نمراً. رغم أنها لم تلفتني كشخص مفرط التأنق بشكل خاص، أتمنى لهيلاري ديان رودهام انتصارات كبيرة، أولها أن ترقى إلى مستوى مسؤولياتها والوقار الذي هو الأساس لمنصبها.

كل هذا هو مجرد مدخل إلى الموضوع الذي قررت أن أدرسه اليوم. سيلاحظ القراء النبهاء أنني عندما ذكرت الاسم الكامل لوزيرة الخارجية كتبت هيلاري ديان رودهام. لم يكن ذلك صدفة. لقد فعلت ذلك للتأكيد على أن الكنية كلينتون لم تعط لها عند الولادة، لأبين أن كنيتها ليست كلينتون، وحقيقة أنها تبنتها، سواء من العرف الاجتماعي أو من اللياقة السياسية، لم تبدل حقيقة الأشياء على الإطلاق: اسمها هيلاري ديان رودهام، أو إذا أردت أن تختصره، هيلاري رودهام، هو أكثر جاذبية بكثير من «كلينتون» البالي، المبتذل. لا هي تعرفني ولا هو، وأنا متأكد من أنهما لم يقرأا سطراً واحداً مما كتبت، لكن دعوني أقدم نصيحة صغيرة ـ ليس للرئيس السابق، الذي لم يكن اهتماماً كثيراً للنصيحة، خصوصاً عندما تكون جيدة. أنا أخاطب وزيرة الخارجية. أسقطي الكنية كلينتون، التي بدأت تبدو مثل معطف قديم بال ذي مرفقين مهترئين، واستعيدي كنيتك، رودهام، التي أعتقد أنها كانت كنية والدك. فإذا كان لازال حياً، هل يمكنك أن تتخيلي كم سيكون فخورا؟ كوني ابنة صالحة، امنحي عائلتك هذا القدر من السعادة. وبالمناسبة امنحي هذه المتعة لكل النساء اللواتي يعتقدن أن الالتزام باتخاذ كنية الزوج كان ويستمر في كونه طريقة أخرى ـ وليس الطريقة الأقل أهمية ـ لتحقير هوياتهم الشخصية والتأكيد على الخضوع الذي كان متوقعاً على الدوام من النساء.

27 كانون الثاني : رودهـام

لم يكن ثمة عواقـب لجرأتي البارحـة، بعيـدا عـن الاهتمـام (غـير المتوقـع الـذي أثـاره اقتراحـي أن تعـود هـيلاري كلينتـون إلى كنيتهـا الحقيقية. لم يكن ثمـة احتجاجات دبلوماسـية، ووزيـرة الخارجيـة لم تصدر بياناً، ولا يبدو أنه كان ثمة أية إشارات إلى ما كتبته في نيويورك تايمز. غداً سأغير الموضوع. على كل، في هذه الأثناء، سـأرتاح وأتأمل.

28 كانون الثاني : جرفازيو سانشيز

لم تكن عيناي ذوي فائدة كثيرة لي. إنني أرى الحروف كما أنقرها، واحداً تلو الآخر، علـى الصـفحة البيضـاء لشاشـة الكومبيـوتر، مشـكلة كلمات، جيدة أو سيئة، تعبر عن أفكار معينة إلى مـن يقرؤنـي، أفكـار معينة أدعوها أفكاري الخاصة، كان من الممكن أن أدعوها بشكل بلاغي رؤى للعالم لو أن العالم سمح فقط لنفسه بأن يُعرف بمثل هذا العدد القليل من الأفكار. إن كثيراً مما أراه، أراه فقـط لأن الآخـرين قـد رأوه قبلـي. يؤلمني الندم على أنني نادراً ما كنت الشخص الذي قام فعلاً بالرؤية في حياتي. لا أسكن في العادة داخل فقاعـة واقيـة، لكـنني مـدرك لكـوني محاطاً بأشخاص صمموا على إنقاذي من الصدمات الـتي يقولـون، وقـد يكونون على حق، كان من الممكن أن يكون لها تأثير سلبي على عملي. لا أعرف. ما أعرفه هو أن الجدار الذي أشعر أحياناً أنه يحيط بي، الذي هو في الواقع أكثر هشاشة بكثير مما يبدو، يتعرض بعنف غالباً لهجمات وحشية من الواقع. الكتاب الأخـير الـذي أطلـق عليـه المصـور الضـوئي جرفازيو سانشيز اسم ساراييفو Sarajevo هو مثال على ذلك. كنت أود

أن أعبر امتناني العميق لأجل السماح لي بالرؤية من خلال عينيه، بما أن عيني كانتا ذوي فائدة قليلة لي. وأنا أشكره، أيضا، على الوفاء الشخصي والمهني الذي دفعه إلى أن يكتب أن «الحرب لا يمكن أن تروى». لذلك فإن الذين يكتبون منا متروكون بلا أية أوهام.

29 كانون الثاني : شـهادة

يبدو أن الأمور في طريقها إلى أن تكون جيدة. فرئيس الولايات المتحدة، الذي يتقدم ليس باسم المسيح بل باسم باراك أوباما، قد وقع اليوم مشروع قانون الجزاء Fair Pay Act ليصبح قانوناً. إن الشخص المسؤول مباشرة عن هذه الوثيقة كان امرأة، عاملة رفعت شكوى ضد الشركة التي كانت تعمل لصالحها وكسبت الدعوى، لدى اكتشافها أنها طوال حياتها كانت تكسب أقل بالضبط لأنها كانت امرأة. كما لو كانت في سباق تتابع، هذه المرأة البيضاء، التي تدعى ليلي لدبتر، سلمت شهادتها إلى العداء التالي، رجل أسود ذو اسم مسلم، الرئيس الرابع والأربعين لذاك البلد في شمال أمريكا. فجأة يبدو العالم لي أنظف، أكثر وعداً. أرجوكم، لا تنكروا علي هذا الأمل الوحيد.

شـــباط / فبرايــر 2009

2 شباط: الخبز

هل سبق لكاتب العدل المبجل بشكل مفرط لبادالونا أن قرأ رواية *البؤساء*، أو هل ينتمي إلى ذاك القسم من البشرية الذي يعتقد أن الحياة لا يمكن تعلمها وعيشها إلا وفقا للقانون؟ السؤال هو - بشكل واضح - بلاغي، وقد أثرته فقط لكي أمنح نفسي طريقة للدخول في الموضوع. هكذا سيعرف القارئ قبلاً أن كاتب العدل الآنف الذكر يمكن، بعدالة كاملة، أن يكون إحدى الشخصيات الموصوفة في رواية فيكتور هوغو، أي النائب العام. كان بطل الرواية، جان فالجان (هل تتذكرون هذا الاسم، المفتش العام Senhor Inspector) متهماً بكونه قد تسبب في أن يُسرق منه (أو جعل نفسه يُسرق) رغيفاً من الخبز، وهي جريمة كلفته قضاء حياته تقريباً في الحبس الانفرادي، بفضل سلسلة من الأحكام المفروضة لمعاقبة محاولاته المتكررة للهروب، نجح بعضها أكثر من الآخرين. كان جان فالجان يعاني من مرض يصيب نزلاء السجون بشكل خاص، يمكن أن ندعوه التلهف anxiety - أو التوق - إلى الحرية. الكتاب ضخم، من تلك الكتب التي نصفها اليوم بأنها متخمة بالصفحات، ومن شبه المؤكد ألا يكون ذا أهمية للمفتش العام، الذي هو الأكثر رجحاناً ليس في السن المناسب لتثمين رواية البؤساء. فهذه

الرواية يجب أن يقرأها المرء في شبابه، قبل أن تبدأ الكلبية cynicism، ثمة قلة من البالغين الذين سيهتمون بالفقر والمغامرات غير البطولية لجان فالجان. من أجل هذا كله، توجد دائماً الإمكانية لأن أكون مخطئاً: قد يكون المفتش العام رغم كل شيء قد قرأ البؤساء.... هل ينبغي أن يكون ذلك هو الحال، أسمحوا لي بسؤال: كيف حدث أن تجرأ (إن كان الفعل يبدو قويا قليلا لكم، فأرجوكم أن تختاروا بديلكم المفضل) على أن يطلب عقوبة السجن لمدة عام ونصف للشحاذ الذي حاول، في بادالونا، أن يسرق جوهرة صغيرة، وأقول «حاول» عن عمد، نظراً إلى أنه نجح فقط في سرقة نصفها؟ كيف جاء؟ هل كان ذلك لأن المفتش لم يكن يمتلك سوى شيفرة في مكان الدماغ داخل جمجمته؟ اشرحوا لي بلطف، أرجوكم، لكي أتمكن على الفور من إعداد دفاعي، في حال وجدت نفسي ذات يوم واقفاً أمام شخص مثله.

3 شباط : دافوس

قرأت أن اجتماع هذا العام في دافوس لم يكن ناجحاً تماماً. إذ أن أشخاصا كثيرين لم يحضروا؛ إن شبح الأزمة قد جمد بلا رحمة الابتسامات على وجوه أولئك الذين حضروا؛ كانت المناظرات تفتقر إلى أية أهمية حقيقية، ربما لأن لا أحد هناك كان يعرف ماذا يقول، خشية من أن الحقائق القاسية القادمة في اليوم التالي ستجعل تحليلاتهم ومقترحاتهم تبدو مثيرة للسخرية، مهما كان الجهد الذي يصبونه في توليدها، الذي تبين في النهاية أن حتى أكثر التوقعات تواضعاً ليست سوى بمحض الصدفة. قبل كل شيء، كان ثمة الكثير من الحديث عن الندرة المقلقة للأفكار، ومضى المشاركون بعيداً إلى حد

الاعتراف بأن «روح دافوس» كانت ميتة. شخصياً لم أر بنفسي أية إشارة على «روح» تكتسي مظهراً، أو أي شيء حتى يشبه روحاً عن بعد. أما بخصوص النقص المزعوم للأفكار، فأنا مندهش من الإشارة إلى شيء كهذا الآن فقط، نظراً إلى أنه لا أفكار ـ أو ما يسرنا أن نسميها أفكاراً مع كل الاحترام المستحق ـ قد خرجت من هناك يمكن لأي شخص أن يشير إليها. فعلى مدى أكثر من ثلاثين عاماً كانت دافوس أكاديمية المحافظين الجدد بامتياز، و، بقدر ما يمكنني أن أتذكر، لم يرفع صوت واحد داخل ذاك الفندق السويسري المبهج للإشارة إلى مدى خطورة المسارات التي اتخذها الاقتصاد والخدمات المالية. كانت الرياح تهب، لكن لا أحد منهم أراد أن يلاحظ أن العواصف كانت في طريقها. والآن يخبروننا أن الأفكار قد نفدت منهم. فدعونا نراقب ونرى إن كانت الأفكار تنشأ، فخط تفكيرهم الأحادي قد نفد الآن من الأكاذيب لإخبارنا بها.

4 شباط: الصيارفة

ما الذي يمكن فعله حول الصيارفة؟ إنهم يخبروننا أن مؤسسي نظام الصيرفة، الذي يعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، على الأقل في أوروبة الوسطى، كانوا على العموم كالفينيين، أناساً ذوي دستور أخلاقي متطلب، يمتلكون، على الأقل لفترة من الزمن، التردد الجدير بالثناء ليكدحوا بشرف في مهنتهم. تلك الفترة لا بد أنها كانت قصيرة، نظراً إلى القدرة اللامحدودة للمال على الإفساد. تدريجياً، تغيرت المصارف كثيراً، ودائماً نحو الأسوأ. الآن، في وسط أزمة اقتصادية تضرب المنظومات المالية حول العالم، نبدأ بتجربة الإحساس غير المريح بأن

أولئك الذين سيخرجون بأفضل حال من العواصف المالية هم تحديداً كبار صيارفتنا. فقد اندفعت الحكومات في كل مكان، متبعة منطق العبثيين، إلى نجدة الصيارفة من الخسائر التي كان الصيارفة أنفسهم، في معظمهم، مسؤولين عنها. إذ تركت ملايين الملايين صناديق الدولة (أو حسابات زبائن الصيارفة) لكي تبقي مئات المصارف الكبرى طافية وتسمح لها بان تستأنف إحدى وظائفها الأساسية، أي توفير الائتمان **credit**. يبدو أن ثمة إشارات خطيرة على أن الصيارفة استنفروا مفكريهم، مفترضين بشكل مؤذ أن المال هو مالهم ببساطة لأن الصدف شاءت أن يكون في قبضتهم و، كما لو أن ذلك كان قبلئذ أكثر من كاف، يردون بدم بارد على الضغط من حكوماتهم لوضع النقد السائل **cash** في التداول بسرعة، وهي الطريقة لإنقاذ آلاف المشاريع من الفشل وملايين العمال من البطالة. من الواضح الآن أن الصيارفة ليسوا رجالاً يمكن الوثوق بهم، والبرهان هو الازدراء الذي يعضون به اليد التي تطعمهم.

5 شباط: أدولف آيخمان

في بداية الستينات، عندما عملت في دار نشر في لشبونة، حررت كتابا بعنوان *ستة ملايين ميت Seis milhose mortos*، يحكي قصة أدولف آيخمان، المنفذ الأساسي لخطة إبادة اليهود (ستة ملايين منهم)، والتي أنجزها بشكل منهجي إلى النهاية المرة وشبه العلمية، في معسكرات الاعتقال النازية. ولما كنت على الدوام منتقداً لاضطهاد الشعب الفلسطيني وقمعه من قبل الدولة الإسرائيلية، فإن حجتي الرئيسية في شجبه كانت ومازالت على أساس أخلاقي: الآلام المسكوت

عنها التي حلت باليهود عبر التاريخ، وبالأخص كجزء مما يدعى الحل النهائي، ينبغي أن تقدم لإسرائيليي اليوم (أو إسرائيليي الستين عاما المنصرمة، على وجه التحديد) أفضل سبب ممكن لئلا يرتكبوا أعمالهم الاستبدادية على الأرض الفلسطينية. ما تحتاجه إسرائيل قبل كل شيء آخر هو ثورة أخلاقية. ومع اقتناعي الراسخ بذلك لن أنكر الهولوكوست [المحرقة] أبداً. ما أرغب فيه فقط هو أن أوسع المفهوم إلى انتهاك الحرمات والإذلال والاغتصاب من كل نوع الذي تعرض له الشعب الفلسطيني. هذا هو، بعد كل شيء، حقي طالما أن الحقائق تؤيد ما أقول كما تفعل الآن. أنا كاتب حر يعبر عن نفسه فيما يتعلق بالعالم بالحرية التي يسمح بها. لا أمتلك معلومات كثيرة متاحة لي حول هذا الموضوع بقدر ما هو متاح للبابا - أو الكنيسة الكاثوليكية عموماً. فما أعرفه عن هذه المسائل منذ أوائل الستينات فصاعداً هو كاف لأغراضي.

على العموم، يبدو لي أن ما يستحق الشجب إلى درجة كبيرة أن يتصرف الفاتيكان بمثل هذا الغموض تجاه مسألة القساوسة الذين أقسموا على الولاء للوفيفريين Lefebvrists، المحرومين كنسياً سابقاً لكنهم الآن طهروا من خطاياهم بأمر بابوي. لم يكن راتسينغر رجلاً أشاطره أية ميول فكرية. إذ أنظر إليه بوصفه شخصاً يبذل جهوداً كبيرة لتمويه، وحتى لإخفاء، ما يفكر فيه فعلاً. هذا سلوك يكاد يكون غير مألوف من طرف طوائف الكنيسة، لكن عندما يصبح سلوك بابا، فحتى شخص ملحد مثلي ينبغي أن يمتلك الحق بأن يطالب بالمباشرة، والترابط المنطقي وبالضمير نقدي. فالشخص المنتقد لذاته لن ينحرف عن جادة الصواب، أيضاً.

6 شباط: سـامبايو

كان من دواعي سروري أن أراه. يبقى كما كان دوماً الرجل الرزين والذكي والحساس. منذ عشرين عاما عملنا معاً في الحملة في الانتخابات اللاحكومية، التي نجحنا أولاً في كسبها ومن ثم الاحتفال بها. فقد فاز بموقع مجلس مدينة لشبونة، منصب بقي يمارسه بكفاءة وتجديد كاملين، في حين بقيت أؤدي المهمة المشؤومة، مهمة كوني رئيساً لقاعة اجتماعات مدينة محلية ذات سمعة بائسة. فصعدنا ونزلنا شوارع لشبونة وساحاتها وأسواقها بشجاعة نسأل عن المقترعين حتى رغم أننا فعلنا ذلك بشكل غير ملحوظ قدر الممكن ـ أشك أن يكون ذلك بدافع التواضع. وكما ذكرنا آنفا، فقد ربحنا، بالرغم من أن الرابح الحقيقي كان مدينة لشبونة، التي ينبغي أن تكون فخورة بنفسها لأجل جعل سامبايو ممثلها في أعلى مستوى من غرفة المجلس القومي. ذاك الرئيس بدوره أصبح رئيساً للجمهورية لفترتين [رئاسيتين]، وترك بصمته كشخصية ولدت من حوار متحضر، من توسل حر لإجماع مفتوح، لا يتجاهل أبدا حقيقة أن السياسة، أو خدمة المجتمع، ينبغي أن تكون خدمة وفية ومتماسكة، وإلا فإنها تخاطر بأن تصبح مجرد أداة لمصالح الشخصية والحزبية، ليست بالضرورة ذات السمعة الأنقى. لقد وعدنا بأن نلتقي مرة أخرى عندما يكون لدينا فراغ أكبر، وهو وعد متبادل آمل أن آراه منفذاً تماماً في المستقبل القريب، رغم النشاط الكثيف حول المشروع المسمى تحالف الحضاراتAlianca de Civilizacoes، الذي هو الممثل الرئيسي له. أنتم تعرفون أنه مع خورغه سامبايو لا وجود لكلمات زائفة، ونحن نعرف أننا نستطيع الوثوق بكلماته لأنها وصف دقيق لما يفكر به.

9 شباط: فاتيكانيات vaticanadas

أو فاتيكانيات. لا يمكنني أن أتحمل رؤية أولئك الكرادلة والأساقفة يتزينون بإسراف من شأنه أن يصدم يسوع الناصرة الفقير، المتلفع بشكل متواضع برداثه الخالي من الدرزات المصنوع من أرخص الأقمشة. لا يهم كم يبدو مثل هذا الشيء غير منطقي، رغم انه من الصعب ألا يذكرنا ذلك بالاستعراض المجنون للأزياء الكنسية الذي أدخله فلليني بشكل باهر في فيلمه *ثمانية ونصف* لأجل بهجته وبهجتنا. يبدو أن أولئك السادة يعتقدون أنهم متجلببون بالسلطة، التي لم تدم إلا بفضل تسامحنا. يسمون أنفسهم ممثلي الله على الأرض (ليس إنهم رأوه أو قدموا أوهى دليل على وجوده)، لكنهم يعبرون الدنيا وهم ينضحون نفاقاً من كل مساماتهم. سواء كانوا يكذبون دوماً أم لا، فإن وراء كل كلمة ينطقون بها أو يكتبونها تكمن كلمة تنفيها أو تحددها أو تفسدها أو تحرفها. كان الكثيرون منا معتادين تقريباً على كل ذلك قبل أن يكبروا ليصبحوا إما لا مبالين به أو، وهو الأسوأ، مزدرين له. لقد بات مألوفاً أن نقول إن حضور القداس والكنيسة يهبط عددهم بسرعة، لكن اسمحوا لي أن أقترح أن الأعداد تهبط أيضاً بين أولئك الذين دأبوا على الدخول إلى الكنيسة ليستمتعوا بجمالها المعماري أو بلوحاتها ومنحوتاتها، في حين أنهم ليسوا بالضرورة مؤمنين ـ باختصار، وهو وضع بالكاد يستحق زيف عقيدته الذي يدعمه.

إن الكرادلة والأساقفة، ومن الطبيعي أيضاً البابا الذي يحكمهم، ينصرفون الآن بخفة. إنهم يعيشون متطفلين على المجتمع المدني وهم غير ملزمين بتفسير أنفسهم. طوال فترة الغرق المديد إنما العنيد لهذه التيتانيك التي هي الكنيسة الكاثوليكية، فإن البابا ومساعديه، الذين

يغمرهم الحنين إلى الزمن الذي كانوا يمتلكون فيه سلطة حقيقية، بفضل تواطؤ إجرامي بين العرش والمذبح، يحاولون الآن بأية وسيلة، دون استبعاد الابتزاز الأخلاقي، أن يتسللوا إلى مختلف الحكومات، وبالأخص تلك التي تظل لأسباب اجتماعية وتاريخية ممانعة للتخلي عن الخضوع الذي يستمر في كل تعاملاتها مع مؤسسات الفاتيكان. هذا النمط من التخويف (الديني؟) يحزنني عندما يهدد بشل الحكومة الإسبانية، التي كان عليها دائماً أن تواجه ليس المبعوثين البابويين فقط بل بابواتهم المحليين ذاتهم أيضاً. وثمة شيء آخر: فأنا كشخص، كمثقف، كمواطن، مغتاظ بشدة من الطريقة التي يستخف بها البابا وجماعته بحكومة رودريغز ثاباتيرو، الذي انتخبه الشعب الإسباني بصدق. سيظهر أن شخصاً ما بحاجة ماسة إلى رمي أحد هؤلاء الكرادلة بحذاء.

10 شباط: سيغيفريدو

سيغيفريدو لوبيز هو اسم عضو كولومبي في البرلمان أخذ رهينة من قبل جماعة الفارك[1] لمدة تزيد على سبع سنوات، وقد استعاد حريته بفضل شجاعة ومثابرة سينيورا بيداد كوردوبا، من ضمن آخرين، رئيس حركة كولومبيون من أجل السلام الاجتماعية والإنسانية. وبفضل أيضاً مجموعة لا يمكن التنبؤ بها من الظروف، كان سيغيفريدو لوبيز الناجي الوحيد من جماعة مؤلفة من أحد عشر MPs مخطوفين، قتل عشرة منهم في الآونة الأخيرة من قبل المنظمة الإرهابية. فقد نجح في الهرب وهو الآن يتمتع بالحرية. في مؤتمر صحفي عقد للتو في مدينة كالي،

---

[1] حركة حرب عصابات Fuerzas Armadas Revolution de Colombia، التي سيطرت بشكل متقطع على مناطق بأكملها من الريف الكولومبي.

شكر بيبداد كوردوبا بلغة أثرت في كل من سمعوه، ووصلت كلماته وصوره القوية إلينا جميعاً هنا. هذا بالنسبة لي ليس تبجحاً بالسيطرة على عواطفي، فأنا أبكي بسهولة، ولا علاقة لذلك بسني. لكن على هذا الصعيد كنت ملزماً بالقطيعة مع العرف عندما قارنها سيغيفريدو، لكي يعبر عن امتنانه اللامحدود لبيبداد كوردوبا، بزوجة الدكتور في كتابي: Ensaio sobre a cegweira. تكرم بوضع نفسك في مكاني: آلاف الكيلومترات بيني وبين تلك الكلمات والصور، وأنا البائس الغارق في فيضانات من الدموع، وبدون أي ملاذ آخر سوى الانحناء على كتف بيلار وتركها تلك الكلمات والصور تتدفق بحرية. إن وجودي برمته كإنسان وكاتب قد بررته تلك اللحظة. شكراً لك، يا سيغيفريدو.

11 شباط: الملحدون

دعونا نواجه الحقائق. منذ بعض السنوات (وهي كثيرة) كتب اللاهوتي السويسري الشهير هانز كونغ هذه الحكمة: «الأديان لم تخدم أبداً في تقريب الناس إلى بعضهم البعض». لم تقل كلمة أصدق من ذلك. هذا ليس معناه (وسيكون من العبث حتى أن نفكر في ذلك) أنك لا تملك الحق في اعتناق الدين الأكثر جذباً لك، من أشهرها إلى أقلها صيتاً، أو أن تتبع تعاليمه وعقائده (مهما كانت)، بدون طلب اللجوء إلى الإيمان، الذي هو مبرره الأعلى وهو بالتعريف (كما نعرف جميعاً أيضاً) مغلق كلياً على معظم القدرات الأولية للتعليل العقلي. في الواقع يمكن للإيمان أن يحرك الجبال، حتى بدون إثبات أن شيئاً ما مماثلاً قد حدث فعلاً، لأن الله لم يظهر أبداً ميالاً إلى التجريب بهذا النوع من الطريقة، أو إلى استخدام قدراته في مثل هذا المشروع الجيولوجي. ما نعرفه هو أن

الأديان لا تفشل فقط في تقريب الناس أكثر إلى بعضهم البعض، بل توجد ـ هذه الأديان ـ فعلاً في حالة العداء المتبادل، رغم كل الخطابات المسكونية الزائفة التي تعتبرها الانتهازية الفاسدة لقسم أو آخر مجزية لأسباب تكتيكية واستراتيجية عرضية وزائلة عموماً. لقد كانت الأمور بهذه الطريقة دوماً منذ كان العالم هو العالم، ولا أمل واضح في أن ذلك يمكن أن يتغير بأية درجة. أي، بعيداً عن الفكرة الجلية القائلة بأن الكوكب سيكون مكاناً أكثر سلمية بكثير لو كنا جميعاً ملحدين. بالطبع، نظراً لكون الطبيعة البشرية على ما هي عليه، لا تنعدم أية دوافع أخرى لأجل كل نوع من الاختلاف في الرأي، لكننا على الأقل سنكون متحررين من المفهوم الطفولي والمضحك للاعتقاد بأن إلهنا هو الأفضل من أي عدد من الآخرين القائمين، وأن السماء تنتظرنا في فندق خمسة نجوم. والأكثر حتى من ذلك، أعتقد أننا كنا سنبدأ إعادة اختراع الفلسفة.

12 شباط: كما نقول عادة

كما نقول عادة لشخص يشعر بالارتباك، «تعلم أن تعرف نفسك» ـ كما لو أن معرفة النفس لم تكن العملية الخامسة الأكثر صعوبة على الاكتساب للحساب البشري. بالطريقة نفسها، نذكر شخصاً بشكل عام يشعر بأنه فاتر الشعور، «أن تريد هو أن تنال» ـ تماماً كما لو أن أبغض حقائق العالم الأكثر لم تكن تمتلك لهواً أكثر مع عكسها للموقع النسبي للفعلين. بشكل مشابه، من المألوف أن نقول لشخص متردد، «ابدأ في البداية»، كما لو أن البداية كانت نقطة البدء لكرة غزل معقدة ، ويمكننا أن نحلها إلى أن تصبح النهاية مرئية بشكل واضح. كما لو أنه بين

الأولى والثانية ـ البداية والنهاية ـ كنا نمتلك خطا أملس ومستمراً بين أصابعنا، بدون عقد لحلها أو فكها، شيء من شأنه بالفعل أن يكون غير وارد في حياة كرة من الغزل. و إذا سمح القارئ لي بعبارة أخرى مكتوبة لإحداث تأثير معاكس، في خيوط غزل حيواتنا.

13 شباط: ريش صيني

من الممارسات القديمة للعالم الغربي في الطبخ أن يُرمى السرطان البحري في الماء الغالي ويُطهى في قدر. ظاهرياً، إذا نقل سرطان بحري مات لتوه إلى المقلاة، فإن النكهة النهائية سوف تتغير، وهي تتغير نحو الأسوأ. هناك من يصرون على أن اللون الأحمر الفاتح الذي يكتسبه هذا الحيوان القشري عند الطهي يعزى حصراً إلى درجة حرارة الماء المرتفعة بشكل استثنائي. لا أعرف عن ذلك، فانا أتكلم مما سمعت فقط، بما أنني عاجز حتى عن سلق بيضة. ذات يوم كنت أتابع فيلماً وثائقياً حول ما يُغذى الدجاج عليه وكيف ُيساق ببطه لكي يذبح والطريقة المستخدمة، وكاد ذلك أن يجعلني أتقيأ. في مناسبة أخرى لا يمكنني أن أحذفها من ذاكرتي، قرأت مقالة في مجلة حول استعمال الأرانب في صناعة مستحضرات التجميل، أعلمتني أنه لكي لا أصاب بأي تهيج في عيني تسببه محتويات زجاجة الشامبو، تُرش خلطتها أولا في عيون هذه الحيوانات الصغيرة، بالطريقة التي كان يحقن بها الدكتور دث القاسي القلب البترول في قلوب ضحاياه. اليوم تعلمني ورقة موجزة مقحمة في جريدتي أنه في الصين ينتف ريش الطير، النوع المستخدم لحشو الوسائد، من الطيور الحية، قبل أن ينظف ويطهر ويصدر إلى المجتمعات الغربية المتحضرة، التي تعرف ما هو الأفضل لنا وما هي

آخر موضة. لن أدلي بأي تعليق، لأنـه لا داعـي لـذلك: فهـذا الـريش يتكلم عن نفسه.

16 شباط: إساءة المعاملة المنزلية

أوصف عموماً بأنني متشائم. بالرغم من كيف كان بإمكاني أن أظهر سابقاً، والتأكيد على إنني في العادة أضفي شكيتي الجذرية على إمكانية أي تحسـن فعلـي وجـوهري في نوعنـا بخصـوص مـا يعـرف بالتقـدم الأخلاقي، كنت أفضل فعلاً أن أكون متفائلاً، حتى ولو مجرد الإبقاء على أمل بأن الشمس، لكونها قد أشرقت كـل يـوم حتـى هـذا اليـوم، ستشرق غداً أيضاً. ولذلك ستشرق، لكن سيأتي يوم لن تشرق فيه. هـذه التأملات الافتتاحية يثيرها التفكير في موضـوع سـوء المعاملـة المنزليـة، المعاملة السيئة الجنونية للمرأة من قبل الرجـل، سـواء كـان زوجهـا أم خطيبهـا أم حبيبهـا. فـالمرأة، الخاضـعة علـى مـدى التـاريخ للسـلطة الذكرية، أصبحت مختزلة إلى شيء بدون منزلة أكبر من منزلة الخادمة ـ خادمة الرجل، ليست مسؤولة عن أكثر من مسؤولية تعويض الرجل، المنهك من عمله الجسـدي، عـن القـوة الكافيـة للعـودة إلى العمـل مـرة أخرى. حتى في يومنا هذا، عندما تمتلك حرية الـذهاب إلى كـل مكـان خارج المنزل، تكون متحررة من كل القيود، وتنخـرط في نشـاطات كـان الرجال يعتبرونها فيما مضى ذكورية حصراً، سيبدو، مع أننا ما زلنا لا نرغب في مواجهة الحقيقة، أن الغالبية الساحقة من النساء مستمرات في العيش داخل منظومة من العلاقـات الـتي يمكـن أن تنتمـي إلى العصـور الوسطى. إنهن يُضربن، يُعـاملن بوحشـية، ويـتم اسـتغلالهن جنسـياً، ويكن عبدات للتقاليد والأعراف والالتزامات التي لم يخترنها أبداً والتي

تستمر في إبقائهن خاضعات للاستبداد الذكري. وعندما تحين الساعة، يتعرضن لخطر الموت قتلاً.

تؤثر المدارس في تجاهل هذا الواقع، وهذا بالكاد مفاجئ، بما أننا نعرف أن القدرة التدريسية لنظومتنا التربوية هي ظل لما كان قائماً. فالأسرة، البيت المثالي لكل تناقض، مهد كل الأنانية، هي مؤسسة في حالة إخفاق دائم، تمر بأخطر أزمة في تاريخها كله. تنطلق الحالة من مبدأ أول هو أننا جميعاً سنموت عاجلاً أم آجلاً، وأن النساء لا يمكن معاملتهن كاستثناء. وفقاً لبعض التخيلات الهذيانية، قد يكون الموت على يدي زوجك أو خطيبك أو عشيقك، سواء كان ذلك بالبندقية أو بالسكين، برهاناً أفضل على الحب المتبادل من أي برهان آخر: هو يقتل وهي تموت. في التجاويف المظلمة من العقل البشري، كل هذا ممكن في الواقع.

ما الذي يمكن فعله؟ قد يعرف الآخرون أفضل مما نعرف، لكنهم قد لا يقولون ذلك. بما أن المجتمع الهش الذي نعيش فيه سيروع بإدخال إجراءات لإنزال النفي الاجتماعي الدائم من أجل هذا النوع من الجريمة، فينبغي في الحد الأدنى زيادة فترات السجن إلى الحد الأقصى، بدون أية إمكانية لتخفيف الحكم بسبب السلوك الحسن.

السلوك الحسن؟ أرجوكم لا تضحكوني!

17 شباط: موت عند بابنا الأمامي

كما شاء الحظ، كان باب البيت الواقع على لا نزاروتي في طريقه لأن يصبح المدخل إلى بيتهما الجديد. لم يكونا يبعدان سوى عشرين ياردة عن الشاطئ، في كوستا تغويزي. عند الإطلاع، لاشك في أنهما

تبادلا الابتسامات السعيدة وكلمات الابتهاج لكونهما قد وصلا أخيراً إلى ملاذ آمن، عندما قلب مركبهما شجار مفاجئ . كانا قد اجتازا أكثر من خمسين ميلاً من الساحل الأفريقي وربما لقيا حتفهما على بعد عشرين ياردة من الخلاص. من بين أكثر من ثلاثين مهاجراً ـ شباناً ومراهقين في معظمهم ـ دفعتهم حاجتهم الماسة إلى تحدي مخاطر المحيط، غرق أربع وعشرون، بمن فيهم امرأة حامل وبضعة أطفال صغار. أنقذ ستة منهم، بفضل شجاعة اثنين من راكبي الأمواج وتضحيتهما بالنفس، إذ غطسا في الماء وأنقذاهم من موت مؤكد.

هذا هو وصف ما حدث هنا، بأبسط الكلمات التي يمكنني أن أجدها وأكثرها مباشرة. لا أعرف ماذا يمكنني أن أقول أكثر من ذلك. اليوم أفتقد الكلمات وأنا مغمور بالانفعال. إلى متى يمكن أن يستمر هذا الوضع؟

18 شباط: ما العمل بشأن الطليان؟

أعترف بأن هذا السؤال يمكن أن يكون مغيظاً نوعاً ما للبعض. ماذا يعني ذلك؟ إنه ببساطة دعوة إلى كل السكان، وتوسل إليهم أن يعبروا عن استعمال صوتهم، في كل فرصة متاحة، لتتويج الحزب اليميني الفاضح بشكل متزايد الذي يرأسه برلوسكوني، الذي منح سلطات اللورد والسيد المطلق على إيطاليا وملايين الطليان. الحقيقة أيضاً هي، كما أشرت قبل الآن، أن الطرف الأكثر اغتياظاً في كل ذلك هو أنا. نعم، بشكل خاص أنا. فحبي لإيطاليا يُغاظ، بالتوازي مع حبي للثقافة الإيطالية والتاريخ الإيطالي. حتى أملي العنيد في أن الكابوس سينتهي بشكل ما، وستعود إيطاليا إلى الروح المجدة التي ألهمها فيردي Verdi، الذي كان، في عصره أفضل تجلياتها، هذا الأمل يُهان.

ولأولئك الذين ينوون اتهامي بخلط الموسيقى والسياسة بشكل لا مبرر له، أقول إن كل إيطالي مثقف ونزيه يفهم ليس فقط أنني على صواب، بل يفهم أيضاً المبررات لكوني على صواب.

وصلنا للتو خبر صرف والتر فنتروني هنا. إنه خبر سار بالفعل، نظراً إلى أن حزبه الديمقراطي بدأ كشكل كاريكاتوري لحزب وانتهى كثقل ميت على المشهد السياسي، إذ يفتقر إلى بيان أو برنامج. تقوضت الآمال التي علقناها عليه بفعل غموضه الأيديولوجي وضعف شخصيته. إن فنتروني مسؤول بشكل رئيسي، وإن ليس بشكل وحيد، عن إضعاف البديل اليساري الذي ادعاه ليكون المنقذ. عسى أن يرتاح بسلام.

مع ذلك لم يخسر كل شيء. أو هكذا أخبرنا الكاتب أندريا كاميليري والفيلسوف باولو فلوريس داركايس في مقالة نشرت مؤخراً في صحيفة إلبايس. ثمة عمل يجب القيام به، جنباً إلى جنب مع ملايين الطليان الذين نفد صبرهم من رؤية بلدهم يتعرض يومياً للسخرية العلنية. فالحزب الصغير بزعامة أنتونيو دي بييترو، القاضي السابق في حملة الأيدي النظيفة[2]، يمكن أن يحول الوضع المقين لإيطاليا اليوم إلى تنفيس جماعي واع جاهز لأن يجير إلى عمل أهلي لأجل تحسين المجتمع الإيطالي. لقد حان الوقت. دعونا نأمل أن يكون ذلك حقاً.

19 شباط: سوسي

لو استطعت لأغلقت كل حدائق الحيوانات في العالم. لو استطعت، لحظرت أيضاً استخدام حيوانات السيرك. ليس باستطاعتي أن أكون الشخص الوحيد الذي يفكر كما أفكر، لكنني كنت سأخاطر طوعاً

---

[2] ذات منطلق مضاد للمافيا.

بالاحتجاجات، وغضب الغالبية التي لا تزال تستمتع برؤية الحيوانات خلف القضبان أو في الأقفاص حيث لا يمكنها التحرك وفقاً لطبيعتها. هذا شبيه بما يحدث في حدائق الحيوانات. والأكثر إثارة للحزن حتى من هذا النوع من الحدائق هي مشاهد السيرك التي تفيد في تحويل الحيوانات إلى موضوعات للسخرية، مع كلاب صغيرة مثيرة للشفقة تم إلباسها التنانير؛ والفقمات التي تجبر على التصفيق بزعانفها؛ والأحصنة ترتدي الريش في سروجها، والسعادين تركب الدراجات، والأسود تنط من خلال الحلقات؛ والبغال تدرب على مطاردة الأقزام الذين يرتدون الملابس السوداء، والفيلة تجبر على التوازن بشكل متقلقل على كرات معدنية «كم يبدو ذلك كله مضحكاً، والأولاد يعبدونه»، يقول أهلهم الذين ينبغي عليهم لكي يكملوا تربية أولادهم أيضاً أن يجلبوهم إلى جلسات التدريب (أو التعذيب) ليشهدوا المحن التي تنزل على هذه الحيوانات المسكينة، الضحايا العاجزة للوحشية البشرية.

اعتاد الآباء أيضاً أن يقولوا إن الزيارات إلى حديقة الحيوانات هي تعليمية بالقدر نفسه. ربما كانت كذلك في الماضي، بغض النظر عن مدى شكي في ذلك. لكنها من الصعب أن تكون كذلك اليوم، بفضل الأفلام الوثائقية الكثيرة حول حياة الحيوانات وعاداتها المتوفرة بشكل مستمر على التلفزيون. فإذا كانت التربية هي ما هي عليه، فدعهم يتربون بشكل أفضل بهذه الطريقة.

سلني عن المبرر لما ورد أعلاه وسأخبرك فوراً. في حديقة حيوانات برشلونة ثمة فيلة وحيدة، تحتضر بشكل مؤلم من علل مختلفة، وعلى رأسها الالتهابات المعوية، التي تهاجم عاجلاً أم آجلاً الحيوانات المحرومة من حريتها. فليس من الصعب تخيل الألم العاطفي الإضافي الذي تعاني منه، وهو يشتد بفعل الموت الحديث لشقيقتها، التي

تقاسمت مع سوسي (لأن هذا هو الاسم الذي أطلق على هذه الناحية الحزينة والوحيدة) فضاءً، مساحة محدودة بشكل بائس. الأرضية التي تسير عليها سوسي مصنوعة من الخرسانة، وهي في المطلق أسوأ مادة للأقدام الحساسة لهذه المخلوقات، التي ربما تحتفظ بذكرى أثرية عن أرض السافاناه الأفريقية. إنني أدرك تماماً أن العالم يمر بمشاكل تستدعي القلق أكثر حدة بكثير من رفاه فيلة.

لكن السمعة الحسنة التي تتمتع بها برشلونة تترتب عليها بعض الالتزامات، وسواء كان توكيدي يبدو مجرد غرابة أطوار شخصية، فأنا أقول إن هذا يصادف أن يكون واحداً منها، وإن العناية اللائقة بسوسي تتضمن منحها نهاية أكثر كرامة للحياة بدلاً من البحث عن ملاذ في مثل هذا الفضاء المحصور بشكل مكرب، أو الدوس على أرضية خرسانية هي جحيم شديد بالنسبة لها. إلى من ينبغي أن أتكلم؟ إلى مدير حديقة حيوانات برشلونة؟ إلى قاعة اجتماعات المدينة؟ أم إلى بلدية كاتالونيا؟

20 شباط: باكو

ايباريز، بالطبع، ومن غيره؟ يمكنني أن أميز صوته في أي مكان أو زمان يصل فيه إلى مسامعي. لقد عرفت صوته لأول مرة في بداية السبعينات، عندما أرسل لي أحد الأصدقاء أحد تسجيلاته في باريس، وهي قطعة من الفينيل قديمة الآن جعلتها سنوات التحسين التكنولوجي منذ زمن طويل خارج الموضة، لكنني احتفظ بها ككنز لا يقدر بثمن. أنا لا أبالغ. ففي تلك الفترة من الاضطهاد السياسي في الوطن، البرتغال، بدا لي التسجيل مصنوعاً من السحر، أصواته شبه متعالية فوق الوجود،

جالبة لي الأمجاد الرنانة لأفضل الشعر الإسباني، وذاك الصوت البشري (صوت باكو الذي لا يُخطأ) كان ناقله المثالي، للأخوة البشرية الأكثر عمقاً. اليوم، عندما كنت أعمل في مكتبي، وضعت بيلار آخر تسجيل له عن الشعراء الأندلسيين. أوقفت ما كنت أكتبه وأسلمت نفسي إلى ملذات اللحظة ومتع ذكرى لحظة الاكتشاف الأولى تلك عندما سمعته لأول مرة. مع التقدم في السن (الذي لابد أنه يمتلك شيئاً ما ـ شيئاً جيداً لمرة واحدة ـ له علاقة به)، اكتسب صوت باكو صفة مخملية خاصة، قدرات تعبيرية جديدة، ودفأً يغمر قلبك. غداً، السبت، باكو ايبانييز سيغني في Amgéles sur Mer، على ساحل بروفانس، إحياء لذكرى الجمهوريين الإسبان، ومن بينهم أبوه، الذي عانى العذابات والإذلال والمعاملة السيئة من كل الأنواع، في أحد معسكرات الاعتقال التي بناها الفرنسيون لاحتجاز الجمهوريين اللاجئين. بالنسبة إليهم كانت La douce France بنفس مرارة ألد أعدائهم. لعل صوت باكو يخفف أصداء تلك المعاناة، لعله يكون قادراً على فتح مسارات الأخوة الحقيقية في أرواح الذين يسمعونه. إنه شيء نحتاجه كلنا حقاً.

22 شباط: رسالة إلى أنطونيو ماشادو

توفي أنطونيو ماشادو منذ سبعين عاماً في مثل هذا اليوم. إلى جانب مرقده في المقبرة الواقعة في كوليور يوجد صندوق رسائل يتلقى يومياً البريد المرسل إليه، الذي كتبه أناس مفعمون بحب لا يعرف التعب يرفض أن يتقبل أن يكون شاعر كامبوس دي كاستيلا Campes de Castilla ممكناً. إنهم على حق، لأن الأشخاص الأحياء مثله هم قلة. مع النص الوارد أدناه، الذي ألفته لأجل الذكرى السنوية الخمسين

لوفاة ماشادو، ولأجل المؤتمر العالمي الذي عقد في تورين، والذي نظمه بابلو لويس أفيلا وجيانكارلو دبريتيس، أخذت مكاني المتواضع في الطابور. رسالة أخرى إلى أنطونيو ماشادو. أذكر، بشكل واضح كما لو كان ذلك اليوم، أن رجلاً يدعى أنطونيو ماشادو. عندما كنت في الرابعة عشر من عمري وأذهب إلى المدرسة لأكتسب المهارات التي ستكون فيما بعد ذات فائدة ضئيلة لي. كانت إسبانيا في حالة حرب. كان المقاتلون على أحد الطرفين يسمون الحمر، أما المقاتلون على الطرف الآخر، وفقاً للسماحة التي كانت علامتهم المميزة، فقد اختاروا لوناً هو لون السماء عندما يكون الطقس جيداً. لذلك أحب دكتاتور بلدي هذا الجيش الأزرق بحيث أنه أمر الصحف بنشر تقارير مصاغة بمثل هذه المصطلحات لإقناع السذج بأن كل كفاح ينتهي بانتصار أصدقائه. كانت لدي خارطة نصبت عليها أعلاماً صغيرة من الورق الصقيل المثبتة بدبابيس. ذاك كان الخط الأمامي. لقد أثبت هذا أنني كنت أعرف أنطونيو ماشادو بدون حتى الحاجة لقراءته، وهو شيء يتعين علينا أن نغفره، نظراً إلى صغر سني المفرط في ذاك الوقت. ذات يوم، عندما ظننت أنني قد اكتشفت من قبل ضباط القوات المسلحة البرتغالية المسؤلين عن الرقابة على الصحافة، رميت الخارطة مع الأعلام الصغيرة المثبتة عليها. لقد سمحت لنفسي بدون تفكير بأن يقودني ضرب من التهور، نفاد صبر شبابي، لم يفعل أنطونيو ماشادو ما يستحقه وهو ما أندم عليه اليوم. وهكذا مرت السنون. وفي أية لحظة لا أذكر، لكن في لحظة علمت أن هذا الرجل كان شاعراً، وشعرت بالإثارة بفعل ذلك بحيث أنني، بدون أي أمل بثواب مستقبلي مفعم بالغرور، شرعت في قراءة كل شيء كان قد كتبه. في تلك اللحظة بالذات، علمت أيضاً أنه قد توفي، لذلك فقد ذهبت بشكل طبيعي لأنصب علماً في كوليور. إذا كنت صائباً، فقد حان

الوقت لنا لكي ننصب هذا العلم في قلب إسبانيا. على كل، يمكننا أن نترك عظامه بالذات في مكانها.

24 شباط: اليسار

نحن على حق، وكوننا على حق يساعد الذين ينوون بناء عالم أفضل قبل أن يتأخر الوقت كثيراً. مع ذلك، إما أننا لا نعرف كيف نوصل إلى الآخرين فحوى أفكارنا، أو أننا نواجه جداراً من الشك، أو من التصورات المسبقة الأيديولوجية أو الأحكام المسبقة الاجتماعية أو الطبقية بحيث ينتهي، إذا لم ينجح في إيقافنا كلياً - في سيناريو أسوأ الأحوال - بأن يثير لدى الكثيرين منا كل أنواع الشكوك والوساوس، التي يمكن أن تبرهن بحد ذاتها على كونها مشكلة. إذا نجح العالم ذات يوم في أن يصبح مكاناً أفضل، فأنا أعرف أن ذلك لن يحدث إلا من خلال أفعالنا. دعونا نصبح أكثر وعياً وفخراً بدورنا في التاريخ، لأن ثمة حالات يكون فيها التواضع هو أسوأ نصيحة لنا. دعونا نسمع ونحن نقول كلمة يسار جهاراً وبصوت عال. دعوا الآخرين يسمعون ويلاحظون.

كتبت هذه التأملات من أجل منشور انتخابي من أجل اليسار الموحد في يوزكادي[3] Euzkadi، لكنني كتبتها فيما كنت أفكر أيضاً باليسار في بلدي، باليسار عموماً. رغم ما يمر به العالم، يستمر اليسار في عدم رفع رأسه. كما لو أنه لا يملك الحق في ذلك.

---

[3] إقليم الباسك.

25 شباط: أشكال العدالة

في 25 تموز، 2005، قتل مواطن برازيلي، اسمه جان تشارلز دي مينيزسي، مهنته كهربائي، في محطة السكك الحديدية في لندن على أيدي ضباط بوليس العاصمة، الذين ظنوه ـ أو هكذا يقولون ـ إرهابياً. فقد دخل إلى مقصورة القطار، وجلس بهدوء، ويبدو أنه حتى امتلك الوقت ليفتح الجريدة المجانية التي التقطها في المحطة، عندما اقتحم رجال البوليس وسحبه على المنصة[4]. ثم بطحوه أرضاً وأطلقوا النار عليه عشر مرات، فأصابوه بسبع طلقات في الرأس. منذ اليوم الأول، لم تفعل سكوتلنديارد شيئاً سوى وضع العراقيل أمام التحقيق الدقيق ـ لم تجر أية محاكمة. لم يشمل الإدعاء البوليس ومنع القاضي المحلفين من رد حكم الإدانة. لذلك ستكونون مستعدين، إذا رأيتم ذات يوم شعراً مستعاراً أبيض يظهر أمامكم ـ تماماً كما في السينما ـ لأن تخبروا مرتدي اللباس بلطف ما هو رأي أناس شرفاء مثلكم بهذا الشكل من العدالة.

26 شباط: كلب الماء

عندما ظهر كاموئيس في هذه الأصقاع منذ حوالي أربعة عشر عاماً، بالمعطف الأسود وربطة العنق البيضاء اللذان يميزانه عن كل الأمثلة الأخرى من النوع الكلبي، أعلن كل أفراد الصنف البشري في المنزل عن السلالة المفترضة للقادم الجديد: إنه بودل. كنت وحدي في الإلحاح على أنه ليس بودلاً فرنسياً بل كلب ماء برتغالي. بما أنني لست خبير كلاب على وجه

[4] جان ـ شارك منزاس ألقي به على أرض عربة القطار وأطلقت عليه سبع طلقات من مدى قاتل. كل الشهود والحاضرين على القطار المكتظ ألحوا في إفادتهم على أنه لم يصدر أي تحذير من البوليس قبل أن يطلق عليه ضباط البوليس السري الرصاص ويردوه قتيلاً.

الخصوص سيكون مفاجئاً بالكاد لو أخطأت في ذلك، لكن عندما صرح الباقون أنه بودل، بقيت ثابتاً في قناعاتي. مع مرور الزمن، كفت المسألة عن أن تكون ذات أهمية: بودل أم كلب ماء، رفيق سابق لبيبي وغريتا (اللذان صعدا إلى سماء الكلاب)، فقد أصبح مجرد كاموئيس. الكلاب تعيش زمناً أقصر مما ينبغي لمقدار الحب الذي تمنحه لنا، وكاموئيس هذا المخزون الأخير من الحب الذي جاد به على الثلاثة جميعاً، قد عاش قبلاً لمدة أربعة عشر عاماً، وبدأت علل الشيخوخة تضايقه. لا شيء خطير أكثر مما ينبغي، كما يحدث، لكن البارحة وجه لنا صدمة: كان كاموئيس يعاني من حمى، كان كئيباً، وجثم في الزوايا، ومن حين إلى آخر كان يطلق نداءً غريباً، مرتفعاً. الأغرب من ذلك كله هو أنه، رغم كونه يبدو فاقداً لكل قواه، فقد نزل إلى طرف الحديقة وبدأ ينبش في التراب، حافراً حفرة، كانت في مخيلة بيلار العرض الأكثر شؤماً على الإطلاق. لحسن الخط، أن الطور السيئ قد انقضى، على الأقل في حينه. لم يستطع الطبيب البيطري أن يجد أي شيء خاطئ بشكل خطير، وكاموئيس، كما لو أنه يسترضينا، استعاد رشاقته وشهيته، ومزاجه الطيب المميز له، والآن يتجول مبتهجاً كزهرة مع صديقته بولي، التي تقضي قدراً لا بأس به من الوقت في بيتنا.

بالصدفة، كان هذا اليوم أن جاء الخبر الذي مفاده أن الكلب الذي وعد به أوباما بناته هو مجرد كلب ماء برتغالي آخر كهذا. لاشك في أن هذا سيكون انتصاراً دبلوماسياً كبيراً للبرتغال، يفترض ببلدنا أن تستمد منه أكبر منفعة من حيث علاقاتنا الثنائية مع الولايات المتحدة، التي يسهلها بشكل استثنائي أحد ممثلينا المباشرين بشكل أوضح - كنت حتى أغرى بالقول سفيرنا - إلى البيت الأبيض. إن عصراً جديداً في طريقه إلينا. أنا واثق بشكل مطلق، الآن، لو عدت أنا وبيلار إلى الولايات المتحدة، من أن بوليس الحدود لن يعود يحتجز حواسيبنا لكي يأخذ نسخاً عن سواقات الأقراص الصلبة فيها.

آذار / مارس 2009

2 آذار: غونسالو م. تافاريس Goncalo M. Tavaros

من بين الجيل الجديد من الروائيين الرومانتيكيين البرتغاليين، أعني أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين حوالي ثلاثين وخمسين عاماً، لدينا غونسالو م. تافاريس، أحد أكثر الكتاب تميزاً وأصالة. إنه مؤلف لمجموعة واسعة بشكل مؤثر من الأعمال، هي في معظمها حصيلة جهد طويل ومدقق في أدق التفاصيل أنجز بعيداً عن نظر العالم، فهو مؤلف كتاب السيد فاليري *O Senhor Valery*، وهو كتاب صغير مكث شهوراً كثيرة على طاولة قرب سريري، برز فجأة على المشهد الأدبي البرتغالي مسلحاً بمخيلة فريدة كلياً تقطع كل صلة مع ما كان رائجاً في النثر الخيالي. إضافة إلى ذلك، فهو أستاذ في استعمال خاص جداً للغة، لغة عامية يستخدمها بهذه الطريقة بحيث يكون من غير المبالغة أن نقول إنه أصبح المرجع ـ بدون أي أثر للسخرية من الروائيين الشباب الممتازين الذين نستمتع بمواهبهم في هذه الأيام ـ وثمة الآن ما قبل غونسالو وما بعد غونسالو في كتابة النثر. أعتبر هذا أعظم مديح يمكنني أن أقدمه له. لقد تنبأت بأنه سينال جائزة نوبل في خلال ثلاثين عاماً من الآن أو حتى قبل ذلك، وأعتقد أنني سأثبت أنني على حق.

أما أسفي فهو لأنني لن أكون إلى جانبه لأقدم له عناق التهنئة عندما يحدث ذلك.

3 آذار: الانتخابـات

كما يحدث دائماً، ربح البعض وخسر البعض الآخر. هذه الحمـلات الانتخابية رتيبة للغاية ومكررة و ـ ربما هو ذنبها الأكبر ـ يمكـن التنبـؤ بنتائجها تماماً. إنه الشـيء نفسـه هنـا كمـا في أي مكـان آخـر. عنـدما أحصيت الأصوات، ضحك البعض في حـين بكـى الآخـرون. المنتصـرون كرماء، يحيون المدنيين على كافة الجهات، بمن فيهم المهزومين، وهذا رغم نقص الإراقة، التي يسببها ألم الخسارة، من طـرف الأخيريـن. إن الرابحين لا يقدمون الشكر لله، لأن فعل ذلك بات عادة قديمـة في هـذه الأيام، مع أنهم سيقبلون يد أسقف عند أول فرصة.

4 آذار: الملاحظة والاستعادة[1]

إذا كنت تستطيع أن تبصر، فانظر.

إذا كنت تستطيع أن تنظر، فلاحظ.

هكذا كتبت في رواية *العمى*[2] منذ سنوات. اليوم، في إسبانيا، لدى إطلاق الفيلم المأخوذ عن روايتي، وجدت هذين البيتين علـى الحقائـب الـتي تقـدمها مكتبـة Ocho Y Medio، ومـرة أخـرى علـى القمـيص الغباري لكتاب فرناندو ميريـل[3] بعنـوان Diario de Rodaje، الـذي

---

[1] في البرتغالية المصدر reparar يعني يصلح / يستعيد / يعوض / يعترف / يلاحـظ / يرصـد / ينتقد [ملاحظة المترجم ـ وكابوس المترجم].

[2] في العبارة الافتتاحية.

[3] مذكرات الدراجة لتشي غيفارا، موضوع فيلم من إخراج ميرلـز Meirelles . مكتبـة السينما ودار النشر تسمى ($8\frac{1}{2}$) تيمناً بعنوان فيلم فيلليني الأصلي.

أصدرته نفس المكتبة ـ الناشرة في طبعة جديدة جميلة. اعتدت في بعض الأحيان أن أقول، «اقرؤوا العبارات المقتبسة في رواياتي فتعرفون البقية». وأنا أنظر إلى هذا اليوم، لا أعرف السبب، امتلكت تبصراً مفاجئاً لضرورة استعادة البصر ومصارعة العمى. هل يمكن ذلك لأنني رأيت هذه الكلمات مكتوبة على كتاب ليست مكتوبة فيه؟ أم لأنه في عالم اليوم أصبح من الضروري محاربة الظلال؟ لا أعرف. لكن إذا كنت تستطيع أن تبصر، فلاحظ.

5 آذار: الاستعادة والملاحظة مرة أخرى

البارحة، في سياق نقاش مع لويس فاسكويز Luis Vasquez. وهو صديق عزيز على نحو خاص وهو الشافي لمختلف عللي، ناقشنا فيلم فرناندو ميريل، الذي يعرض الآن في مدريد والذي لم نتمكن، أنا وبيلار، من حضوره، كما كنا ننوي، بسبب زكام مفاجئ ألزمني بالتراجع إلى الفراش، أو إلى التقاعد بين الشرشفين، كما اعتادوا أن يقولوا بتكلف في الأزمنة غير البعيدة.

بدأ حديثنا بتأمل رد فعل الجمهور الإيجابي جداً على إعداد الرواية للسينما، وفقاً للويس ومعلقين ثقاة آخرين، أثبتت انطباعاتهم، المنقولة إلينا، أنها تستحق الإيمان الذي محضناها إياه. بعد ذلك، بدأنا بشكل طبيعي بمناقشة الكتاب نفسه، وطلب لويس أن نتمعن في العبارة المقتبسة على الصفحة المواجهة لصفحة العنوان «إذا كنت تبصر، فانظر / إذا كنت تنظر، فلاحظ»، بما أن فعل النظر، برأيه، هو سابق لفعل الإبصار، والأمر الأول كان من الممكن حذفه بدون الإضرار بمعنى العبارة المقتبسة ككل. لم أستطع أن أتجنب التسليم بصحة رأيه، لكنني كنت

أعرف أنني كنت أمتلك مبررات أخرى في ذهني، على سبيل المثال عملية الرؤية كما تمر عبر ثلاثة أزمنة، متتالية مع أنها مستقلة بشكل ما، يمكن التعبير عنها كما يلي: من الممكن الرؤية بدون النظر إلى أي شيء؛ ومن الممكن النظر بدون ملاحظة، تبعاً لدرجة الانتباه التي نمنحها لكل مرحلة من مراحل العملية. إننا جميعاً على إطلاع على الطريقة التي ينظر بها شخص إلى ساعته ثم، إذا سأله شخص آخر عن الوقت بعد ذلك بما لا يزيد عن ثانية، فإن عليه الرجوع إليها مرة أخرى. كان هذا عندما اشتعلت بصلة المصباح في ذهني، بخصوص الأصل الأول لهذه العبارة المقتبسة المشهورة. فعندما كنت طفلاً، كانت كلمتا ملاحظة (أو استعادة، كما في البصر) كانتا تعنيان القليل لي، بافتراض أنني حتى كنت على معرفة بهما. ولم تصبحا موضوعاً للاهتمام الطاغي إلا يوم لفت انتباهي أحد أعمامي (أظن أنه كان فرانسيسكو دينيس، الذي كتبت عنه في روايتي Pequentas Memorias[4]) إلى الطريقة الخاصة التي تتبعها الثيران بشكل شبه دائم، هكذا فهمت، في رفع رؤوسها إلى الأعلى. اعتاد عمي أن يخبرني، «إنه يراك، وعندما يكون قد رآك، ينظر إليك، وهذه المرة ثمة شيء مختلف في ذلك: إنه يلاحظك». تلك كانت القصة التي سردتها للويس، الذي سلّم بالحجة على الفور، ليس كثيراً ـ كما أظن، لأنني كنت قد نجحت حقاً في إقناعه، بل لأن ذاكرته قد نبهت إلى استذكار وضع مماثل. كان ثمة ثور آخر كهذا، نظر إليه بالطريقة نفسها، ذو الميل المرفوع نفسه للرأس، ونظرة لم تكن مجرد رؤية، بل ملاحظة أيضاً. أخيراً كنا متفقين.

---

[4] ذكريات صغيرة، ترجمة مارغريت وجول كوستا (هارفيل سيكر، 2009).

9 آذار: الثامن من آذار

على أخبار التلفزيون هذه الليلة، شاهدت تظاهرات قامت بها النساء عبر العالم، وأنا أسأل نفسي مرة أخرى أي نوع من العالم الشرير الذي نسكنه، يتعين فيه على نصف السكان أن يخرج إلى الشوارع لكي يطالب بحق ينبغي بشكل واضح أن يعود إلى كل شخص.

وصلتني معلومات رسمية عن مؤسسات جادة تعترف بأن مستخدميها من النساء يتقاضين 16 بالمائة مقابل القيام بنفس العمل تماماً الذي يقوم به الرجال، ومما لاشك فيه أن هذه الإحصائية قد تم تزييفها لتجنب عار مميز لا يزال أعلى. فهم يقولون إن السياسات الإدارية تعمل بشكل أفضل دوماً عندما تصوغها النساء، لكن هيئات الشركات لا تجرؤ على أن توصي بأن يكون 40 بالمائة، أو الأرجح 50 بالمائة، من أعضائها نساء، بحيث أنه عندما يصل الانهيار القادم، كما حصل في آيسلندا، فإن هؤلاء النساء يمكن استدعاؤهن لكي يتولين تسيير المصارف والبلد. يقولون أكثر من ذلك، إن ليما، لكي تتجنب الفساد في منظومة النقل، سوف تستخدم حراساً من النساء، نظرا إلى أن هذه التجربة تظهر أنهن لا يقبلن المكافأة، أولا يرتشين. نحن نعرف أن المجتمع لا يمكن أن يؤدي وظائفه بدون عمل النساء، وأنه بدون محاورة النساء، كما كتبت منذ برهة، فإن الكوكب سيخرج عن مداره، ولن يتمتع البيت ولا من يسكنونه بنفس المستوى من الحياة بدونهن، مهما كثر تجاهل الرجال لما تفعله النساء، أو بالرغم من الملاحظة لا تزال تفشل في أن تأخذ علماً بما يعنيه أن يكون نصف زوجين - حتى رغم أن النصف الذكري لم يعد يفيد كنموذج للدور.

أستمر في مراقبة النساء المتظاهرات في الشارع. إنهن يعرفن ما يردن،

وهو ألا يكن مهانات أو مخضعات، أو محتقرات أو يقتلن في النهاية. إنهن يردن أن يقدرن بشكل لائق في حياتهن أثناء العمل، أن يقدرن من أجل عملهن، وليس من أجل إساءة المعاملة اليومية التي يتحملنها.

يقال لي إن أقوى شخصياتي هي النساء، وأنا أصدق ذلك. في بعض الأحيان أعتبر النساء اللواتي وصفتهن كقدوات أود أنا نفسي أن أقتدي بهن. في بعض الأحيان يكن أكثر من قدوات في بعض الأحيان لا يوجدن فعلاً، لكنني متيقن من شيء واحد. مع نساء مثل هؤلاء، لن يكون علينا أن نصاب بمثل هذه الفوضى في العالم، لأنهن سيتذكرن دوماً ماذا يعني أن تكون إنساناً.

10 آذار دورو ـ دويرو Douro – Duero

منذ أكثر من ثلاثين عاماً، عندما كنت لا أزل كاتباً شاباً جريئاً مفعماً بالآمال، على حافة دخول عقدي السادس، قمت بجولة إلى أراضي ميراندو دو دورو، نقطة الانطلاق إلى المغامرة التي لا تنسى والتي ستشكل الوصف المتقن لكتابي *رحلة إلى البرتغال Journey to Portugal*[5].
هذا العنوان لم يكن صدفة. كان المقصود منه أن يجعل القارئ يفهم، من الصفحة الأولى فصاعداً، أن ثيمة الكتاب هي رحلة إلى مكان ما، في هذه الحالة، إلى البرتغال. لتعزيز معناي المقصود، تركت بلدي الأصلي عن طريق مونساو Moncao وأمضيت أسبوعاً أرتحل عبر غاليسيا وليون إلى أن اتجهت، وقد خلا بصري نهائياً من صورة أكثر ألفة، إلى لقائي مع مسقط رأسي. أتذكر التوقف في منتصف الجسر بين ضفتي النهر ـ على أحد الجانبين الدورو، وعلى الجانب الآخر الدويرو ـ وأحاول

---

(5) Gp cit section 1,p.5 H.

عبثاً، أو أتظاهر بأنني أحاول، أن أجد خط الحدود الدقيق الذي يبدو أنه يقسم بلدينا في حين أنه في الحقيقة يوحدهما. صدمني عندئذ أن الطريقة الجيدة لفتح كتابي هي البدء بقبسة من **موعظة القديس أنطوني إلى الأسماك** *Saint Anthony's Sermon to the Fishes* الشهيرة، من تأليف الأب أنطونيو فيئيرا Antonio Vieira، الذي يخاطب السمكات التي تسبح في مياه الدورو، سائلاً إياه عن الجهة التي تظن نفسها أنها تقع عليها، معبراً بذلك (بطريقة واضحة مع ذلك) عن الحلم البريء بالصداقة، والرفقة والتعاون المشترك بين إسبانيا والبرتغال.

لم أقع كلياً في فخ التقدم باقتراح طوباوي كهذا في القسم نفسه من النهر، المحاط بنفس الماء الذي لا يمكن تقسيمه، اجتمع ممثلو 175 مشتركاً نهرياً، من الضفتين لمناقشة إبداع مشروع مشترك قادر على تنسيق برامج التطوير واقتراح الخطط القابلة للحياة من أجل المستقبل. ربما لم يسمع أحد الحاضرين ترجمتي لموعظة الأب أنطونيو فيئيرا، لكن روح المكان نادتهم عبر ثلاثين عاماً وجاؤوا. فمرحباً بهم فرادى وجماعات.

11 آذار: الفطرة السليمة

نقلت كل وسائل الإعلام العالمية الخبر: أوباما يعلن نهاية الحواجز الأيديولوجية أمام تقدم الأبحاث في الأمراض الكثيرة وهو ما يعني استشهادا حقيقيا لأجل الكائنات البشرية الفردية.

تسلط بعض التقارير الضوء على قرار الرئيس أوباما باستناد القرارات العلمية على العلم، على تقارير خبراء ذوي مصداقية وخبرة بدلاً من أن

يكـون ذلـك وفقـاً لصـلاتهم السياسـية والأيديولوجيـة. بهـذه الكلمـات تقريبـاً، يقـول أوبامـا إن كـبح أو تبـديل الاكتشـافات العلميـة أو الاستنتاجات أو تشجيع التقانات القائمة علـى أفكـار أو معتقـدات هـو خطيئـة ضـد النزاهـة. بالنسـبة للآخـرين، مـع ذلـك، فـإن الخطيئـة الأخلاقية الحقيقية هـي تقصـي الخلايـا الجذعيـة، وهـي السـبب في أن جريد الفاتيكان اليومية L' osserratore Romano، سـعت إلى تـذكيرنا جميعاً بأن الكرامة البشرية ينبغـي ضـمانها في كـل مرحلـة مـن الوجـود البشري، مهما كان يعـني ذلـك، في حـين علـق الأسـاقفة في الولايـات المتحدة بأن هذا انتصار محزن للسياسة على العلم والأخلاق، وهو شـيء بعيد عن المعنى، بمـا أنـه يتلاعـب بكـل أنـواع المـتغيرات، بمـا فيهـا متغيرات العقيدة والإيمان والطقوس السرية، كلـها أكثـر ممـا ينبغـي في هذه الساعة المتأخرة.

لـذلك، في حـين أننـا في مملكـة الـدين، ينبغـي أن أعـترف بـأن مـا استمتعت بقراءته اليوم كان وصفاً لأعراض السعادة من طرف جماعات مـن الناس المصابين بأمراض من قبيل مـرض الزهـايمر أو مـرض باركينسـون أو مرض السكري. يا له من يوم عظيم لهم، من يوم عظيم للفطرة السليمة.

12 آذار: تقبيل الأسماء

عنـدما دشـنت الأرجنـتين النصـب التـذكاري لضـحايا الدكتاتوريـة العسكرية، أطلعتنا النساء اللواتي كن دليلاتنا على أسمائهم ـ يمكن للمرء تقريباً أن يقول بالاعتزاز الـتي تشـير بـه الأمهـات عـادة إلى أبنـائهن ـ

«انظروا هنا، هذا هو اسم ابني، هناك اسم خوان غلمان[6]، هذا الاسم هو اسم ابن أخي..». كانت مجرد أسماء منقوشة في الحجر، أسماء قُبلت آلاف المرات وأنا، أيضاً، قبلتها، كما قبل الناس في مدريد أسماء ضحايا أسوأ الفظاعات التي ارتكبت في أوروبة المعاصرة وفي 11 آذار، منذ خمس سنوات من الآن، وهو يوم من الصعب أن ننساه، بما أن الرعب قد نفذ عميقاً للغاية، إلى القلب، في المجتمع الإسباني. بالتأكيد إننا نفعل هذا لكي نضمن ألا ننسى أبداً أسباب ذاك الهجوم و، مرة وإلى الأبد، الطريقة المستخدمة: الرعب، وسيلتهم الوحيدة للمجادلة، اللعنة عليهم.

اليوم، يمكن للمرء أن يرى الأمهات يتعانقن، والضحايا ينظرون إلى بعضهم البعض، ربما يتمنون ألا يروا الآخرين هناك فعلاً بل أن يروا بعض الذين اختفوا. تذكرت أنني منذ برهة سمعت بالجمال الجارح لهذه الصورة. سألتني بيلار أن أستعيد الذكرى، بعناقات من أجل الضحايا وقبلتي على الأسماء المنقوشة أيضاً في ذاكرتي.

في إسبانيا، يصرف الفعل (تضامن) (solidarizarse) يومياً في ثلاثة أزمنة: الحاضر والماضي والمستقبل. إن ذكرى التضامن الماضي تعزز التضامن الذي يتطلبه الحاضر، وكلاهما يمهدان الطريق من أجل التضامن المستقبلي ليعود ويظهر بكامل مجده. لم يكن يوم 11 آذار يوم ألم ودموع فقط بل كان أيضاً يوماً لامست فيه روح الشعب الإسباني السمو بوقار أثر بعمق وتلامسني حتى الآن كلما تذكرتها. الجمال لا ينتمي إلى فئة ما ندعوه الجمالي فحسب، بل يمكن إيجاده بالقدر نفسه في المشاريع الأخلاقية. هذا هو السبب في أننا قلنا إنه يندر، في أي مكان من العالم، أن جرحت مأساة وقار شعب وهب مثل هذا الجمال.

---

[6] شاعر أرجنتيني شاب، غادر إلى المنفى عندما استلم الجنرال فيديلا السلطة في عام 1976.

13 آذار: الديمقراطية من تاكسي

انتهى للتو رجل الدولة الإيطالي البارز الذي يحمل اسم سيلفيو برلوسكوني، ويعرف أيضاً بلقب الفارس، من التفكير ملياً في دماغه الممتاز بشكل حساس وتقليب فكرة تضعه بشكل حاسم على رأس زمرة من المفكرين السياسيين العظام. ما يريده هو أن يتفادى السجالات البرلمانية الطويلة والرتيبة والمستهلكة للوقت وأن يسهل الإجراءات في كل من مجلس الشيوخ ومجلس النواب، بما أن قادة البرلمان قد انتحلوا الآن سلطات الأعضاء، مطيحين بضربة واحدة بالثقل الميت للمئات العديدة مع ذلك من النواب والشيوخ، الذين لا يفتحون أفواههم فعلياً في معظم الحالات أثناء تمرير تشريع إلا ليتثاءبوا. علي أن أعترف أن هذا رائع بالنسبة لي. إذ يجتمع نواب الأحزاب السياسية، أو دعونا نقول ثلاثة أو أربعة منهم، في تاكسي على الطريق إلى مطعم، حيث يتخذون القرارات ذات الصلة وهم يجلسون متحلقين حول طاولة مثقلة جيداً بالمأكولات. وفي أثرهم يصل مندوبو الأحزاب الأصغر حجماً، متنقلين على دراجات، فيباشرون الأكل في الخارج على الشرفة، أو في ملهى مجاني في الجوار القريب. لا شيء أكثر ديمقراطية بشكل متأصل من ذلك. في الطريق يمكن حتى أن يبدؤوا مناقشة إزالة هذه الهياكل العقيمة والمتغطرسة والمدعية التي نسميها برلمانات ومجالس شيوخ (كونغرس)، فهي مصادر النقاش المتواصل والإنفاق الباهظ، غير المستحسن أبداً من قبل الشعب. وكما يعقب شكلا مصغرا شكل مصغر تال له، يمكنني إخباركم بذلك حالما نصل إلى حالة الإغريق القدماء. بالطبع، هذه المرة سنكون أيضاً قد تخلصنا من الإغريق. من الواضح أن هذا ليس بالفارس الذي يؤخذ على محل الجد. لا، لكن الخطر هو أننا سينتهي بنا المطاف إلى ألا نأخذ على محل الجد الشعب الذي انتخبه.

15 آذار: السيدة الرئيسة

هذه المدونة تقترب من نهاية عمل الأشهر الستة الأولى. وستليها مدونات وأعوام أخرى، إذا شاءت الأقدار. اليوم، الذي يصادف عيد ميلادها، موضوعي هو بيلار. لا يوجد شيء مفاجئ لأي شخص يرغب في أن يُذكر بكل ما حكيته وكتبته حولها على مدى حوالي ربع قرن قضيناه معاً. مع ذلك، هذه المرة، أريد أكثر من ذي قبل أن أقدم شهادة على ما تعنيه لي، ليس ببساطة لكونها المرأة التي أحب (لأن هذا يحتاج إلى الاعتراف به كما نعد حبات مسبحتنا الشخصية)، بل أيضاً من أجل ذكائها، قدرتها الإبداعية، حساسيتها، وكذلك قدرتها على التذكر. بفضلها، حققت حياة هذا الكاتب إمكانيتها في أن تكون شيئاً أكثر أهمية من حياة مؤلف ناجح بشكل معقول، حياة من السمو الإنساني المتواصل. كانت تفتقر إلى شيء واحد فقط، حتى رغم أن هذا الافتقار كان من غير الممكن تخيله بالنسبة لي: تصور وإبداع شيء يتجاوز دائرة نشاطاتي المهنية أو يمكن أن يقدم نفسه كاستمرار طبيعي لها. تلك كانت الكيفية التي ولدت بها مؤسستنا، التي تُعزى بالكامل إلى مجهود بيلار، ومستقبلها سيكون من غير الممكن تصوره، برأيي، بدون حضورها، وأعمالها وعبقريتها الخاصة. إنني أترك مصير هذا العمل الذي أبدعته هي، وتقدمه وتطوره، بين يديها. لا أحد يمكن أن يكون أجدر منها بهذه المهمة. هذه المؤسسة هي مرآة يمكننا أن نرى أنفسنا فيها، لكن اليد التي ترفع المرآة، اليد الصلبة التي ترفعها ثابتة، هي يد بيلار. إنني أثق بها بطريقة لم يكن بإمكاني أن أثق بها بأحد آخر. وأنا أجد نفسي شبه مدفوع إلى القول: هذه وصيتي وهذا عهدي. دعونا ألا نكون خائفين، مع ذلك، أنا لست على وشك الموت، فالسيدة

الرئيسة لن تسمح بذلك. لقد نجوت من الموت مرة بفضلها، والآن إن حياة المؤسسة هي التي تحتاج إلى حمايتها والدفاع عنها. ضد كل شخص وكل شيء، وإذا دعت الحاجة، بلا رحمة.

23 آذار: فونس وفونس

انقضت الآن أعوام كثيرة منذ أن انطلقنا في رحلة من كندا إلى كوبا مع توقفات في كوستاريكا والسلفادور. اليوم أود الكلام عن هذه الأخيرة. كما يحدث دائماً في أسفاري، فقد أجريت عدداً من المقابلات، كانت أهمها مع مارتن فونس Martin Funes، الرئيس المنتخب للسلفادور الآن. لم أكن قد قابلته من قبل، وكان مصدر سرور غير متوقع أن أواجه صحفياً كفؤاً لم يكن قد عُهد إليه بإقناع مؤلف واصل حديثاً بفضائل منظومة قائمة على القمع الأكثر شراسة، لم يكن مسؤولاً بشكل مباشر، كقائد للقوات المسلحة، عن إساءات المعاملة، والأعمال التعسفية والجرائم المرتكبة من قبل الدولة، ومن قبل أقوى عائلات ملاك الأراضي الذين كانوا الأسياد المطلقين على اقتصاد الدولة. بدلاً من ذلك كان محاوراً حسن الإطلاع ومثقفاً، ليس فقط في موضوع الاستشهاد الطويل التي يعاني منها شعب بلده، بل أيضاً في المشاكل الممكنة للتغيير، الذي لم يكن بعد ظاهراً بشكل واضح في الأفق الاجتماعي أو السياسي للمجتمع السلفادوري. لم نر أحدنا الآخر مرة أخرى، لكن منذ ذاك الوقت ـ بما في ذلك خلال الفترات التي أثبتت أنها صعبة شخصياً وسياسياً بالنسبة لكليهما ـ حافظت بيلار على تراسل متواصل مع فاندا بينياتو، زوجة موريشيو. وهو تراسل من المحتمل فقط كما هو الآن، أن يزداد كثافة.

أما فونس الآخر، الذي يظهر في أحد عناوين كتب بورخس، فهو رجل محبو بذاكرة يمكنها أن تستوعب كل شيء ويمكنها أن تسجل الحقائق والصور، وكل ما يقرأه ويشعره، وصولاً إلى الضوء البازغ للنهار ومويجة على سطح بحيرة.

أرغب في أن أطلب من الرئيس الجديد للسلفادور ألا ينسى كلمة واحدة من الكلمات التي قالها في ليلة انتصاره، أمام آلاف الرجال والنساء الذين رأوا أخيراً آمالهم تتحقق. لا تخدعهم، أيها السيد الرئيس senhor Presidente[7]: فالتاريخ السياسي لأمريكا الجنوبية مليء بالإحباط والخداع، الذي يرهق الجماعات السكانية كلها بالأكاذيب والاحتيال، وقد حان الوقت لتغيير ذلك كله. ولدينا في دانيال أورتيغا رجل من هذا النوع.

24 آذار: إلى هنا يأتي الذئب

كان التاريخ، كما ينقله في أغلبه جد العائلة، مورداً لا يُخطأ لأجل عمال الليل في مقاطعتنا، ليس فقط كتسلية أساسية للأطفال الأبرياء، بل أيضاً كعنصر أساسي في منظومة تعليم سليمة ـ البشير، بمعنى ما، لما يقسمه شاهد جهاراً بألا يحكي سوى الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة. الشك الوحيد الذي راودني بخصوص هذه المقارنة ينشأ عن افتقاري إلى الخبرة المنتظمة بمنظومة المحلفين، وافتقاري إلى الفضول تجاه تنوع تجليات الطبيعة البشرية ـ وهو عيب يكاد يغريني بأن ألصق أنفي في

---

[7] senhor Presidente (السيد الرئيس) هو عنوان كتاب مشهور من تأليف الكاتب الغواتيمالي الحائز على جائزة نوبل للآداب ميغيل أنخل استورياس، ويحكي قصة صعود وسقوط وممارسات سياسي كهذا.

شؤون الناس، حتى شؤون أكبر مجرمي القرن. الآن، ثمة قصة نقلها ذات مرة أحد الأجداد، ربما إلى حين كان بعيداً في ساعات الليل الموحشة على سفح الجبل، كان حول اليوم الذي قرر فيه راع شاب أن يصرخ فجأة، «الذئب هنا جاء الذئب» بصوت عال جداً بحيث أن كل القرويين خرجوا في جماعات، مجهزين بالعصي والهراوات والبندقية الغريبة من الحرب قبل الأخيرة. للدفاع عن الغلام ونعجاته. على كل، لم يكن هناك ذئب، فقال الغلام: «لابد أنه قد هرب عندما سمع كل الصراخ». لم تكن هذه هي الحقيقة، بل كذبة أُطلقت بنفحة من الإقناع. قرر راعينا الشاب، راضياً بنتيجة خدعته، أن يكرر التجربة، ومرة أخرى هرعت القرية بقوة إلى صرخاته. لم يكن يُرى شيء من الذئب ولا أثر من رائحته. على كل، في المرة الثالثة، لم يشأ أحد أن تطأ قدمه خارج الأبواب، كان واضحاً أن فم الغلام مليء بالأكاذيب حتى الأسنان، لذلك دعوه يصرخ، فسرعان ما سيمل من ذلك. اقتنص الذئب بقدر ما شاء من النعجات في حين كان الغلام يتطلع عاجزاً إلى الكارثة من مخبئه على شجرة. في حين أن ذلك قد لا يكون موضوعتنا المختارة اليوم، فمن المهم أن نذكر أنفسنا بعدد المناسبات التي نصرخ فيها نحن أيضاً: الذئب. لقد أنكر كثيرون أيضاً أن الذئب قادم قبل أن يهبط علينا بالفعل، وعندما فعل ذلك في النهاية، رأيت واقتفيت الكلمة على طوقه: الأزمة Crisis.

دعونا نلقي نظرة على ما سيحدث بعد الخبر الأخير الذي مفاده أن الكثير جدا من البرتغاليين قرروا أن يتعلموا الإسبانية، وهم يتخذون القرار إلى حد كبير من صميم قلبهم. أخشى أن يبدأ أولئك الوطنيين الذين يندفعون للدفاع عن كل تقليد قومي بالصراخ إنهم قد لمحوا ذئباً هناك. أنا أسلم بأنهم قد لمحوا شيئاً ما، وهذا هو السبب لأجل الحاجة

إلى الناس من شبه جزيرتنا، البعض من هنا والآخرون من هناك، إلى الاقتراب أكثر من بعضهم البعض. فالتاريخ، عندما يريد ذلك، يمكنه أن يندفع بشكل جهنمي.

25 آذار: غداً الألفية

منذ أيام قليلة قرأت مقالة كتبها نيكولاس ريدوكس Nicolas Ridoux مؤلف: ***الأقل يساوي أكثر: مدخل إلى فلسفة الانحطاط***. لقد جعلتني أتذكر كيف شاركت منذ بعض السنوات، عشية الألفية التي نعيش فيها الآن، في اجتماع في أوفييدو Oviedo حيث كان بعض الكتاب يقترحون أن نصوغ الأهداف والغايات لأجل الألفية الجديدة. كان يبدو لي طموحاً نوعاً ما أن أناقش ارتجالاً ألفية بكاملها، أتذكر أنني تقدمت باقتراحات محددة، أحدها يتقدم به الآن ريدوكس في جسم مقالته Menos e mais. فتشت سواقة القرص الصلب في حاسوبي، وقررت أن أستعيد بعضاً مما كتبت في ذاك اليوم، في وقت يبدو فيه الآن أكثر صلة بالموضوع من ذي قبل.

بخصوص رؤى المستقبل، أرى أنه كان من الأفضل ألا نشغل أنفسنا بأكثر من الغد، عندما، نثق، يمكن أن نبقى أحياء. في الواقع، في عام بعيد مثل 999، في جزء أو آخر من أوروبة، كان قليل من الحكماء وكثير من اللاهوتيين في ذاك الوقت قد صمموا على التكهن بما سيكون عليه العالم بعدئذ بألف عام، فأنا متأكد من أنهم كانوا سيخطئون في كل شيء. مع ذلك ثمة مسألة واحدة كان من الممكن أن يكونوا مصيبين فيها تقريباً: أنه سيكون ثمة اختلاف أساسي طفيف بين الكائن البشري المشوش اليوم، الذي لا يعرف ولا يهتم بالاستفهام إلى أين هو

ذاهب، والأشخاص المرعوبين في القرون المنصرمة، الذين كانوا يؤمنون بأن نهاية العالم هي وشيكة. بالمقارنة، أعتقد أنه كان بإمكاننا أن نتنبأ جيداً بعدد أكبر بكثير من كل أصناف الاختلافات بين نوع البشر، نحن اليوم، وأولئك الذين سيأتون، ربما ليس حتى في ألف بل في مئة فقط من السنين. بعبارة أخرى: قد نشترك مع الذين سيعيشون عليه بعد مئة عام من الآن.... والعالم الآن هو حقاً على وشك أن ينتهي، في حين كان منذ ألف عام لا يزال يزدهر.

بخصوص موضوع ما إذا كان العالم ينتهي أم لا، ما إذا كانت الشمس ستشرق غداً أم لا، لماذا لا نعود أنفسنا على تأمل الغد، اليوم الذي نعرف فيه أننا سنكون محظوظين بكوننا أحياء؟ بدلاً من الاقتراحات الكثيرة الطموحة بلا مبرر من أجل وحول الألفية الثالثة، التي هي ذاتها ستختصر على نحو أكثر من محتمل كل هذه التوصيات إلى غبار، لماذا يتعين علينا ألا نقرر التقدم بأفكار بسيطة قليلة، بالتوازي مع عدد من المشاريع الممكن فهمها للناس الأكثر ذكاء بشكل معقول؟ إذا لم يكن ثمة مقترحات أفضل، فأود أن أبدأ باقتراح أن نقوم بالتالي: (أ) أن نسمح للتطور ليس من الأمام بل من الخلف، ما يعني تلك الجماهير المتنامية من السكان الذين خلفتهم النماذج الحالية للتطور، التي ينبغي الآن أن تصبح الخط الأمامي؛ (ب) أن نخلق إحساساً جديداً بالواجب الإنساني، يجعله متبادل الاعتماد كلياً مع ممارسة حقوق الإنسان؛ (ج) أن نعيش ببساطة، مثل الهائمين بحثاً عن الطعام، بفرض أن الإرث أو المنتجات، والسلع وثمار الكوكب ليست غير قابلة للنضوب؛ (د) أن نحل التناقض بين الجزم بأننا جميعاً قريبين بشكل متزامن مع بعضنا البعض والدليل على أننا نشعر يومياً بأننا أكثر فأكثر عزلة؛ (هـ) أن نقلص الفرق بين الذين يعرفون كثيراً

والذين يعرفون قليلاً، الذين يتزايد حالياً من يوم إلى يوم.

أظن أن غدنا سيعتمد على الأجوبة التي نقدمها على هذه الأسئلة، ومعظم أيامنا بعد الغد. على مدى القرن القادم كله ناهيك عن الألفية الثالثة.

لذلك، دعونا نعود إلى الفلسفة.

26 آذار: مسألة لـون

نص حوار في دعاية سيارات تلفزيونية. فتاة عمرها ستة، أو ربما سبعة أعوام، تجلس في المقعد الأمامي لسيارة تسأل والدها، الذي يقود السيارة، «أبي، هل تعلم أن ايرين، زميلتي في المدرسة، سوداء؟». يجيب والدها، «نعم، بالطبع.....» فترد الفتاة عليه «أنا لم.....». إذا لم تكن هذه الكلمات القليلة بالضبط ضربة للضفيرة الشمسية، فيمكن بالتأكيد أن نسميها شيئاً آخر: نقف للعقل. تقول الشائعة إن هذه القطعة الصغيرة من الحوار لم تكن أكثر من التدفق الإبداعي لعبقري تسويق، لكن هنا إلى جانبي بنت أختي جوليا، التي لا يتجاوز عمرها خمس سنوات، التي عندما سئلت ما إذا كان الناس السود يعيشون في تياس ـ المنطقة التي أقيم فيها ـ أجابت بأنها لا تعرف. وجوليا هي صينية.

من الشائع أن نقول إن الحقيقة تأتي من أفواه الأطفال والرضع. مع ذلك، وفقاً للأمثلة الواردة أعلاه، فإن هذا لا يبدو أنه هو الحال، بما أن ايرين هي سوداء فعلاً وثمة الكثير من النساء السوداوات في تياس.

المشكلة هي أنه، على العكس مما يُعتقد عموماً، ومهما حاولوا بصعوبة أن يقنعونا بالعكس، فإن الحقائق المطلقة لا وجود لها:

الحقائق جمعية والكذبة وحدها عالمية. فالطفلتان لم تريا نساء سوداوات: لقد رأتا كائنات بشرية، بشراً آخرين مثلهما تماماً، لذلك فإن الحقيقة التي خرجت من فميهما كانت ببساطة حقيقة أخرى.

لكن السيد ساركوزي لا يفكر مثلهما تماماً.فقد طلع الآن بفكرة المطالبة بإجراء إحصاء سكاني إثني، مصمم لتقديم صورة بالأشعة السينية (والتعبير له) للمجتمع الفرنسي لإظهار أين يسكن كل مهاجر، بشكل مزعوم لإخراج المهاجرين من مغموريتهم والبرهان على كيف أن السياسات المضادة للتمييز تعمل. وفقاً لرأي سائد على نطاق واسع، فإن الطريق إلى الجحيم ممهد بالنوايا الحسنة. هذا هو المكان الذي أعتقد أنه فرنسا ستذهب إليه إذا نجحت هذه المبادرة ليس من الصعب أن نتخيل (والماضي يقدم ثروة من الأمثلة) كيف يمكن استخدام الإحصاء السكاني لإظهار حاجة شاذة من أجل أشكال جديدة وأكثر تهذيباً من التمييز. أنا أفكر جدياً بالطلب من والدي جوليا أن يأخذاها إلى باريس كمستشارة للسيد ساركوزي.

27 آذار: كيس من القطط

لن يكون هناك أي نقص في المشورة: مع ذلك، فإن الاتحاد الأوروبي يمكن أن يتحول إلى كيس من القطط، مع المغامرة بأن يصير خطيراً بقدر ما يصير مثيراً للسخرية. من المستحيل على الأنانيات القومية القديمة نفسها، على الطموحات الشخصية الأبدية للساسة، على الفساد العقلي (هذا على الأقل) الذي يلوث دائماً منذ البداية كل سعي إلى التنظيم الجماعي ما لم يكن محكوماً بمبادئ النزاهة الفكرية والاحترام المتبادل ـ أكرر، من المستحيل على مثل هذه التوليفة من السمات السلبية إلى

درجة قصوى ألا تنتهي بتحويل الاتحاد الأوروبي إلى الكاريكاتور الأكثر غرابة. هذا هو ما حدث الآن مع تدخل الوزير التشيكي ميريك توبولانك، الرئيس الدوري المنتخب للاتحاد الأوروبي لفترة ستة أشهر ـ وهذه مفارقة محبطة ـ واستقالته من منصبه كرئيس وزراء لبلده، التي اعتاد على أن يهاجم رئيس الولايات المتحدة بأكثر الألفاظ ابتذالاً، متهماً إياه بوضع الاقتصاد على «الطريق إلى الجحيم» (أو، بطبعة ملطفة، الطريق «إلى الكارثة»)، كاشفاً بذلك بوضوح عن طبيعة آماله وولاءاته: العودة إلى الليبرالية الراديكالية من المدرسة القديمة ورفض أية إجراءات لصالح قبول، ولو ظاهرياً، أية مساع لأن يصبح الديمقراطيون الاجتماعيون مشمولين. كما نرى، فإن السيد توبولانك هو أمل قوي لأجل الإنسانية.

بالمصادفة منذ يومين، وجد رودريغز ثاباتيرو، رئيس الحكومة الإسبانية، نفسه تحت نار كثيفة من مجمل تكتل خصومه البرلمانيين، ليس من أجل الانسحاب الوشيك للقوات الإسبانية، نظراً إلى أن هذا كان قد تم التخطيط له منذ أكثر من عام، بل من أجل فشله في الامتثال للمتطلبات الأكثر أولية في إشعار حلف الناتو أو الإدارة الأميركية مسبقاً.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه عليّ الآن هو التالي: ما الذي يخطط البرلمان الأوروبي لفعله لكي يبين للسيد توبولانك أنه رجل سيء التربية ووقح، إلى جانب كونه رجعياً؟.

30 آذار: رابوسا دو سول Raposa do Sol

هناك وبعيداً عن هنا، تشرق الشمس بشكل مختلف. فالهنود على المحمية الطبيعية في رابوسا دو سول، في ولاية رورايما في البرازيل

الشمالية، يقولون الكثير إنهم الذين اعترفت المحكمة الفديرالية العليا لبلدهم، مصادقة بشكل حاسم على ملكيتهم التامة واستعمالهم غير المقيد لألف كيلو متر مربع التي تشكل المحمية.

لم يدع الحكم أيٍ هامش من الشك: كل غير الهنود ملزمون بمغادرة رابوسا دو سول فورا، مع شركات الرز التي غزت الإقليم لسنوات، مرسخة نفسها هناك متحدية للحقوق الطبيعية. في عام 2005 كان الرئيس لولا قد قرر منح الأرض للشعوب الأصلية وإلزام شركات الرز بالمغادرة، لكن سلطات ولاية رورايما حابت شركات الرز وذهبت إلى المحكمة العليا لإعلان المرسوم الجمهوري غير دستوري. بعد ذلك بأربع سنوات، توصلت المحكمة إلى قرار ورسمت خطاً تحت الوقائع. فليس كل شيء في الحديقة ينبت وروداً.

في النهاية، فإن الصراع الطبقي، الذي نوقش بشكل موسع في الماضي الحديث نسبياً، والذي بدا أنه أرسل إلى مزبلة التاريخ، لا زال موجوداً. بالنظرة الضيقة التي نملكها نحن الأوروبيون لمشاكل أمريكا اللاتينية، نميل إلى تجاوز الاختلافات هناك ونختزل قضاياهم إلى حالة من البساطة ليست موجودة ولم تكن موجودة أبداً. في رابوسا دو سول، ثمة أفراد أغنياء من المجتمع الأصلي الذين ناصروا السكان غير الأصليين وشركات الرز. احتفالات اليوم كانت من أجل الآخرين، الفقراء.

هنا في المدينة العجيبة[8] ثمة سامبا وكرنفال، لكن الوضع المحلي ليس أفضل. فآخر فكرة هي التحصن في مدينة الأكواخ، الفافيلاس Favelas، بجدار خرساني ارتفاعه ثلاثة أمتار. لقد كان لدينا جدار

---

(8) A cidade Marvillousa = ريو دو جانيرو.

برلين، لدينا كل الجدران المفروضة على فلسطين. والآن يبدو أنه جاء دور ريو. في هذه الأثناء تتفشى الجريمة المنظمة في كل شارع، فتصل مجساتها عمودياً وأفقياً لتخترق أجهزة الولاية ومجتمعها بشكل عام. يبدو أن الفساد لا يُقهر. لذا ما العمل؟

31 آذار: الهندسة الكسرية

كما كتب م. جوردان موليير نثراً دون التحقق من ذلك، كان ثمة لحظة في الحياة وجدت نفسي فيها، بدون ملاحظتي الفعلية للظاهرة، منخرطاً بعمق في شيء غريب كالهندسة الكسرية التي لم أكن أمتلك أية معرفة أولية بها، مع الاعتذار عن جهلي. حدث ذلك في وقت ما في عام 1999، عندما كتب عالم هندسة إسباني، هو خوان مانويل غارثيا ـ رويز، يلفت انتباهي إلى مثال عن الهندسة الكسرية قدمته في كتابي *كل الأسماء* *Todos os Nomos*. والمقطع المقصود يقرأ كالتالي:

«تبدو المقبرة العامة، منظوراً إليها من الجو، مثل شجرة مقطوعة ضخمة، ذات جذع قصير بدين، مكونة من نواة من القبور الأصلية تتفرع عنها أربعة أغصان ثخينة، كلها من نقطة النمو ذاتها، لكنها تمتد، لاحقاً، في تفرعات متتالية على مد النظر، مشكلة، على حد تعبير شاعر ملهم، تاجاً مورقاً تمتزج فيه الحياة والموت، تماماً كما تمتزج في الأشجار الحقيقية الطيور والأوراق»[9].

لم أكن أفكر في تغيير عملي، لكن كل أصدقائي لاحظوا إحساساً جديداً بالقناعة في معنوياتي، نوعاً من التحول على الطريق إلى دمشق.

---

[9] ترجمة كتاب *كل الأسماء* من تأليف مارغريت جول كوستا (Harvill, 1999, p.186).

على مدى تلك الأيام القليلة كنت أحتك برفاق لا يقلون عن أفضل هندسيي العالم. هذه المرتبة كانوا قد أحرزوها بعد الكثير من الجهد الشاق، تأكدت من أنني قد توصلت من خلال ومضة مفاجئة من الحدس العلمي، إلى التحقق الذي لم أشفَ منه، لأقول لكم الحقيقة، رغم مقدار الزمن الذي انقضى على ذلك.

الآن بعد عشر سنوات، شعرت بالعاطفة نفسها عندما رأيت غلاف كتاب عنوانه *Armonial Fractal* [*التناغم الكسري*]، الذي ألفه خوان مانويل، مع زميله هكتور غاريدو. الرسوم الإيضاحية هي في كثير من الأمثلة استثنائية تماماً، فالنص ذو الدقة العلمية لا يتلاءم مع جمال شكله ومفاهيمه. إنه يتأتى بتزكية عالية من مصدر موثوق.

نيسان / إبريل 2009

1 نيسان : محمود درويش

يصادف يوم 9 آب القادم الذكرى السنوية الأولى لوفاة الشاعر الفلسطيني العظيم محمود درويش. لو كان عالمنا أكثر حساسية وذكاء، وأكثر وعياً للجلال السامي للأرواح الفردية التي ينتجها، لكان اسمه الآن معروفاً على نطاق واسع ومثار إعجاب مثلما كان، على سبيل المثال، اسم بابلو نيرودا أثناء حياته.

إن قصائد درويش، المتجذرة في الحياة، في الآلام وفي الأشواق الأبدية للشعب الفلسطيني، تمتلك جمالاً شكلياً غالباً ما يزين اللحظات المبهمة التي لا توصف بكلمات بسيطة قليلة، مثل مفكرة يمكن للمرء فيها أن يقتفي الكوارث خطوة خطوة، دمعة دمعة، لكن أيضاً اللحظات العميقة، وإن تكن نادرة، من الفرح، شعب خضع للاستشهاد على مدى الأعوام الستين المنصرمة التي لا يبدو أن ثمة نهاية لها في الأفق.

فقراءة محمود درويش، إضافة إلى كونها تجربة جمالية لا تنسى، هي الركوب على متن Via Dalorosa على امتداد الطرق المنكسرة للظلم والسلوك المخزي، عبر الأراضي الفلسطينية التي عانت بوحشية على أيدي الإسرائيليين. فإسرائيل هي الجلاد هنا، الذي يصفه الكاتب الإسرائيلي ديفيد غروسمان، في لحظة الحقيقة، بأنه غريب عن كل شفقة.

اليوم قرأت في المكتبة قصائد محمود درويش من أجل فيلم وثائقي سيتم عرضه في رام الله في الذكرى السنوية لوفاته. لقد دعيت للذهاب وقراءتها هناك، لكن علينا حتى الآن أن نرى ما إذا كان من الممكن بالنسبة لي أن أقوم بمثل هذه الرحلة الطويلة، التي لن تسر البوليس الإسرائيلي بالتأكيد.

عندما سأكون هناك سأستذكر أين حدث: العناق الأخوي الذي تبادلناه، منذ سبع سنوات، الكلمات التي تبادلناها والتي لن نكون قادرين على تكرارها.

هكذا كان في لقائي مع محمود درويش.

2 نيسان : العشرون الكبار G20

حول موضوع الكائن الخرافي الذي هو العشرون الكبار G20، ثمة ثلاثة أسئلة فحسب.

لماذا؟ من أجل ماذا؟ ولأجل من؟

3 نيسان : سانتا ماريا دي ايكويك

سانتا ماريا هو اسم المدرسة، لذلك من الطبيعي أن نفترض أن القديسة الموصوفة هكذا، فوق في السماء، لم تفعل شيئاً للتدخل في الوضع كمسألة مبدأ، وانسجاماً مع القدرات الممنوحة لها. اسم المكان هو إيكويك، الذي كان فيما مضى مرفأ هاماً بشكل حيوي في تشيلي الشمالية، وهي منطقة غنية بالملح الصخري، الذي هو مزيج من نترات الصوديوم ونترات البوتاسيوم يخرج مباشرة من الجحيم، وهي فكرة

يتقاسمها بلا شك آلاف البشر - في تشيلي وفي البلدان المجاورة - الذين عملوا لاستخراجه، نعود الآن إلى عام 1907. بما أنها الحاكم المنطقي للعاصمة، كشيء حتمي مثل القدر، فإن الاستغلال المفرط عديم الرحمة لعمل هذا الشعب الفقير قد وصل إلى حدود لا تحتمل. فكان الإضراب هو ردهم المفهوم. من جماعات حفر المناجم في الجبال هناك بدأ هبوط المئات الأولى ثم الآلاف من العمال، الذين تجمعوا في مدرسة سانتا ماريا في ايكويك. بعد فترة الأيام التي حاول فيها المضربون، بدون نجاح، أن يتفاوضوا، قررت الحكومة الوطنية - تحت ضغط من الرأسماليين الأجانب - أن تضع حداً للنزاع بأية وسيلة في 21 كانون الأول / ديسمبر قتل أكثر من ثلاثة آلاف شخص - ليسوا فقط عمال المناجم، بل أيضاً العجائز والنساء والأطفال - بوحشية من قبل القوات المسلحة التي حُشدت لقمعهم. ليس ثمة نقص في الصفحات السوداء في كتب تاريخ تشيلي. وهذه هي الأكثر مأساوية، والأكثر عبثية من بينها.

بعدئذ بعقود، قام المؤلف الموسيقي التشيلي لويس أدفيس، وهو موسيقي ذو موهبة كبيرة علم نفسه بنفسه، بتأليف وكتابة نص أوبرا أناشيد إلى سانتا ماريا Cantata to Santa Maria من أجل جماعة تدعى كويلابايون Quilapayun وقدمت لأول مرة أمام جمهور في أوائل السبعينات، وحتى اليوم تبقى بين أفضل الأمثلة على تراث الأغنية التشيلية الجديدة، وعلى حركة الأغنية الجديدة في أمريكا الجنوبية. لدي DVD، تسعون دقيقة من الموسيقى التي تؤديها الآلة السحرية التي هي الناي الأنديزي وتغنيها الأصوات الرائعة للكورس.

وأظهر أنا فيها أيضاً. قبل أيام قليلة من إدخالي إلى المستشفى، في تشرين الثاني 2007، جاؤوا ليسجلوا لي تصريحاً لصالحهم. أنا أخبر المشاهدين أنني لست خوسيه ساراماغو بل شبحه. لا توجد صور أكثر

صدماً لي من هذه الصورة، الملتقطة في ذاك الحين. كنت على وشك أن أطلب حذفها، لكن الظل الحي هو رغم كل شيء لا يزال حياً، والأحياء لا يُنكرون. بأي حال، بدافع الاحترام للموتى الثلاثة آلاف، فإن التواضع يمنعني من التوسع في معاناتي الشخصية. دعونا نترك الموضوع عند هذا الحد.

6 نيسان : ساعة الجيب

أهداني أحد أحدث أصدقائي ساعة يد. ليس أي نوع قديم من الساعة، بل أوميغا. كان قد وعدني بأنه سينتقل بين السماء والأرض ليحصل على واحدة لي، ووفى بوعده.

قد تقولون إن الوفاء بهذا الوعد ينبغي ألا يكون تحدياً كبيراً: بالتأكيد كان يكفي أن يذهب إلى أقرب متجر ساعات وأن يختار واحدة من بين الموديلات الكثيرة المعروضة، من الذوق الأكثر تقليدية إلى الأكثر حداثة، بما في ذلك كل أنواع التشكيلات التي لم تخطر أبداً على بال الشاري. تبدو المسألة مباشرة، لكن القارئ قد أغري بتوقع إيجاد أوميغا صنعت في عام 1922، عام ميلادي. جربوها بأنفسكم، في أي محل ساعات حديثة، ثم أخبروني ماذا حدث. «ربما» كان مساعد المحل سيقول في نفسه، «هذا الجنتلمان لديه أكثر من برغي محلول».

إن ساعاتي هي من تلك الساعات ذات المالئ (الزنبرك)، وتحتاج إلى أن تملأ [تقرن] يومياً لإعادة شحنها بالطاقة. لها مظهر رصين يشتق، كما أعتقد، من المادة التي صنعت منها: الفضة. فوجهها هو مثال على النقاء الذي يسلي القلب المتأمل. والآلات [الميكانيزم] محمية بغطائين، واحد محكم الإغلاق كتيم يمنع اختراق أدق ذرة غبار. أسوأ ما يمكنني

قوله عن الساعة هو أنها بدأت تسبب أزمة ضمير.

فأول سؤال خطر ببالي هو، «أين سأضعها؟ هل أحكم عليها بأن تُحبس إلى الأبد في أسفل درج؟» لا، إذ لا يمكن أن أُتهم أبداً بامتلاك مثل هذا القلب القاسي. «لذلك، هل سأستعملها إذاً؟». فأنا أمتلك ساعة يد قبل الآن، ساعة يد بشكل واضح، وسيكون من المضحك أن أتجول وأنا أرتدي الاثنتين، ناهيك عن أن المكان المثالي لأجل ساعة الجيب هو في جيب الصدرية المخصص لها، لكن من يلبس اليوم صدرية اليوم؟ في النهاية قررت أن أعاملها كحيوان منزلي مدلل إنها تمضي أيامها موضوعة على طاولة صغيرة بجانب مكتبي. وتعتبر نفسها ساعة سعيدة بالفعل. و، لتقوية علاقتنا قررت أن ترافقني في أسفاري. إنها تستحق ذلك على الأقل. لديها ميل طفيف إلى كسب الوقت [التقديم]، لكن هذه هي العلة الوحيدة التي استطعت إيجادها بها. لكن هذا أفضل من أن تخسر الوقت [التأخير].

الصديق الذي قدم لي هذه الهدية يدعى خوسيه ميغيل ثوريلا ويعيش في سانتاريم.

7 نيسان : قراءة أخرى في الأزمة

كانت القيم التقليدية تتطلب منشأة ذات سطوح واسعة تدعى كاتدرائيات، أما الضرورات الحديثة فتتطلب إنشاء سطوح شاسعة أخرى تدعى مراكز تجارية. إن المركز التجاري ليس مجرد الكنيسة الجديدة، بل هو أيضاً الجامعة الجديدة. إنه يحتل مكاناً هاماً في تشكيل جهازنا العقلي الإنساني الجديد. فدعونا نستعيض عن فكرة الساحة، الحديقة، أو الشارع بفضاء عمومي يمكن للناس أن يلتقوا فيه.

إن مركز التسوق هو المكان الوحيد ذو الأمان الذي أبدعه ذاك الجهاز العقلي الجديد، الخائف من الإقصاء، الخائف من الطرد من فردوس الاستهلاك، وتوسعاً، من كاتدرائية مجمع التسوق.

وما الذي نخشاه الآن؟ الأزمة.

هل سنعود إلى ساحة البلدة أو الجامعة؟ أم نعود إلى الفلسفة؟

8 نيسان : المطالعة

يكشف هذا الشيء الذي يدعى أسلوبي عن إعجاب واحترام كبيرين للغة المحكية في البرتغال في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر. دعونا نفتح كتاب مواعظ الأب أنطونيو فيثيرا ونتأكد من أن كل ما كتبه كان مليئاً بالنكهة واللحن كما لو أن هاتين الخصلتين لم تكونا خارجيتين بل متأصلتين في اللغة.

لسنا متأكدين تماماً من كيف كان الناس يتكلمون من ذاك الوقت، لكننا نعرف كيف كانوا يكتبون. كانت لغة اليوم في حالة من الدفق المتواصل. قد نختار أن نقارنها بالنهر، بكتلة هائلة من الماء، الذي يندفع بقوة كبيرة. وتألق وإيقاع، حتى لو كان مجراه في بعض الأحيان تقطعه الشلالات الهادرة.

أيام العطلة هي فوقنا، المناسبة المثالية لأن تغمر نفسك في نهر اللغة تلك كما كتبها الأب فيثيرا. ليس من شأني تقديم النصح لأحد، لكنني يمكن أن أعترف بحرية بأنني أنوي الغوص في أفضل نثره، عميقاً بحيث يمكنني أن أختفي في يوم من الأيام. هل من أحد آخر يود الانضمام إلي؟

13 نيسان : لاكويــلا

قرأ تقريراً إخبارياً عن الزلزال في الأبروتزي، حيث يسـأل النـاجون اليائسون، العاجزون أنفسهم لماذا اختارتهم الأقـدار واختـارت بلـدانهم لتكون موقعاً لمثل هذه الكارثة الهائلة. إنه سؤال لا يمكـن أن يكـون لـه جواب، لكننا نطرحه بشكل ثابت كلما دقت التعاسـة البـاب، كمـا لـو كان في مكان ما في الكـون ثمـة شـخص مسـؤول عـن محننـا. في معظم الأحيان ثمة وقت قليل لفعل أكثر من مواجهـة المـوت، أو ربمـا حتـى ليس بهذا القدر، كما تنفجر القنبلة على بعد عشر خطوات أمامـك، أو عندما يـتحطم زورق الكيـاك فجـأة إلى قطـع ضـمن مـدى السـاحل، أو يجرف فيضان المنازل والجسور كما لو أنها كانت تعد بمثابة عوائق، أو عنـدما تـدفن الانزلاقـات الطينيـة أو الانجرافـات الأرضـية جماعـات بأكملها. إننا نسـأل أنفسـنا جميعـاً، لمـاذا نحـن؟ لمـاذا أنـا؟ ولا يـأتي الجواب أبداً. لقد سأل جاك بريل أيضاً: « Pouquoi moi? Pourquoi maintennant? ».

ومــات. لقــد كــان قــدره، كمــا نقــول، وكلمــة resurrection (الانبعــاث) لم تكــن مكتوبــة فيــه. مــن الجيــد أن تعــرف أن العــالم، بصراحة، ليس مصنوعاً من أجل الانبعاثات. هذا كل ما نحتاج لمعرفته.

14 نيسان : بـو

دعونا نهنئه، كلب الماء الخاص بنا، على وجوده في البيت الأبيض. لا أعرف كيف سيلفظون الاسم الذي منحوه إياه، لكنني آمل أن يفعلوا ذلك بالطريقة الفرنسية، كما لو كان ثمة علامة ` فوق الحرف O، الذي

سيجعله لا يطن بأقل مما هو جميل.

في هذا الوقت ستكون صورته الوجهية قد جالت حول العالم، وستعض الكلاب الدانماركية العظام وستعض الكلاب البوميرانية شفاهها من الحسد لأن الصنف البرتغالي المشار إليه يحتفل بنجاحه بعبارات الفخر الوطني المبرر تماماً. بأي حال، دعوني أقول إن لدي تحفظ خطير لأضعه عليك: هو أنني لم أسمع أبداً بكلب ماء بإكليل من الزهور معلق حول عنقه، كما لو كان راقص هولا. في عمر ست سنوات فقط. ليس بو مدركاً تماماً بعد للاحترام المستحق للسلالة الكلبية التي كان له الحظ السعيد في أن يولد فيها. لو كان البيت الأبيض يرغب في ذلك، لكان من الممكن أن نفكر بقرض قصير الأمد (ليس طويلاً، لأننا عندئذ كنا سنفتقده بأنفسنا) لكاموئيسنا العزيز، ليخدم كناصح للجرو الرئاسي، ويعلمه آداب السلوك التي ينبغي أن يظهرها في كل الأوقات، بما يليق بكلب تشرف بنسب برتغالي خالص.

15 نيسان : كولومبيا في لانزاروتي

جاءت الأمة إلي في شخص أحد ممثليها الأكثر تبجيلاً: المواطن وعضو البرلمان السابق سيغيفريدو لوبيز توبون، الذي حرر منذ شهرين من أسر دام حوالي سبع سنوات، حيث تحمل أقسى الظروف في الأدغال الكولومبية، التي ضاعفتها المعاملة اللاإنسانية التي تطبقها عصابات الفارك FARC على أسراها. كان سيغيفريدو واحداً من مجموعة من اثني عشر نائباً اختطفتهم حركة حرب العصابات الكولومبية؛ أما الأحد عشر الآخرون فقد تم إعدامهم مؤخراً. نجا سيغفريدو بالصدفة، بعد أن وضع في حبس انفرادي بسبب فعل

العصيان. رغم أن الرجل يملك كل المبررات (فهو يمقت هذا العالم وجلاديه، لا يرفع صوته ليروي معاناته الشخصية (التي يبدو أنه يعلق عليها أهمية ضئيلة)، مع أنه لا يستطيع أن يكبت رعشة وهو يصف الأفعال الفظيعة للفارك ـ أعمال القتل والتعذيب، بما فيها تلك التي مورست على اثنين وعشرين جندياً عاشوا مقيدين بالسلاسل على الأشجار لأكثر من اثني عشر عاماً...

لم يكن في القاعة في مؤسسة سيزار مانريك مقعد فارغ واحد، كان ثمة متسع للوقوف فقط. على مدى حوالي ساعتين كنا في حالة دائمة من التأثر المصعَّد الذي تستحيل ترجمته إلى كلمات. بكى البعض من الصدمة التي لا تحتمل من الإفشاءات الفظيعة التي تكشفت لنا لكن أيضاً (على الأقل في حالتي) من الأسى اللامحدود للطريقة التي جبلنا بها، والتي لا علاج لها ولا خلاص منها. هل كان بمقدور أي شخص أن يتصور أن رجال العصابات كانوا، ولازالوا، يقتلون زملاءهم البشر بقطع أطرافهم بمنشار سلسلي؟

16 نيسان : أوهام الفخامة

المسألة جدية، أكثر من جدية. لقد سمعت مؤخراً أن البرتغال تعاني تخمة في طرق السيارات السريعة [الأوتوسترادات]، لا تقل عن تسعة، يصل مجموعها إلى حوالي 350 ميلاً. إذا توقفنا لنتأمل كم يكلف فعلاً إنشاء حتى ميل واحد من هذه الوسائل الفخمة للنقل المركبي، التي يمكن للمستخدم أن يستمتع على امتدادها بكل السلع المتوفرة تقريباً في الحياة المنزلية، فلا بد أن نستنتج حتماً أن أحداً ما كان يعبث بالفواتير أو على الأقل كان يستخدمها ليخدعنا.

وفقاً للقانون، أو ما يبدو أنه ينوب عن القانون في هذه الحالة، فإن افتتاح طريق سريع يتطلب درجة من التنبؤ الدقيق بكمية المرور المتوقع، لئلا نقع في فخ إطلاق نكات من قبيل «هنا يأتي، هناك يذهب»، كما في حالة الخط (وليس النكتة، الطريق) الذي يصل لشبونة مع إلفاس، الذي يثير الحنين إلى الأزمنة التي كان فيها الخط يتبع سياسة قومية أكثر تواضعاً وكان ينقل أعداداً كبيرة إلى بوسادا ليتناولوا سمك القد المملح المطبوخ بأسلوب Bras المحلي. بعد إجراء المقتضى مع أو بدون قد مملح، يستمر هذا الوضع على طول الطرق السريعة الثمانية الباقية.

عندما أخبروا الملك خواو الخامس كم ستتكلف الأجراس التي كان يريد أن تركب في مافرا، لم يستطع أن يتمالك نفسه، بالأسلوب المبتذل المضحك للأغنياء الجدد Nouveau riche فقال، «رخيص الثمن، اشتروا لي اثنين». منذ زمن ليس طويلاً، عندما كانت البرتغال مسؤلة عن تنظيم بطولة كرة القدم الأوروبية، التي فشلوا عندئذ بشكل مخز في الفوز بها، فلا بد أن أحداً ما فكر في القول إننا كنا نحتاج في الواقع إلى بناء كمية كاملة من الستادات، بما أننا كنا فعلاً نفتقر إليها. يمكنني أن أصور الحوار: «كم تريد؟» يسأل الرامي الكبير الأنيق. «أظن أن ثلاثة أو أربعة ينبغي أن تكون كافية» يجيب الفني. «ماذا تقصد، ثلاثة أو أربعة؟» يغمغم صاحب المقام الرفيع بشكل ساخط. «نحتاج إلى عشرة أو اثني عشرة على الأقل، وسنبدو أغبياء تماماً إذا لم نستجر رؤوس الأموال الأوروبية الكافية لـ كشط البرميل». مع ذلك مرة أخرى، إما أن شخصاً ما كان خُدع بالفاتورة النهائية، أو خدعنا حولها.

تتكدس الأرقام عندما نحصي عدد الفقراء في البرتغال. إذ ثمة مليونان منهم، وفقاً لآخر تقدير. أي، نصب تذكاري آخر لأوهام فخامتنا التاريخية. اسمع تلك الأجراس تقرع الآن.

17 نيسان : معاً مع داريو فـو

التقى عـدد مـن الأشـخاص مـع داريـو فـو في مـدرج كاجـا غرانـادا للمشاركة في المـنح الرسـمي لجـائزة التعـاون الأمـي الـتي، إن لم أكـن مخطئاً، منحها كاجا نفسه على مدى الأعوام العشرة الماضية والتي تقرر هذا العام في حينه أن يتم تقاسمها بين فو وبيني. وكان ينبغي أن أكون هناك، أيضاً ـ كما تنص الدعوة المزخرفة على نحو فاخر ـ لكي أشـارك في الأفراح والعناقات في مثل هذه اللحظة. من المؤسف، أنني لم أتمكـن من القيام بالرحلة، لكن بفضـل الاتصـالات الحديثـة نقلـت تقريبـاً إلى هناك في الوقت الحقيقي من أجل افتتاح هـذه المناسـبة حيـث مـثلني، بناء على طلبي، راضياً بمنتهى اللطف، رئيس جامعة غرناطـة. بمعنـى ما، دعيت أنا وداريو فو إلى هناك لتمثيل مهرجان Sete Sois – Sete Lucas الذي نفتخر بأننا الرئيسان الفخريان لـه. التقليـد الـدارج علـى مدى تاريخ هذه الجائزة، الذي يمنحها مثل هذه القيمة، هو أن يتنازل نائل الجائزة عنهـا لصـالح مؤسسـة ثقافيـة أو اجتماعيـة، وقـد منحنـا جائزتنا إلى المهرجان نفسـه، الـذي سـوف يسـتخدم الأمـوال في اتجـاه إنشاء مركز ثقافي على الريبيرا غرانـد Ribeira Grande في جـزر رأس فـردي Cape Verde Islands ـ ذاك البلـد السـاحر، كمـا وصـفته في مساهمتي التي سبق تدوينها، بعد كل ذلك، أظن أن بإمكاني القول إننا جميعاً، بمن في ذلك هذا الطرف الغائب، خرجنا من احتفاليـة جـائزة كاجا غرانادا للتعاون الأممي مسرورين كثيراً.

20 نيسان : التباهي

إن كلمات مثل التعقل، التحفظ، التقيد، التواضع والحشمة يمكن إيجادها دائماً في القاموس. مع ذلك، أخشى أن يصل البعض منها، عاجلاً أم آجلاً، إلى مواجهة القدر المؤسف لكلمات مثل esgartula[1] المحذوفة، كما حصل لكلمات كثيرة جداً، من معجم الأكاديمية الوطنية بسبب الانعدام الواضح والدائم للتداول الذي جعلها ثقلاً ميتاً على أعمدته الواسعة المعرفة.

ليست esgartula كلمة يمكن أن أتذكر أنني أتيت على ذكرها ناهيك عن كتابتها. بالمقابل، إن كلمة reserved [محجوز]، رغم أنها تتبع النمط وتناسب القائمة الآنفة الذكر في كونها تفقد الرواج ببطء عندما تطبق على شخص، ستمنح مع ذلك حياة طويلة ومفيدة ككلمة تستخدمها وكالات الحجز ومكاتب البريد، كلمة بدونها لن تكون الخدمات الأساسية كخطوط الطيران قادرة على القيام بوظيفتها. هذا بدون حتى الحاجة إلى اللجوء إلى ذاك الصنف الخاص من التكتم، النظام العقلي الذي ابتدعه اليسوعيون كتبرير مقنع لأجل التبشير بشيء واحد قبل القيام بالضد تماماً، وهي ممارسة انتشرت وازدهرت إلى أن تفشت في كل أنحاء المجتمع البشري، إلى النقطة التي أصبحت فيها شرطاً لأجل البقاء.

ولكوني بعيداً عن الوعظ أخلاقياً، لأنني لو كان علي أن أفعل ذلك، لكنت سأضيع الوقت فقط ـ وقتي و، أشك، وقت بعض قرائي. إننا نعرف جيداً أن الجسد ضعيف: فكم هي الروح أضعف من ذلك بكثير،

---

[1] يعتقد المترجمون أن هذه الكلمة تعني "السجن مدى الحياة"، لكن لما كانت قد حذفت من القاموس، فإنهم لا يمكن أن يكونوا متأكدين من ذلك.

إذاً، مهما تباهى المرء بكل قواها المزعومة، بما أن الكائن البشري هو الأرض بامتياز التي تلتقي عليها كل الإغراءات الممكنة والسارة، التي يكون جسد الإنسان بشكل طبيعي وريثاً لها وتلك التي لازال يخترعها ويهذبها عبر القرون والألفيات. فلنصنع معظمها. دعوا من قاوم كل الإغراء يرمي الحجر الأول. بدأ الشيء برمته مع طرح الأثواب، لصالح أثواب أخف وأقصر، مصنوعة من أقمشة ذات شفافية متزايدة، في كل مرحلة تكشف عن مزيد من السنتمترات المربعة من الجلد قبل أن تفسح المجال نهائياً للعري الكامل، التعري الكلي علناً المكشوف على علناً على بعض الشواطئ المخصصة لذلك. لا شيء يدعو إلى القلق في ذلك. ففي جوهره كما كتبت في أمكنة أخرى، ثمة في الواقع شيء بريء إلى حد ما في ذلك. فآدم وحواء أيضاً كانا يتجولان عاريين و، خلافاً لما يخبرنا به الكتاب المقدس [التوراة]، كانا واعيين جيداً للحقيقة.

لكي يمارس هذا المشهد الكوني السائد تأثيره في تركيز وتشتيت انتباه العالم، لم نتنبأ كما يبدو بأننا سنلد مجتمعاً من الاستعراضيين. فالفصل بين الممثلين والمشاهدين قد انتهى: المشاهد يحضر لا ليسمع ويرى فقط، بل ليُرى ويُسمع أيضاً. إن سلطة التلفزيون، لنذكر مثالاً واحداً فقط، هي في جزء كبير منها تُغذى عن طريق هذا التكافل عبر ما يسمى عروض الواقع، يتحاور فيها الضيوف مطولا، وهذا ما أجبر على دفع النقود من أجله، حول تعاسات حيواتهم، ويصفون الخيانات والشرور التي عانوا منها، وسلوكهم وسلوك الآخرين البذيء، بما في ذلك، إذا اعتبر ضرورياً للمشهد، سلوك أقرب الناس وأعزهم إليهم. بدون إلغاء أي شيء ـ بلا تحفظ، بلا خجل، أو حشمة أو تواضع. لن يكون ثمة نقص في الشاهدين الذين يشكرون الله على ذلك، قائلين إنه حان الوقت للتخلي عن تلك المفردات القديمة الطراز، لفتح الأبواب

والتحديق داخل البيوت الخصوصية، مهما كانت كريهة الرائحة. بعض الناس، لا تدعوا مجالاً لأي شك في ذلك، يمضون إلى حد الإلحاح على أن هذا هو إحدى المنافع الأساسية للعيش في نظام ديمقراطي من المسموح قول كل شيء، على شرط أن يبقى المهم فعلاً مخفياً. بلا خجل هكذا.

21 نيسان : قميص النوم (Camisola)

عندما غادرت المستشفى اليوم، غضاً مثل وردة، جلبت معي إلى البيت مصدرين للرضا. أحدهما كان الرضا من إيجاد نفسي خالياً أخيراً من هجمة وقحة من التهاب القصبات لمدة أشهر دون انقطاع نوبة من خلال صعودات وهبوطات مختلفة، كان قد رفض أن يرحل، وها هو الآن مجبر على الاستسلام ليمضي بحثاً عن مضيف آخر (أرجو ألا يجده). المصدر الثاني كان من مرتبة مختلفة. فقد صدف أيضاً أن هذا المستشفى الصغير على جزيرة لانزاروتي ـ وهذا شيء سيفاجئ كل قرائي بلا شك ـ تستخدم فيه سبعة عشر أو ثمانية عشر ممرضة برتغالية، غالبيتهن من منطقة رينهو. صدف أيضاً أنني لكي يطلق سراحي، كان علي أن أخضع للتصوير بالأشعة السينية للصدر، بحيث يكون بالإمكان أن يُدون بشكل حاسم أن المريض، كما يقولون، سليم وقادر على المغادرة. كنت أرتدي ما نسميه اليوم عادة الجرسي وعندما طلب مني أن أخلعه، نزعته ووضعته على ظهر كرسي. إن المرضة، وهي برتغالية من فلغويراس، كان عليها أن تتأكد من أن الصفائح المعدنية واضحة، ولكي تفعل ذلك، كانت مجبرة على الدخول إلى الغرفة المجاورة وعندما فعلت ذلك قال لي: «سيستغرق ذلك سوى دقيقتين، ثم سأجلب لك قميص النوم»).

أعتقد أنني كنت أرتعش. لم أكن قد سمعت كلمة كاميسولا Camisola لمدة ثلاثين عاماً، وربما أكثر، وهنا، في لانزاروتي، على بعد 1750 ميلاً عن موطني. كان ممرض شاب من فلغويراس، بدون أية فكرة عما كان يقول، كان يخبرني أن اللغة البرتغالية لا تزال موجودة.
بورك التهاب القصبات.

22 نيسان : حول استحالة مثل هذه الصورة الجانبية

«هذا النص كان المقدمة التي كتبتها لأجل كاتالوغ معرض بورتريهات فرناندو بيسوا، الذي أقيم في مؤسسة Calousete Gulbenkiar في أوائل الثمانينات، أعتقد ربما في 1985. بما أنه لا يبدو خارج المكان في مدونة كهذه، فأنا أنشره هنا[2]».

أي نوع من الصورة الوجهية [البورتريه] الذاتية كان فرناندو بيسوا سيرسم لو كان فناناً أو ـ بعبارة أفضل ـ رسام بورتريه بدلاً من أن يكون شاعراً؟ فهو إذ يقف بكامل وجهه أمام المرآة أو، ربما، بنصف صورة جانبية، يتأمل نفسه بشكل مائل بثلاث أرباعٍ نظرة، مثل شخص مخفي عن نفسه، لكنه يسترق النظر، متسائلاً أي تعبير يتخذ وكم تطول مدة النظرة؟ الشبيه الخاص به في أعمار مختلفة، إذا تتبعنا التشابهات في مختلف الصور الفوتوغرافية التي لا نزال نملكها له، وكذلك كما في سلسلة الصور غير الواضحة من الولادة إلى الممات، باتباع مسيراته الاعتيادية كل عصر ومساء وصباحاً بدءاً في لارغو دي ساو

---

[2] فرناندو بسوا: مجزة من الشعراء، 1888 ـ 1935، Servicio International da Fundacao Calouste Gulbenkian (Lisbon, 1985).

كارلوس وانتهاء بمستشفى ساو لويس؟ وماذا عن ألفارو دي كامبوس[3]، المهندس البحري الذي تدرب في غلاسغو؟ أو عن ألبرتو كاثيرو، الذي يفتقر إلى التعليم والمهنة، الذي توفي بالسل في زهرة شبابه؟ أو عن ريكاردو ريس، الطبيب المغترب الذي فقد كل أثر له، رغم التقارير الحديثة الغامضة، المشكوك في نواياها بشكل واضح؟[4].

أو مرة أخرى عن برناردو سواريس، مساعد كبير أمناء المكتبة في البلدة السفلى من لشبونة؟ ماذا حول كل الباقين، مثل غويديس أو مورا، الذين استحضروا بلا شك في مناسبات لا حصر لها أو محتملة أو ممكنة؟ هل كان سيظهر بقبعته على رأسه؟ مع رجليه المتصالبتين؟ هل يرتدي نظارتيه؟ مع معطفه المطري المصنوع من الغبردين، أم معلقاً فوق كتفيه؟ هل يمكن أن يستخدم قناعاً، على سبيل المثال يزيل الشارب ويكشف البشرة تحته فجأة ـ عارياً وبارداً؟ هل كان سيحيط نفسه بالرموز، بشيفرات من القبالة Kabbalah علامات الأبراج، النوارس فوق نهر تيجو، الأرصفة الحجرية، الأحصنة الزرقاء والفرسان الصفر، الأضرحة التحذيرية؟ أو، بدلاً من هذه الفورة من الفصاحة، هل كان سيجلس أمام المرسم مع قماشة الرسم البيضاء عاجزاً عن رفع ذراعه، سواء لمهاجمتها أو ليدافع عن نفسه ضدها، منتظراً رساماً آخر ليأتي ويرسم البورتريه المستحيلة؟ بورتريه من؟ أو ماذا؟

من فرد اسمه فرناندو بيسوا يظهر البرهان على شيء نعرفه مسبقاً حول كامونيس. عشرة آلاف بورتريهاً ـ مخربشة، مطلية، مجسمة ـ في النهاية جعلت لويس فاز غير مرئي. حتى القليل الذي يتبقى هو زائد:

---

[3] Alvaro de Campos هذا، والأسماء التي تلي، هي الأسماء المغايرة الشهيرة لبسوا، التي تتكرر في عمله.

[4] رواية ساراماغو عام وفاة ريكاردو ريس نشرت بالإنكليزية في عام 1991.

الجفن المتهدل، اللحية، إكليل الغار. من السهل أن نرى فرناندو بسوا وقد تم توظيفه على المسار نفسه المؤدي إلى اللامرئية و، بتأمل التعددية الشائعة لبورتريهات هذا الفنان، مستلهماً شهيتنا الشرهة إلى التمثيل وميسراً بكل تقاناتنا الجديدة، هذا الرجل ذو الأسماء المختلفة، التي كانت تخلط طوعاً مع مخلوقات مخيلته، سيدخل إلى الظلمة الكلية في زمن أقل بكثير مما سيدخل به الرجل الذي لا يملك سوى صورة واحدة، وإن كان ذا أصوات كثيرة. ربما سيتبين أنه ـ من يدري؟ ـ القدر المثالي لشاعر، أن يفقد المادة التي تملأ كونتور [تضاريس] وجهه، النظرة المرهقة والبشرة المجعدة التي تتحلل في الفضاء والزمن، غائراً بين سطرين مما كان قادراً على كتابته؟ كما لو من ذاك الوجه اللامعرّف، عديم الملامح يتبقى شيء آخر لرسمه، بالتأكيد ذات يوم لن يكون أكثر من ذكرى مدفونة في الذكريات، بحيث يمكن لمراهق ما أن يخبرنا أنه يملك كل أحلام العالم بداخله كما لو كان أول شخص يملك أحلاماً ويعلن الحقيقة. ثمة أسباب للاعتقاد بأن اللغة، كلها، هي عمل من أعمال الشعر.

في هذه الأثناء، يستمر الفنان في رسم بورتريه فرناندو بسوا. لازال قريباً من بداية مهمته، فهو غير متأكد حتى الآن أي تعبير يختار. كل ما يمكن رؤيته هو أدق ضربة فرشاة باللون الأخضر، عندما يحدث ذلك يظهر كلب من هذا اللون، ليرافق الفارس الأصفر والحصان الأزرق، بافتراض أن الأخضر هو نتيجة فيزيائية أو كيميائية لاتحاد الفارس وحصانه، وهي نفسها مسألة احترافية وذوقية. لكن شك الفنان الأكبر لا يتعلق باختياره للألوان، وهي مشكلة حلت منذ زمن طويل مرة واحدة وإلى الأبد من قبل الانطباعيين، لأن رجال العصور القديمة فقط ـ أولئك منذئذ فصاعداً، فشلوا في التحقق من أن لوناً واحداً يحتوي على كل

[الألوان] البقية. لا، إن الشك الأكبر للفنان هو [ويتعين أن يكون] ما إذا كان يتبنى أم لا موقفاً توقيرياً - إذا كان يرسم هذه العذراء كما وصفها القديس لوقا، على ركبتيها، أو ما إذا كان يعامل هذا الرجل كمخلوق مشرد، مثير للشفقة، مثير للسخرية في نظر حتى خادمات الفندق، اللواتي كتبن رسائل الحب العبثية واللواتي، إذا كان قد سمح لنفسه بفعل ذلك، كن سيضحكن بصوت عال عندما رسم نفسه. لذلك، فإن الخط الأخضر المرسوم ليس أكثر من ساق الفارس الصفراء على خاصرة الحصان الزرقاء. إلى أن يرفع قائد الفرقة الموسيقية عصاه، لا يمكن للموسيقى أن تنطلق واهنة أو سوداوية، ولا يمكن لمساعد الحانوت أن يبدأ بالابتسام لذكريات طفولة الفنان. ثمة نوع من الغموض البريء حول هذه الساق الخضراء، مع قدرته على تحويل نفسه إلى كلب أخضر.

الرسام يدع نفسه يُرسم عن طريق تداعي الأفكار: بالنسبة له الساق والكلب هما مجرد اسمان متغايران للأخضر، وأشياء لا معقولة كثيرة للغاية أكثر من هذا برهن أنه ممكن، لا يوجد شيء غريب في ذلك. لا أحد يمكن أن يعرف ما هي الأفكار التي تعبر رأس فنان عندما يرسم. تنجز البورتريه، وستوصل إلى العشرة آلاف أو أكثر من التصويرات السابقة. يمكن أن تكون حني ركبة خاشع أو بسمة متهكم، لا يهم أيهما، لأن كل واحد من هذه الألوان، كل ضربات الفرشاة هذه، كل واحدة تنطلي فوق الأخرى، تقترب من لحظة اللامرئية، لحظة ذاك السواد المطلق العاجز عن إعكاس أصغر جسيم من جسيمات الضوء، ولا حتى، السطوع الهارب للشمس، الذي سيدوم، في مواجهة مع ذاك السواد، لكن رفة العين أمامه اختفت إلى الأبد: متوضعاً بين التوقير والتحقير، في نقطة غير محددة ربما سيظهر الرجل الذي كان فرناندون بيسوا. فقط ربما، لأنه حتى هذا الكثير القدر ليس مؤكداً. لم يفكر ألبير

كامو مرتين عندما كتب: «إذا رغب شخص ما في أن يكون مميزاً، فيكفيه أن يقول من هو».

في معظم الحالات، أسوأ ما يمكن أن يحدث لمن يجرؤ على مثل هذه المغامرة هو ألا يكون قادراً على تقديم سوى الاسم المعطى له على شهادة ميلاده.

في حالة فرناندو بيسوا، حتى هذا لم يكن خياراً. فبالنسبة إليه، لم يكن كافياً أن يمضي في الوقت نفسه باسمي كائيرو وريس بل أضاف إليهما اسمي كامبوس وسواريس. الآن لم يعد شاعراً بل رساماً، وهو على وشك أن ينتج بورتريه صورته الذاتية، فأي وجه يجب عليه أن يرسم؟ أي اسم سوف يستعمل ليوقع اللوحة به؟ هل سيضعه على الجهة اليسرى أم اليمنى من لوحته؟ لأن كل لوحة هي مرآة، لكن لماذا، لمن، ومن أجل من؟ أخيراً نرفع ذراعه، يده تمسك بشكل ثابت الصولجان الخشبي الرقيق، دعونا نقول حول طول قلم الرصاص، لكننا نمتلك المبرر للشك؛ إنه لي مغموساً بالطلاء الأخضر أو الأزرق أو الأصفر؛ في الحقيقة، لا لون، لا طلاء يمكن رؤيته. هذا هو السواد المطلق الذي يجعل به فرناندو بيسوا نفسه لا مرئياً، وذلك بفضل عمل يديه هو. وسيبقى الرسامون يتابعون الرسم دوماً.

24 نيسان : إدواردو غاليانو

حدثت إثارة عظيمة على أعمدة الصحف وعلى الراديو والتلفزيون عبر العالم عندما اقترب هوغو تشافيز من باراك أوباما وهو يمسك كتاباً في يده. كان واضحاً، فأي شخص محبو بالحد الأدنى من الفطرة السليمة كان سيظن أن هذه لم تكن لحظة مختارة جيداً لطلب

أوتوغراف من رئيس الولايات المتحدة، هناك في وسط اجتماع قمة. مع ذلك، كما رشح من معلومات، لم يكن ذلك هو ما قصده تشافيز. بدلاً من ذلك، كان يقوم بتقديم عرض جرى توقيته بدقة، *الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية* من رئيس دولة إلى آخر، ليس سوى نسخة من كتاب **الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية** من تأليف إدواردو غاليانو. من الواضح أن ذلك كان ينبغي أن يكون إيماءة ذات دلالة ما. فتشافيز سيكون قد فكر في نفسه: «هذا الرجل أوباما لا يعرف شيئاً عنا، فهو كان بالكاد قد ولد عندما ظهر هذا الكتاب، لكن غاليانو لا زال بإمكانه أن يعلمه شيئاً». دعونا نأمل أن يكون الأمر كذلك. الجزء الأكثر إثارة للاهتمام في الحادثة، مع ذلك، هو أنه بعد ذلك حدث ليس فقط أن كتاب **الشرايين المفتوحة** قد نفد مباشرة على موقع أمازون، قافزاً في لحظة من موقع متواضع جداً في أسفل قائمة المبيعات إلى مرتبة القمم المجيدة مع الكتب الجديدة الأكثر مبيعاً (بست سلر) ـ مرتفعاً من موقع الخمسين الألف إلى الرقم اثنين ـ بل ظهرت في الوقت نفسه كل هذه الانتقادات السلبية التي بدت أنها تعمل في تناغم (كان هذا ملحوظاً بشكل خاص في الصحافة الرخيصة)، إذ شاركت كلها في فضح الزيف في عمل غاليانو، الذي تخمر عن طريق تلميحة الاستحسان المجردة، لكنها تصر في معظمها على أنه بالإضافة إلى كون الكتاب قد أفسدته التحليلات الضعيفة المستندة على أسس مهزوزة و التصورات المسبقة الأيديولوجية الملحوظة، فقد كان الكتاب أيضاً غريباً تماماً عن الواقع الحالي. في حين أنه من الصحيح أن كتاب *الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية* نشر لأول مرة في عام 1971 ـ منذ حوالي أربعين عاماً ـ فهذا هو الحال أيضاً أنه ما لم يكن المؤلف صنفاً من نوستراداموس، لا يمكنه إلا بمأثرة هرقلية من التخيل أن ينجح في توقع واقع الحياة في عام

2009، إذ تبين أن هذا العام كان مختلفاً كلياً حتى عن آخـر الأعـوام المتخللة لهذه الفترة. بغض النظر عن الإيمان السيء لهـؤلاء النقـاد غـير المسـؤولين، فـإن اتهامـاتهم تـثير السـخرية كـالقول إن كتـاب *الفـتح الحقيقي لإسـبانيا الجديـدة The True Conquest of new spain* الـذي كتبـه برنـال ديـاز دل كاسـتيلو في القـرن السـابع عشـر يعـج بـالتحليلات المصـاغة بشـكل رديء والمثقلـة بالتحامـل الأيـديولوجي. الحقيقة هي أن كل من يريد أن يتـزود بالمعلومـات حـول مـا حـدث في أمريكا[5]، ذاك الامتداد العابر للقارة بأكملها منذ القـرن الخـامس عشـر فصاعداً، لا يمكنه أن يصل إليها إلا من قراءة إدواردو غاليانو. المشـكلة مع هؤلاء النقاد وغيرهم الذين يحتشدون حالياً هي أنهم أنفسهم يعرفون القليل للغاية من التاريخ. لأننا الآن في الوقت الحاضر لا نحتـاج سـوى للانتظار والمراقبة لنرى كيف يستفيد باراك أوباما من الدروس الموجـودة في كتاب *الشرايين المفتوحة*. على الأقل إنـه بالتأكيـد يمتلـك مقومـات التلميذ الجيد.

27 نيسان : فتيان بالأسود

أخبرتني إحدى صـديقاتي الطيبـات ـ الفنانـة صـوفيا غانـدرياس ـ أنها عندما كانت، منـذ سـنوات خلـت، في رحلـة عمـل إلى سـريلانكا (التي تعرف سابقاً باسم سيلان) فوجئت بوجود عصابات من الشبان في الشوارع وكلهم يرتدون ثياباً سوداء. لم يكن يبدو لها أنه اللبـاس المميـز

---

[5] أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبيـة همـا بـالطبع أمريكـا أيضـاً، وتمتعضـان بعمـق مـن مصادرة أمريكا الشـمالية لاسـمهمـا المشـترك (المـأخوذ مـن اسـم رسـام الخـرائط الإيطـالي القديم، أمريغو فسبوتشي).

لطائفة أو لجماعة إثنية معينة ليس أقله لأنه لم يكن ثمة بالغون حولهم يرتدون بالطريقة نفسها. بالاستفسار من أحد الشبان ثم من بالغ تلو الآخر، خلصت في النهاية إلى الجواب على السبب في أنهم يعتمدون هذا الشكل غير المعتاد من الثياب. فعائلات هؤلاء الشبان كانت قد أقتنعت بعد الإلحاح عليها بتسليم أولادها إلى المقاتلين الإسلاميين الذين كانوا يمارسون النسخة الأكثر تطرفاً من إيمانهم، الجهاد، أو الحرب المقدسة. ربما كان ذلك لكي يروهم ذات يوم وقد تحولوا إلى شهداء الثورة الإسلامية، بعبارة أخرى، ليجدوهم ملفعين بثوب أخير، ثوب السترة المحشوة بالمتفجرات لمفجر القنابل الانتحاري الذي يفجر نفسه في سوق أو نادي ليلي، أو مرآب سيارات في أي مكان يقع فيه أكثر عدد ممكن من القتلى. لا أعرف ما إذا كان هؤلاء الآباء والأمهات يمنحون تعويضات مالية، أم أنهم يفعلون ذلك على وعد واثق بدخول أبنائهم الفوري إلى الجنة لملاقاة الله. ولم أعرف أيضاً ما إذا كان هؤلاء الشبان بستراتهم السوداء لا زالوا ينتظرون وصول لحظتهم المحددة، أم أنهم لم يعودوا في هذه الدنيا. لا أعرف أي شيء. وسأنهي هنا. ليس معنى ذلك أن الكلمات تخونني، بل لإن الموضوع بغيض لي.

28 نيسان : ذكريات

نحن الذاكرة التي نحتفظ بها؛ فلولا الذاكرة لما عرفنا من نحن. هذه الجملة، التي قفزت إلى ذهني منذ سنوات كثيرة، وسط اهتياج المؤتمرات والمقابلات العديدة التي يفرضها عملي علي، لم تظهر لي مباشرة كحقيقة مبجلة فقط، أقصد واحدة من تلك الحقائق التي لا تقبل أي جدل، بل أيضاً ظهرت محبوة بتوازن شكلي، تناغم ضمن عناصرها

بحيث يجعل ـ أو هكذا ظننت ـ من السهل إلى أقصى درجة على مستمعي وقرائي أن يتذكروها. وإلى الحد الذي يصل إليه غروري، وأنا مسرور بأن أضيف أن ليس كل شيء يصل إلى ذاك الحد، فأنا فخور بأن أكون المؤلف لهذه الجملة. هذا، رغم حقيقة أن التواضع، الذي أنعم علي به بالقدر نفسه، يهمس في أذني الأخرى من حين لآخر بكل جدية أن ما قلته كان أكيداً مثل طلوع الشمس من الشرق. بعبارة أخرى، كان ذلك واضحاً بشكل صارخ.

حسناً، كان يبدو الحال أنه حتى أوضح الأشياء ظاهرياً ـ كما بدا هذا الشيء ـ هي عرضة للشك في أية لحظة مفترضة. وهذا كذلك مع ذاكرتنا، التي وفقاً لأحدث المعلومات، هي بكل معنى الكلمة وببساطة معرضة لخطر التلاشي ـ خطر الانضمام، في طريقة الكلام، إلى قائمة الأنواع التي في طريقها إلى الانقراض.

وفقاً لمصادر المعلومات الجديدة، المنشورة في المجلات العلمية المحترمة مثل مجلة Nature و Learn Mem[6]، فقد تم اكتشاف جزيء اسمه ZIP (ليس معنى ذلك أن الاسم يقدره حق قدره) قادر على حذف كل الذكريات، الجيدة أو السيئة، السعيدة أو المؤذية، تاركاً الدماغ متحرراً من عبء الذاكرة المتراكم طوال سنوات العمر مهما كان طويلاً.

29 نيسان : إنفلونزا الخنازير (1)

لا أعرف شيئاً عن الموضوع، والتجربة المباشرة للعيش مع الخنازير أثناء طفولتي ومراهقتي لا تفيدني هنا. كانت أسرتي، أكثر من أي شيء آخر، أسرة هجينة من البشر والحيوانات. لكنني أقرأ الصحف بانتباه

---

[6] الاسم الفعلي Learning and Memory.

واسمع وأراقب تقارير على الراديو والتلفزيون، وبفضل كمية من القراءة المقتصدة التي ساعدتني على الفهم الأفضل لخلفية الأسباب الأصلية لما تسمى الجائحة، ربما يمكنني هنا أن أنوه إلى بعض الحقائق التي ستخدم بدورها في تنوير القارئ. لفترة من الزمن اقتنع الأخصائيون في علم الفيروسات عندنا بأن المنظومات الزراعية المكثفة للصين الجنوبية كانت السبب الرئيسي لطفرات الإنفلونزا، وذلك غالباً من خلال انزياح الفصول كما من خلال أحداث التبادل الجينومي. انقضت الآن ستة أعوام منذ نشرت مجلة ساينس Science مقالة هامة تبين فيها أنه بعد سنوات من الاستقرار، قام فيروس انفلونزا الخنازير الأمريكي الشمالي بقفزة تطورية مدوخة.

إن سيرورة تصنيع إنتاج الخنازير، من قبل الشركات الكبرى، قد كسرت ما كان حتى حينه حكراً طبيعياً للصين على نشوء الإنفلونزا في السنوات الأخيرة، تم تحويل قطاع الخنازير من المشاريع الزراعية الأميركية إلى شيء أكثر شبهاً بالصناعة البتروكيميائية من شبهه بالمزرعة العائلية الريفية التي تستمتع كتب النصوص المدرسية في وصفها.

في عام 1966، على سبيل المثال، كانت الولايات المتحدة تمتلك 53 مليون خنزيراً، موزعة في حوالي مليون مزرعة ريفية. اليوم، يوجد 65 مليون خنزير مجمعة في حوالي 65000 مزرعة معملية. هذا يدل على انتقال من تربية الخنازير التقليدية إلى الجحيم البرازي العملاق ليومنا هذا، حيث، تربى عشرات الملايين من الحيوانات، وسط روثها والحرارة الخانقة، القادرة على تبادل العوامل المسببة للأمراض بسرعة الضوء، فيمتد الضرر إلى أبعد من مجرد أنظمتها المناعية الذاتية.

هذا، بلا شك، لن يتبين أنه السبب الوحيد للإنفلونزا الجديدة. ومع ذلك فإن هذا السبب لا ينبغي تجاهله. سأعود إلى الموضوع.

30 نيسان : انفلونزا الخنازير (2)

دعونا نتابع الآن. في العام الماضي، نشرت لجنة مشكلة من قبل مركز أبحاث بيو Pew بياناً حول «الإنتاج الحيواني في المزارع الصناعية، حيث لفت الانتباه إلى الخطورة الفادحة للانتشار المستمر للفيروس، وهي صفة مميزة للقطعان والأسراب المفرطة الحجم، ما يزيد فرصة ظهور فيروسات جديدة من خلال سيرورات التطفر أو إعادة التشكل، التي تؤدي إلى نشوء فيروسات جديدة أكثر فعالية في الانتقال إلى البشر». وذعرت اللجنة أيضاً بحقيقة أن الاستعمال غير المدروس للمضادات الحيوية في مصانع الخنازير ـ الأرخص من المضادات التي تعطى للبشر ـ كان يتناسب طرداً مع فورة إنتانات المكور العنقودي المقاومة، في الوقت نفسه فإن المواد المتبقية من نفايات هذه المصانع زادت من وجود الإيشرشيا كولي E- coli والبفيستريا Pfiesteria (الحيوان الأولي الذي كان يقتل ملايين الأسماك وعشرات المصابين من صيادي الأسماك في مصبات أنهار شمال كارولينا).

إن أي تحسين على البيئة يتم تحقيقه بفضل دراسات هذا التهديد المرض الجديد، سيتعين أن يمر عبر مواجهة مع السلطة الهائلة للتكتلات الكبرى لشركات استثمار الطيور وحيوانات الماشية الكبرى، مثل شركة سميثفيلد (للخنازير والأبقار) وتايسون (للدواجن). فقد تحدثت لجنة الأبحاث عن إعاقة ممنهجة لاستقصاءاتها من طرف شركات الأعمال الكبرى، اشتملت على تهديدات مخفية بالكاد بإيقاف شيكات الرواتب لأي مفتش زراعي يتبين أنه يتعاون مع اللجنة. هذه هي نتيجة وجود صناعة معولمة على مستوى عال تتمتع بنفوذ سياسي واسع. وهو ما حصل مع مصنع الدواجن العملاق المسمى تشارون

بوكفاند، الواقع في بانكوك، الذي كان قادراً على تعطيل التحقيقات في الدور الذي لعبه في انتشار أنفلونزا الطيور عبر جنوب شرق آسيا. يبدو الآن الأكثر رجحاناً أن المحاولات لإثارة قضية بسبب التفشي ما وراء البحار لأنفلونزا الطيور قد اصطدم بحدة بالجدار الصلب لصناعة لحم الخنزير. هذا ليس معناه أن الصناعة لن تجد نفسها وقد أشير إليها بإصبع الإدانة: ففي المكسيك يشاع أن المركز السطحي لتفشي أنفلونزا الخنازير هو في أكبر فروع شركة سميثفيلد، الواقع في فيراكروز. لكن الجانب الأهم هو دائماً الغابة، وليس الأشجار: في هذه الحالة، فإن الاستراتيجية الفاشلة المضادة للأوبئة لمنظمة الصحة العالمية، والتدهور المضطرد للصحة العامة العالمية؛ الطاقم المستخدم من قبل الشركات الصيدلانية العابرة للقوميات على الأدوية الأكثر أساسية وحيوية، والكارثة الكوكبية التي هي إنتاج الخنازير على صعيد صناعي، المنفذة بتجاهل مطلق للبيئة.

كما تبين، فإن الإنتان ينتشر وهو أعقد بكثير من الدخول البسيط للفيروس ـ القاتل بشكل مفترض ـ إلى رئتي مواطن عالق في شبكة من المصالح المادية التي لا تضبطها أية محاذير من طرف الشركات الكبرى. كل هذا يصيب كل الآخرين. كان أول موت ـ وذلك منذ زمن طويل ـ هو موت الشرف. هل يمكن للمرء أن يتخيل بشرف المطالبة بالشرف من شركة عابرة للقوميات؟ من سينقذنا الآن؟

أيـار / مايـو 2009

1 أيار: خافيير اورتيز

... مات واحد آخر. عندما وجدتني الظروف على هذه الجزيرة الأفريقية، أتناوب العيش هنا مع الإقامات المطولة في لشبونة، بفضل بيلار لم استغرق وقتاً طويلاً للوصول إلى معرفة جماعة من الصحافيين الذين أثروا في تأثيراً كبيراً، من ناحية أولى، بمدى اختلافهم عن أولئك الذين تعودت عليهم في بلدي الأصلي. أسماؤهم هي مانويل فنسنت، راؤول دى بوزو، خوان خوسيه ميلاس، وخافيير اورتيز. إن البراعة الأدبية الممتازة وحدة الإدراك النادرة، وحس الفكاهة الراقي هي بعض الصفات المميزة التي يشتركون بها، باستثناء خافيير اورتيز، الذي كان يشاطرهم، لأنه توفي مؤخراً. من بين الأربعة، كان خافيير هو الأكثر نشاطاً من الناحية السياسية. فقد كان رجل اليسار الذي لم يخف أفكاره ولم يوهنها، وحقق مأثرة المحافظة على أقوى المواقف الأيديولوجية. في حين كان لا يزال يعمل كصحفي لصالح إلموندو El Mundo، فقد كان فريداً في رفضه تقديم أدنى تنازل كان من الممكن أن يفيده في عمله. في حين يجرؤ في الوقت نفسه على معارضة الخط التحريري اليميني الذي تبناه محرر إلموندو، بدرو ج. راميريز، عندما سمح للصحفية أن تقع في غرام خوسيه ماريا أزنار. الآن هو في عداد الأموات، فلم يعد هناك أي جواب

على السؤال الذي اعتدنا طرحه بشكل منتظم: «ماذا سيستفيد خافيير اورتيز من ذلك؟».

وصلت العلاقات بيننا إلى نقطة سعيدة بشكل خاص عندما أعطيته مقابلة تم نشرها، إلى جانب مقابلات مع نعوم تشومسكي وجيمس بتراس، وإدوارد سعيد، وألبرتو بيريس وأنطوني سيغورا، في كتاب حرره اورتيز عنوانه *Palestina existé* (*فلسطين موجودة*) [الذي نشرته دار فوكا].

بما أنني عدت مؤخراً من إسرائيل (حيث تركت ذيول فضيحة سياسية) وكانت حول نقطة الانطلاق إلى الولايات المتحدة، حيث كنت بصدد أن أطلق كتاباً وأعطي عدداً من المقابلات الأخرى، فقد أجريت مقابلتنا عن طريق البريد الالكتروني بشكل كامل، في حين أنني طرت فوق المحيط الأطلسي ثم من ساحل إلى ساحل عبر القارة الأميركية الشمالية. تلك كانت الكيفية التي توصلت بها إلى معرفة ذكاء خافيير اورتيز وجدله الألمعي، والأفضل من ذلك كله، خصاله الإنسانية. يعرف قليل من الناس أن خافيير كتب نعوته الخاصة، وهي نص ساخر بشكل ممتاز ومزيل للغموض ينبغي أن يكون قد نشر في كل صحيفة. من العار أنه لم ينشر. الآن هي اللحظة المناسبة لنرسل ابتسامة أخيرة له، والابتسامة التي اكتسبها على وجهي المقصود بها بطريقة صغيرة أن تتحدى موته.

نعوة: خافيير اوتيرا: كاتب عمود في صحيفة

توفي البارحة الكاتب والصحفي خافيير اورتيز إثر نوبة قلبية. كان ذلك شيئاً يعرف مؤلف هذه السطور جيداً أنه سيحدث، وتلك كانت

الكيفية التي استطاع بها أن يتنبأ بموته، فلا شيء أكثر حتمية من الموت بنوبة قلبية. طالما كنت مستمراً في التنفس وقلبك مستمر في الخفقان، لا يعلنون أنك ميت.

تلك هي الكيفية التي نتوصل بها إلى أن نكون حيث نحن (حسناً، إنه ليس موجوداً، لم يعد موجوداً)، كان خافيير الابن السادس لمعلمة مدرسة من ايرون، اسمها ماريا إستيفيز سائير، ومدير إداري من مدريد، اسمه خوسيه ماريا اورتيز كروسيلز. أما جداه فكانا، على التوالي، رجلاً نبيلاً من غرناطة له مظهر الشرطي ـ ولذلك ما يبرره، نظراً إلى حقيقة أنه كان بالفعل شرطياً ـ وسيدة مثقفة وجذابة كانت كنيتها هي روسللون؛ وضابط جمارك شريفاً وعاقلا من أورنس محبواً بمهارات معتبرة بوصفه خطاطاً، وأرملة من هارو، كان زواجها الثاني مع الآنف الذكر، خافيير إستيفز كارتل، الذي اشتقا منه الاسم المسيحي للمتوفى حديثاً. إذا كان أي من هؤلاء الأسلاف يحمل أية أهمية على الإطلاق بالنسبة لنا، ومن الواضح أنهم يحملونها، فإن ذلك يكمن في البرهان الذي يقدمونه وهو أن امتزاج الأعراق، خلافاً لما يعترف به الآخرون بشكل منتظم، لا يحسن النسب بالضرورة (أرجو أن تلاحظوا التشكيلة الغنية من الأسلاف الذين احتاجها الأمر للوصول إلى إنتاج ذكر باسكي قصير أصلع).

أمضى خافيير اورتيز طفولته في مدينة سان سباستيان، التي كان يشعر أنها بيئته الطبيعية، لأنه ولد هناك. لقد نذر نفسه بشكل أساسي لمراقبة ما كان يجري حوله، وبالأخص صدور السيدات ـ لقد توفي الآن، فيمكننا أن نكشف سره البريء هذا ـ ولدراسة الموضوعات العويصة مثل مدن البيرو الساحلية، التي ظل يذكرها إلى آخر رمق من حياته. كافح الجزويتيون ليضعوه على طريق الصلاح، لكنه تعلم مبكراً أنه في الواقع

شيوعي: وهذا أفسد كلياً أية فرص لمهنة دينية - التي أظهر لأجلها حتى ذاك الوقت وعداً ملحوظاً - خصوصاً عندما كان قد لاحظ بانزعاج الاهتمام الذي كان بعض الكهنة يبدونه بأدواره الخصوصية.

نشر مشروعه الأدبي الأول في صفحات جريدة جامعية، وكان - بشكل مثير للفضول - سجل وفيات، أظهر فيه بوضوح أن سيرته المهنية في الصحافة يمكن أن تكون ذات وجهين، وهو ظرف خصوصي كان بإمكان القليلين أن يتنبأوا به، حتى في الحدث غير المحتمل الذي حاولوا أن يفعلوا ذلك.

في سن الخامسة عشرة، قرر، وقد سئم من المظالم الإنسانية - كانت إحداها النزعة الذكرية الهوسية إلى المراقبة الدقيقة للصدر الأنثوي - أن يصبح من أتباع ماركس ولينين. على مدى السنوات التالية كان ملزماً باستحضارهما كعذر لسلوكه، حتى رغم أن هذا كان يسبب حنق بعض الأعضاء مفرطي النشاط من البوليس السياسي لفرانكو.

منذ ذلك الوقت فصاعداً، كرس نفسه بحماس صادق لجنس المنشور النبيل، بلا توقف يومياً. عاماً بعد عام. ظل يبدل عناوينه، ليس دائماً كمسألة أو إلى حد ما اختياره هو - هنا نتوقف لنذكر بشكل خاص فتراته المختلفة في السجن وفي المنفى، أولاً في بوردو، ثم في باريس - التي لم تخمد أبداً إخلاصه الذي لا ينطفئ التحريض السياسي، الذي زعم أنه اكتسبه، كيفما بدا ذلك عبثياً - وهو في الحقيقة كذلك - من قراءته لكتاب *مذكرات بيكويك* المنشورة بعد وفاته من تأليف دون كارلوس ديكنز، وكتاب Aventuras، inventos Y – mixtificaciones من تأليف الدون بيو دي باروجا.

– بوردو، باريس، برشلونة، بما في ذلك في [السوق] السوداء أثناء فترات الفقر المدقع الشديد. في بعض الأحيان حتى لم يعمل من أجل شيء

سوى مدريد، بيلباو، أليكانتي، سانتاندر.... ذهب إلى أمكنة لا تعد ولا تحصى ودخل في حفر سقاية لا تحصى بدون التوقف عن الكتابة للحظة، حيثما كان بمقدوره أن يطوف. فقد كتب مقالات لأجل Zunik، Servir al Pueblo، Saida، Liberacion ـ وMar و Mediterranean Magazine ـ و El Mundo، ودزينة أو أكثر من الكتب، ونشرات إذاعية كثيرة، وعدداً قليلاً من النشرات التلفزيونية... لكي يظل يكتب، كتب في آخر المطاف من أجل الجميع، بدافع الصداقة.

ولكوني متأثراً بعمق بقراءة Selection from the Reader's digest أميركية أخرى، قررت ذات يوم أن أحصي كم ميلاً تغطي كتاباته، لو قرر ذات يوم أن يعلقها كلها في خط طويل من المطبوعات قياس 12 نقطة. فكانت النتيجة لحساباتي الحاسمة ستمتد إلى الأبد.

في مسائل القلب (التي سيكون من الإجحاف فيها أن نقول إنه كان يفتقر إلى درجة ما من الخبرة)، كان نهما بالقدر نفسه. فقد اعتاد أن يقول إن أفضل النساء وأكثرهن رعاية ونبلاً اللواتي تشارك معهن حياته (بدون أن يستبعد بشكل دوغمائي أياً من الأخريات) كانت أولى وآخر من ظهرن فيها. حتى رغم أن مفضلته جاءت في المنتصف ـ ابنته، آن.

وكل هذا ينتهي بشيء تافه كالموت. بفضل نوبة قلبية، كما شرحنا سابقاً.

أخيراً، ترك موقع آخر شاغراً. هذا شيء، على الأقل.

خافيير اورتيز، كاتب وصاحب عمود في صحيفة، ولد في دونوستيا (سان سباستيان) في 24 كانون الثاني 1948، توفي البارحة في أيغويتر (أليكانتي)، بعد كتابة النعي الوارد أعلاه.

2 أيار: الطـرد

آمل في القريب العاجـل جـداً أن يـتم التعـرف علـى هويـات الـذين يهاجمون فيتال موريرا. بعد كـل شـيء. مـن هـم؟ مـا الـذي أتـى بهـم للتحريض على وقائع بغيضة مثيرة للغاية من كافة النواحي؟ أية صلات حزبية يمتلكون؟ لا شك في أن الجواب الأكثر إيضاحاً سيكون الجـواب الذي قدم لنا علـى السـؤال الأخـير. إنهـم يـذكرون اسـم فيتـال مـوريرا كخائن وهذا، سواء أحببتم أم لا، هو بشكل واضح الحبل السري الـذي يربط الحدث الخسيس لمسيرة الأول من أيار بافتراق فيتـال مـوريرا عـن الحزب الشيوعي منذ عشرين عاماً. الآن نشهد شيئاً ما نحن على معرفة به، كلنا، تمظهر للانعدام الأكثر سماجة للصدق، سواء في تقديم الأعذار أم، إذا كنت الطرف المتأذي، في المطالبة بالاعتذارات من الآخرين. من المفاجئ، أن لا أحـد يهـتم بمعرفـة مـن هـم مهـاجموه، أولئك الورثـة المشهورون لمتنفذي الماضي ذوي الهراوات المكسوة بالجلد المعجدين الذين لعبوا دوراً سياسياً هاماً ببساطة عن طريـق الضـرب حـولهم بهـراواتهم. ليس بنية البدء بمجادلة، بل لأسـباب الصـحة العقليـة، كنـت أود أن أعرف ما هـي العلاقـة العضـوية القائمـة (إن وجـدت) بـين المهـاجمين والحزب الذي كنت فيه ناشطاً على مدى الأربعين عاماً الماضية. هل هم أيضاً ناشطون؟ هل هم مجرد متعاطفين أم رفاق درب؟ إذا كـانوا مجـرد متعاطفين، فإن الحزب يمكنه أن يفعل القليـل حـولهم، أمـا إذا كـانوا ناشطين، فيمكنه أن يفعل بالطبع.

على سبيل المثال، يمكنـه أن يطـردهم. مـاذا لـدى السـكرتير العـام ليقوله لهذه الفكرة؟ أم هم محرضون من خارج عالم السياسة، دفعوا إلى اليأس عن طريق معاناة الأزمة الحالية ويعتقدون أن عدوهم هـو الحـزب

الاشتراكي والمرشح المستقل لأجل الانتخابات الأوروبية؟ من السهل جداً أن نبسط الأمور، في الشوارع وفي الحكومة.

رغم أنه كان على قائمة المرشحين، فإن هذا الفائز بجائزة نوبل للأدب لم يتوصل إلى أن يجتمع مع صديقه فيتال موريرا داخل البرلمان الأوروبي. قد يقول المرء إن هذا كان خطأه، لأنه كان يريد دائماً أن يعمل بطرق خارج التيار السائد الانتخابي، لكن بالجدير الذكر أيضاً أنه في أي وقت من الأوقات لم يمارس عليه أدنى ضغط ليفعل أي شيء آخر. ولا حتى برلمان الجمهورية كان قد استفاد من مواهبي الخطابية الرائعة. أنا لا أشتكي، نظراً إلى أن ذلك قد منحني مزيداً من الوقت لأجل كتبي، لكن مع ذلك، فإن بعض الشرح مطلوب. آمل أن ذلك لم يكن لأنهم كانوا أيضاً يعتبرونني خائناً، لأنني كنت بشكل واضح مناضلاً منضبطاً، رغم أنني في بعض الأحيان اختلفت مع القرارات السياسية لحزبي. على سبيل المثال، أننا كان ينبغي أن نقدم قوائم منفصلة إلى الجزء من البرلمان المعروف باسم غرفة نواب لشبونة، قوائم ينبغي أن نسلمها إلى سانتانا لوبيز، ظاهرياً لكي نضمن أن لا أحد يلطخ عذرية الميثاق البلدي. يغري المرء بالقول، «لعل الله يبررنا»، نظراً إلى أننا أنفسنا غير قادرين على فعل ذلك.

4 أيار: بنديتي Benedetti

كان ذلك فزعاً كبيراً: كان بنديتي في المستشفى، حيث قيل إن حالته كانت خطيرة. كان أنخل غونزالز قد رحل عنا بدون إنذار تقريباً، ذات صباح بارد في كانون الثاني، والآن حياة ماريو بنديتي في خطر، هناك في مونتيفيديو البعيدة، وعندما وصل الخبر إلى هنا، ملأنا

بقلق لا يطاق فقد شعرنا أن شيء مطلقاً يمكننا فعله. هل نرسل برقيات، بالطريقة القديمة؟ هل نرسل رسائل عبر أصدقاء مشتركين؟ هل نرتل صلاة لأجل شفائه العاجل، رغم أن ذلك بالتأكيد سوف يخاطر بإثارة غضب صديقنا ماريو العلماني؟ وجدت بيلار الحل. رغم كل شيء، من كان ماريو بنديتي، حقاً؟ من كان طوال حياته؟ ماذا كان أهم شيء بالنسبة له من بين المهن الكثيرة التي مارسها؟ لقد كان شاعراً. لذلك، قالت بيلار، دعونا نرفع قصائده من حيث كانت معلقة إلى الصفحة ونخلق سحابة من الكلمات، من الأصوات والموسيقى، كلمات بنديتي وأصواته وموسيقاه، التي ستعبر المحيط الأطلسي وتحلق مثل أوركسترا حافية أمام نافذة المستشفى التي يجب ألا تفتح، تهدهده في نومه وتضع ابتسامة على وجهه الصاحي.

إننا ندين بشيء ما إلى أطبائه، يجب القول، لكننا ـ كل أولئك حول العالم الذين قدموا مساهمتنا الشخصية بوصل إلقاءاتنا المتعددة لقصائد بنديتي ـ لعبت دوراً في شفائه. ماريو بنديتي الآن أفضل. لذا دعونا الآن نقرأ واحدة من قصائده.

5 أيار: قديس في البيت

تقول لازمة الأغنية إن قديسي البيت لا يجترحون المعجزات، على الأقل ليس قبل أن تقرر الكنيسة، ذات يوم أو آخر، أن تثبت أنهم يفعلون ذلك. إذا كان الرب مسؤولاً عنهم، فإن المشكلة المتبقية الوحيدة تكمن في توثيقها، في جمع الأدلة الكافية، وفي إثبات جدارتها بالثقة. كان يبدو أن نونو آلفاريس بيريرا، الذي أعتبر في الآونة الأخيرة مباركاً من قبل القديسة مريم كنيسة الروم الكاثوليك، اجترح معجزة واحدة في

حياته، مجرد واحدة، لكنها أكثر من كافية له ليرفع إلى أسمى مكان على المذبح من قبل البابا راتزينغر، الذي كانت، بالنسبة له، أية معجزة قديمة ستفي بالمطلوب. كانت امرأة تقلي سمكة (هل كانت فعلاً سمكة؟) أصابتها في العين قطرة من الزيت الغالي، سببت لها جرحاً ـ قرحة، أو شيئاً من هذا القبيل ـ ودرجة من الألم، مع خطر فقدانها للبصر في تلك العين. طلبت المرأة النجدة من شخص مبارك من القديسة ماري فشفي الجرح فوراً. على الأقل هذا هو ما يمكن استنتاجه من المعلومات المتراكمة عن طريق لجنة الفاتيكان المكلفة بالتحقق من لياقة المرشحين الذين يمرون بعملية التطويب. النتيجة هي أننا في القريب العاجل سيكون لدينا قديس برتغالي آخر على القائمة المقدسة.

كان نونو ألفاريس بيريرا، حاكم البلاد، دائماً حجر الزاوية للنظام التعليمي البرتغالي ـ بدءاً بأيام الطفل الأولى في المدرسة الابتدائية ـ عندما بات يشكل الروح الأهلية والعاطفة الوطنية لمواطنينا في المستقبل. فهذه رغم كل شيء، كانت الأيام الخوالي الجيدة. لقد كان محارباً لا يهزم (دعونا نستذكر أتوليروس وألجوباروتا)، مرآة الفضائل، مثالاً سامياً على الإخلاص للوطن والولاء المطلق للملك، هنا في البرتغال كل مأثرة يقوم بها نونو ألفاريس تكون مثيرة للذهول الأكبر للعالم؛ لم يكن هناك داعٍ لانتظار وصول الإمبراطورية الخامسة كما تنبأ بذلك الأب أنطونيو فيثيرا، أو تحقق نبوءات الإسكافي باندارا. ومع ذلك، كانت حياة هذا الشاب النظيف تخفي لطخة منتشرة، اعتدنا أن نغض أبصارنا بخشوع عنها، كلما كنا لا نختار ببساطة أن نبقى ناظرين في الاتجاه المعاكس. فنونو ألفاريس بيريرا كان رجلاً ثرياً، ثراء فاحشاً. فبفضل التسامح الجدير بالامتنان للملك خواو الأول لأجل الخدمات المقدمة، استمر في اكتساب السلع والأراضي طوال حياته، إلى الدرجة

التي بات يمتلك فيها من الأراضي أكثر من أي نبيل آخر من نبلاء عصره، بمن فيهم ـ مهما كان يبدو ذلك خارقاً للمألوف ـ مالك البيت الملكي نفسه.استمر هذا الوضع حتى اليوم الذي أدرك فيه الملك خواو الأول نهائياً أنه لو استمرت الأمور بتلك الطريقة، لانتهى به الأمر بلا بلد له. فلو حدث ذلك في يومنا هذا، لكان ببساطة قد صادر الملكيات، لكن في عصره كان أفضل شيء هو إعادة شراء ما كان قد أعطاه لنونو ألفاريس بيريرا وكذلك لمارتيم فاسكيز دا كونها؛ خواو فرنانديز باتشيكو؛ خواو غوميز دا سيلفا، وآخرين. كان السيد مشهوراً بولعه بالمشاكسة، لقد وجد نفسه مجبراً على الذهاب إلى إستريموز، فأرسل، كما ذكر فرناو لوبز، يسأل «عن بعض الأشخاص، حتى أولئك الذين خدموا في الحرب مثل الآخرين بين أصدقائه وخدمه، كان البعض منهم قبلئذ موجودين مع أولئك الذين كان يتحدث معهم الكونت، قائلاً كيف أن الملك[1] كان قد استعاد من طرفه بعض الأراضي التي منحه إياها مكافأة له على خدماته، أما سبب الكونت في ذلك فهو أن شرفه كان مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بمقدار الأرض التي كان يملكها لذلك لم يكن بمقدوره أن يتحمل أن يجد نفسه ضعيفاً بتقليصها، وهكذا كان يرغب في الرحيل إلى هناك من المملكة للبحث عن ثروته، دائماً وأبداً في خدمة الراي....». لم ينفذ هذا المخطط؛ فنهر التيجو Tejo لم يحمر بالدم؛ نونو ألفاريس بيريرا حتى لم يغادر البرتغال؛ لكن التاريخ تُرك مع لغز: بماذا كان السيد على الأرض يفكر عندما قال إنه حتى في أثناء «هجرته» (إلى أين؟ لماذا؟ مع من؟) سيبقى دائماً في خدمة الملك؟ ليس لفرناو لوبز شيء آخر ليحكيه لنا حول الموضوع، ونحن نجد أنفسنا نصد بفكرة أن

---

[1] الذي يسمى بشكل ساخر el – Rei.

نونو ألفاريس من المكن أن يكون قد ذهب وعرض خدماته على القشتاليين.... كله سواء، ثمة شيء مريب في حقيقة أن البابا كان ينبغي أن يعلن تطويبه باسم نونو ألفاريز...[2].

7 أيار: إنسان جديد New Man

ثقافياً، إن تعبئة البشر من أجل الحرب أسهل من التعبئة لأجل السلام. فعلى مدى التاريخ، تربى البشر على اعتبار الحرب الوسيلة الأكثر فعالية لحل النزاعات، واستفاد الذين في السلطة دوماً من أية فترة فاصلة قصيرة من السلام للاستعداد لحروب المستقبل. لكن الحروب كانت دائماً تعلن باسم السلام. أبناء الوطن يضحى بهم دائماً اليوم لكي يؤمنوا السلام من أجل الغد.

يقال هذا ويكتب ويُؤمن به ليكون معلوماً أن الإنسان، كيفما تربى تقليدياً من أجل الحرب، يحمل مع ذلك في روحه توقاً أبدياً إلى السلام. هذا هو السبب في أنه غالباً ما يستخدم هذا التوق كوسيلة للابتزاز الأخلاقي من قبل محبي الحرب: لا أحد ـ لكن لا أحد ـ يعترف بشن الحرب كرمى للحرب. بدلاً من ذلك فإن الجميع ـ لكن كل واحد ـ يزعم أنه يخوض الحرب من أجل السلام. هذا هو السبب في أنه كل يوم، في كل بقعة من العالم، لا يزال البشر ينطلقون إلى الحرب، حتى إلى الحروب التي تهدد بتدمير بيوتهم هم.

لقد ذكرت الثقافة. ربما سيكون أوضح لو تكلمت عن الثورة الثقافية، رغم أننا نعرف أن هذه هي في الواقع تعبير مضى عليه الزمن، يضيع في كثير من الأحيان في خطط تشوهه، يصبح مستهلكاً بالتناقضات، أو يُحرف

---

[2] يهجأ بالطريقة الإسبانية، أي القشتالية (مع استعمال Z في آخر الكلمة محل S البرتغالي).

إلى مغامرات تنتهي إلى خدمة مصالح مضادة جذرياً له. ومع ذلك، فإن فعالياتها قد وصلت إلى أكثر من مجرد ذلك. فقد خلقت فضاءات، ووسعت آفاقاً، حتى من خلال ذلك بدا لي أنه أكثر من حان الوقت لتحقيقها وإدعاء أن الثورة الثقافية الجديرة بالاسم حقاً ستكون ثورة من أجل السلام، قادرة على تحويل إنسان تدرب من أجل الحرب إلى إنسان تربى من أجل السلام. لأن السلام يتطلب تربية صحيحة. وهذه في الواقع تشمل الثورة العقلية، وبالتالي الثقافية العظيمة للإنسانية. وهذا يعني، في نهاية المطاف، مجيء الإنسان الجديد الذي نوقش كثيراً[3].

8 أيار: المعرض

هذا العام لن أذهب إلى معرض لشبونة للكتاب، الذي لا يشبه في شيء المعرض الذي يقام في فرانكفورت، أو في غوادالاجارا، أو حتى في مدريد، نظراً إلى أن معرضنا يقام في جادة جذابة، حيث كانت توجد تلة في الماضي، رغم أنها في هذه الأيام أصغر من تلة، فقد التهم التمدن الجامح سفوحها. لكن لا زال بمقدورك أن ترى النهر عند قاعدتها، وثمة بانوراما جميلة لمدينتنا بيومبالين، التي بدأت تصبح حديثة وعقلانية، وفعلت ذلك، بحيث أنه من السهل ملاحظة حضور العقل في تصميمها، برغم أن المخططين اللاحقين الذين فضلوا الظلام على الضوء وكادوا أن يدفعوا ثمن ذلك.

يخبرونني أن الطقس كان جميلاً ومعرض هذا العام كان أكثر حيوية، كما لو أن الأشياء الرهيبة كانت تحدث في العالم الخارجي - الأزمات، الفقر والكساد. يقولون إن الناس يقرؤون أكثر في أوقات

---

[3] نوقش كثيراً من قبل كارل ماركس وارنستو «تشي غيفارا»، من بين آخرين.

الأزمة، ويبدو أن المحاسبين قد أكدوا هذه الفرضية. يسرني أن أفكر أن الناس في أوقات الأزمة يريـدون أن يعرفـوا كيـف وصـلنا إلى مثـل هـذا الموقف، وأن هؤلاء القراء المتعطشين يقاربون الكتب كما لو كانت ينابيع للماء العذب.

أنا أحب معرض لشبونة للكتاب. أحـب أن أمضـي السـاعات وأنـا جالس على كرسي أوقع الكتـب واسـتقبل كـل أصـناف البشـر، الـذين يصلون غالباً مع هدية، متميزة عموماً. أحب أن أرفـع نظـري وأراقـب الناس وهم ينتشرون بين السرادق، ربما يحـاولون أن يجـدوا الكائنـات البشرية المحتواة ضمن صفحات الكتب. أحب دفء الهزيع المبكـر مـن فترة العصر والطراوة التي تلي ذلك: إنه يعطي شعوراً كمـا لـو أن نوعـاً من الغنائية يجري فوق جسدي، و ـ أقل الناس غنائية ـ أصبح عاطفياً. إنني أعتبر الكتب جيدة لأجل صحتنا، وكذلك لأرواحنا، وهي تساعدنا على أن نصبح شعراء أو علماء، لفهم النجوم أولاً لاكتشافها عميقاً داخل تطلعات بعض الشخصيات، أولئـك الـذين يهربـون أحيانـاً، في بعـض الأمسيات، من الصفحات ويمشون بيننا نحن البشر، إنهم ربمـا الأكثـر إنسـانية منا جميعاً.

إنني شديد الأسف لكوني غير قادر على أن أكون في معرض لشـبونة للكتاب هذا العام.

11 أيـار: العذابـات

على حد معرفتي (مهما قد تكـون ضـئيلة) لا يوجـد حيـوان يعـذب الآخر، أقله من نوعه. والصحيح بالقدر نفسه أن القـط يستمتع ويسـلي نفسه إلى ما لا نهاية بتعذيب الجرذ الذي يكون قد وقع بـين مخلبيـه،

ولا يلتهم البهيمة الصغيرة إلا أخيرا بعد أن يكون قد مضغ لحمه بالكامل، بالشكل السنوري الخاص من تطرية الفريسة. لكن الذين لا يفهمون هذه الأشياء (لست متأكداً إلى أي مدى يمكنكم أن تفهموا القطط والجرذان) يصرون على أن السنوري، مثل صاحب المطعم الأكثر تهذيباً في المطاردة الأبدية للنجوم الخمسة المشتهاة، لا ينشد سوى أفضل الوسائل لتحسين نكهة الطعام الشهي والمترف بواسطة عضة شرسة على نحو لا يرحم من خلال مرارته. بالنظر إلى ثروة الطبيعة من التشكيل والتنوع، فإن أي شيء ممكن. ومع ذلك، فإن الطبيعة البشرية هي أقل اختلافاً وتنوعاً، على العكس مما يزعم عموماً. لقد مارس الإنسان التعذيب في الماضي، ولا يزال يمارسه اليوم، وبدون أي شك سوف يستمر في ممارسته طوال السنوات القادمة، بدءاً بالحيوانات، كلها، سواء كانت داجنة أم لا، وانتهاء ببني نوعه، الذين تمنحه آلامهم المبرحة سروراً خاصاً.

لأجل أولئك الذين يلحون على وجود شيء ما يجرؤون - وعيونهم تدور نحو السماء - على تسميته لطفاً إنسانياً، كان آخر درس قاسياً ومعرضا بشكل بارز لأن يسبب لهم ضياع بعض أغلى أوهامهم. فقد لفتت إحدى أقسى حالات التعذيب التي يمكننا أن نتخيلها الانتباه العام مؤخراً.

المعذب هو شقيق أمير أبو ظبي ورئيس الإمارات العربية المتحدة، إحدى أغنى البلدان في العالم والمصدر الكبير للنفط. أما ضحية التعذيب التعيس فكان رجل أعمال أفغانياً، متهما بكونه خسر شحنة من الحبوب تقدر قيمتها بـ 4000 يورو، كسبها الشيخ آل نهيان (هذا هو اسم الوحش).

ما حدث فعلاً يمكن تلخيصه بكلمات قليلة، نظراً إلى أن الوصف

الكامل سيحتاج إلى كتاب من صفحات كثيرة. إذ يظهر تسجيل الفيديو البالغة مدته خمساً وأربعين دقيقة رجلاً يرتدي جلابية بيضاء ويضرب خصيتي الضحية بمنخس كهربائي (النوع المستعمل لنخس الماشية)، و بادر بعدئذ إلى إدخاله في شرج الرجل، بعدئذ بإمكانكم أن تشاهدوه وهو يفرغ محتويات ولاعة سجائر فوق خصيتي الرجل ويشعلها، قبل أن يصب الملح على الجرح المفتوح. وأخيرا داس بسيارة بكامل قوتها بشكل متكرر عدة مرات فوق الرجل المنحوس. وعلى الفيديو بإمكانكم أن تسمعوا صوت العظام المتكسرة. كما ترون، إنه مع ذلك ليس سوى فصل قصير آخر في تاريخ الوحشية البشرية التي لا حدود لها.

إذا لم يهتم الله بشعبه، سينتهي ذلك بشكل وخيم. لقد رأينا الكتاب المقدس يستعمل ككتيب دليل manual لأجل الجريمة، والآن جاء دور القرآن، الذي يتلوه الشيخ آل نهيان كل يوم من حياته.

12 أيار: الشجاعة

باتريسيا كولسنيكوف صحافية أرجنتينية ـ هي صحافية أكثر مما هي أرجنتينية في رأيي، لكن هذا مجرد تصور أدبي صغير ـ تضع مهنتها قبل جنسيتها، كما لو أنها تستبدل عالماً بآخر. منذ سنوات اكتشف ورم خبيث في ثديها، فواجهت ذلك بالشجاعة التي لا تقدر عليها سوى امرأة. أنا لا أستخدم هذه الكلمات لأبدو خيالياً أو لأحصل على تدليل النصف الآخر من العرق البشري. أذكر هذا فقط لأنه هو ما كنت أفكر فيه: ففي الألم والمعاناة، تكون النساء أشجع منا بكثير. إن الطفل الذي يبكي وينتحب لدى إصابته بسحج في الركبة يبقى موجودا في الرجل، مهما انقضت سنوات عديدة بينهما، ومهما كان هناك

سنوات عديدة ستمر، ويكون للنحيب تأثيره: المرأة تضع المسكَن في فمه، إذا لم تنجح في تهدئته دفعة واحدة، فتكون على الأقل قد خففت من شكواه، مخفضة مستويات الضجيج لجعلها محمولة للأذنين وحساسيات الآخرين. فالرجل المتألم يحاول كسب الاهتمام؛ لكن المرأة المتألمة تتجنب ذلك.

عندما تغلبت باتريسيا على سرطانها، كتبت كتاباً، سمته *سيرة سرطاني* The Biography of My cancer. لم أحب هذا العنوان وأخبرتها بذلك كثيراً، لكنها لم تعرني أي اهتمام. في الكتاب (نشر أيضاً في البرتغال، من قبل دار كامينهو)، تقتفي مسارها الصعب على نحو لا يصدق بدون أن تبدي أي درجة من الرضا الذاتي و، ربما تكريماً لكلمات الذين يلحون على وجود حسن فكاهة يهودي خاص (لأن باتريسيا يهودية) تحكي قصتها، التي كان من الممكن أن تسرد بأيد أخرى، بجدية وبشكل مزعج وحتى بشكل مخيف، بطريقة تستثير كثيراً من الابتسامات المتواطئة من القارئ، أو قوقأة مفاجئة أو قهقهة غير مسؤولة. تابع القراءة قليلاً، فترى أن باتريسيا كولسنيكوف قد تحولت إلى سيدة المفارقة والفكاهة الأكثر سواداً.

لقد نجحت باتريسيا في استعادة حقوق النشر إلى عملها، وراودتني الفكرة المفاجئة البارعة بوضعه على الإنترنيت لكي يدرسه الجميع ويستعتعوا ويتنوروا به. وهناك تمت قراءته وتقييمه.

وكما هو الحال الآن، يمكن للقراء أن يخمنوا بشكل إضافي أنني صديقها وأكتب هذه الكلمات المبررة بشكل مسهب لها، في الحد الأدنى وفقاً لمعايير ما تستحقه هي،لكن الآخرين (قراءها) سوف يضاعفونه من خلال احترامهم وإعجابهم. فشكراً لشجاعتها.

يمكنك أن تقرأه لكنك لا تصدقه. إنه يترك المرء مع رغبـة ملحـة في إطلاق حملة تبرعات عامة بقصد جمع بعض قطـع (الفراطـة) الصـغيرة لمساعدة نواب البرلمان الإنكليز، العماليين والمحافظين، على الوصول إلى نهاية الشهر مع بقـاء القليـل مـن الجنيهـات في جيـوبهم. إنـه يطـرح السـؤال «أيتهـا الإمبراطوريـة البريطانيـة، إلى أيـن ذهبـت وأيـن أنـت الآن؟». إن من تسيدوا على حوالي نصف العالم في الماضـي غـير البعيـد ليسوا الآن سوى على بعد خطوة قصيرة مـن الشـوارع، حيـث سـيمدون أيديهم المتسولة ويستجدون الصدقات مـن نـاخبيهم. لـيس معنـى ذلـك أنهم لا يملكون ما يكفي ليـأكلون. مـن القليـل الـذي نعرفـه، لا يوجـد مؤشر على أن نائبا في البرلمان Mp، ذكـراً كـان أم أنثـى، قـد أصـيب بالإغماء من الجوع في أثناء مناظرة. مع ذلك لم تصل الأمور إلى هذا الحد تماماً. لكن ما الذي يمكننا قوله حول النائب تشـيريل غـيلان Cheryl Gilan، الذي استمات على مبلغ 87 بنساً، تكلفـة علبـتين مـن طعـام الكلاب، إلى الدولة؟ أو عن عضو البرلمان ديفيد ديليتس، الـذي طالـب شركة بتبديل 28 مصباح، مقيداً الفاتورة على حسـاب الدولـة؟ أو عـن آلان دنكان، الذي هندس حديقته على نفقة دافعي الضـرائب؟ وتسـتمر قائمة الأمثلة.

إن الفضيحة البريطانية الكبيرة تكتسب مثل هـذه الأبعـاد الخطـيرة بحيث وجد رئيس الوزراء غوردون براون نفسه مجبراً على طلب المغفرة بالنيابة عن الطبقة السياسية للبلد برمتها، عـبر كـل الأحـزاب كلـها، بسبب فداحة سوء الائتمان والأذى الذي أصاب سمعة السياسيين الذين عبثوا بالأموال العامة لكي يغطوا نفقاتهم كبرلمانيين. في الواقـع، يجـب

فعل شيء ما للتعويض عن هذا الخزي، الذي من الصعب ألا نرى فيه علامات المسخرة. من ناحيتي، طلعت بفكرة: أن نتعاقد مع روبن هود عصري، يستطيع أن يسرق من الفقراء لكي لا يفتقر ممثلو الأمة إلى الفراطة [القطع النقدية] لأجل مصاريفهم الصغيرة، التي لم تكن في كثير من الحالات صغيرة على الإطلاق، كما في حالة ديفيد كاميرون، زعيم حزب المحافظين، الذي تقدم إلى الحكومة بفاتورة بمبلغ 92000 € صرفها على بيته الثاني. صدقوني، ثمة حل يلوح ولن يكون روبن هود مرشحاً غير ملائم للتقدم إلى النجدة.

14 أيار: صوفيا غاندارياس

من أجل جواب على السؤال المفعم بالكرب، رغم كونه واضحاً من الناحية البلاغية «أين كان الله؟» الذي نطق به البابا في اوشفيتز أمام ذهول وفضيحة عالم المؤمنين، اذهبوا وشاهدوا معرض صوفيا غاندارياس العظيم، الذي يرد ببساطة كاملة: «الله ليس هنا». من الواضح أن الله لم يقرأ كافكا ـ بأكثر، كما يبدو، مما قرأه راتسينغر. ولم يلتفت أي منهما لقراءة بريمو ليفي، الذي هو أقرب إلى عصرنا، والذي لم يستفد مرة واحدة من القصص الرمزية ليصف الرعب. إذا كنتم ستسمحون لي بأن أكون وقحاً، فإنني سأنصح البابا بأن يذهب ويتفرج، بعينين مفتوحتين، على معرض صوفيا. والأكثر من ذلك، أوصي بأن يصغي بانتباه إلى الشروحات المقدمة من قبل رسام، يعرف، بالإضافة إلى معرفته قدرا كبيرا عن فنها، كثيراً من العالم والحياة التي صنعناها لأنفسنا بداخله ـ مؤمنين وغير مؤمنين على حد سواء؛ أولئك الذين يأملون وأولئك الذين يفتقدون كل الأمل، وأولئك الذين بين بين، الذين

خلقوا اوشفيتز، وأولئك الذين سألوا أين كان الله في ذلك كله.

كان من الأفضل أن نسأل أنفسنا أين كنا نحن، ما هو المرض الذي لا شفاء منه الذي نعاني منه ويمنعنا من ابتكار طريقة مختلفة للحياة، مع الآلهة إذا شئتم، لكن بدون أدنى التزام بالإيمان بهم. الحرية الحقيقية الفريدة للكائن البشري تكمن في الروح، روح لاتشوبها المعتقدات غير العقلانية والخرافات، التي، مهما قد تكون شاعرية في بعض الأحيان، تشوه إدراكنا للواقع وينتهك المعنى الأكثر أولية للعقل.

لقد تابعت عمل صوفيا غانداريياس لسنين كثيرة. إن تمكنها من فنها يذهلني - قوة موهبتها، البراعة التي تنقل بها الرؤى من عالمها الداخلي إلى لوحاتها، بالتوازي مع ذاك تذكر لكل شيء عاشته وتعلمته، وذكريات الآخرين التي استبطنتها وجعلتها ذكرياتها، ذكريات كافكا، بريمو ليڤي، روا باشوس، بورخس، ريلكه، بريشت، حنا أرندت، ومن الكثيرين، باختصار، الذين حدقوا عميقاً للغاية في بئر الروح البشرية التي شعروا أنهم في خطر السقوط فيها.

15 أيار: إلى متى ؟

منذ ألفين وخمسين عاماً، ناقص يوم أو زائد يوم أو أيام قليلة، ساعة أو ساعتين، كان الرجل الطيب شيشرون يحتج بشكل ساخط في مجلس الشيوخ الروماني، أو ربما في المنتدى، «إلى متى، يا كاتيلين، ستلعب بصبرنا؟» طرح هذا السؤال بشكل متكرر على المتآمر المخادع الذي أراد أن يغتاله، وأن يعبث بالسلطة التي لم يكن يملك أي حق فيها. التاريخ مذهل للغاية، كريم للغاية، بحيث أنه لا يقدم دروساً رائعة عن الواقع من خلال المرويات التي نرثها عن الماضي البعيد لأجل

الحكم الأفضل فقط، بل يقدم ذلك بكلمات بليغة محددة، بجمل بليغة معينة تمد جذورها، لسبب أو لآخر، في الذاكرة الشعبية والجماعية.

السطر الأول المتقتطف أعلاه طازج ونابض بالحياة كما لو أنه قد نطق به في هذه اللحظة، أو في لحظة مشابهة تاريخياً. كان شيشرون خطيباً عظيماً، مدافعاً عن حقوق الشعب محبواً بمواهب كثيرة، مع ذلك مما يثير الفضول أن نلاحظ كيف أنه في هذه الحالة فضل أن يستعمل العبارات الأكثر شيوعاً، التي يمكن أن تخرج من فم أم تؤنب طفلها المتململ، مع الاختلاف الكبير هو أن ابن روما هذا، كاتيلين الآنف الذكر، كان مارقاً من أسوأ مرتبة، كرجل وكسياسي.

إن تاريخ إيطاليا كافٍ لإدهاش أي شخص. إنه مثل سبحة طويلة بشكل هائل من العباقرة، بمن فيهم الرسامون والنحاتون والمعمارون؛ والموسيقيون والفلاسفة والكتاب والشعراء، البعض منهم ملهمون والبعض الآخر خادعون، قائمة لا نهاية لها من الأفراد الأجلاء الذين أنتجوا حصة كبيرة من أفضل ما فكرته البشرية أو تخيلته أو أنجزته. في الوقت نفسه، لم تكن تخلو أبداً من كاتيلينات، أيضاً، لأنه لا يوجد بلد واحد في منأى عن جذام الروح الذي يصيب الرجال من ذاك الميل. كاتيلين إيطاليا اليوم يحمل اسم برلوسكوني. فهو لا حاجة به للإمساك بالسلطة لأن له شركاء قبلئذ، ويملك من المال أكثر مما يكفي لشراء كل الشركاء [في الجريمة] الذين يمكن أن يحتاجهم، بما في ذلك القضاة وأعضاء البرلمان والنواب والشيوخ. يبدو أنه أنجز مأثرة تقسيم السكان الإيطاليين إلى معسكرين: الذين يتمنون أن يكونوا مثله والذين هم مثله ـ لقد نشر مجموعة جديدة من القوانين التي تمنحه حرية مطلقة في التصرف ضد الهجرة غير الشرعية، القوانين التي تشكل دوريات أمن محلية أهلية للتعاون مع البوليس في القمع الجسدي للمهاجرين الذين لا يحملون

أوراق تحديد هوية و، تتويجاً لذلك كله، لمنع إدخال أولاد الآباء المهاجرين في السجل المدني. إن كاتيلين، كاتيلين التاريخي، لم يكن من الممكن أن يكون قد زاد على هذا.

لقد ذكرت أعلاه أن تاريخ إيطاليا يكفي لإدهاش أي شخص. قد يكون مدهشاً، على سبيل المثال. أن أي صوت إيطالي (أو على الأقل لم يصل إلى مسامعي) لم يكرر، مع أوهى التعديلات، كلمات شيشرون: «إلى متى، يا برلوسكوني، ستلعب بصبرنا هكذا؟» جربو ذلك: يمكن أن يحقق نتائج، ويمكن لإيطاليا أن تدهشنا جميعاً مرة أخرى.

18 أيار: تشارلي

ذات مساء في الآونة الأخيرة شاهدت بعض أفلام شابلن القديمة على التلفزيون. اقتطعت حلقتان أو ثلاث من فيلم طويل يدعى *الحاج* The Pilgrim، المصور في خنادق الحرب العالمية الأولى، الذي يردد إحدى ثيماته المتكررة: شابلن البريء مطلوباً من البوليس. في الواقع لم أبتسم مرة واحدة. دهشت من نفسي، كما لو أنني قصرت في الوفاء بقسم مقدس، فكرست نفسي لأستذكر، بقدر ما يكون ذلك متيسراً بعد ثمانين عاماً، كم قهقهة وقوقأة كان تشارلي قد استثار فيّ عندما كنت أحضره في سن السادسة أو السابعة، في واحدة أو أخرى من صالتي السينما الشعبيتين في لشبونة. لم يكن ثمة الكثير لأستذكره. ففي هذه الفترة من حياتي كان معبوداي إثنين من الكوميديين الدانماركيين، بات وباتاتشون، الذين كانا بالنسبة لي البطلين الحقيقيين للضحك. بالاستمرار بتأملات مشابهة لسرتي، التي كانت دوماً ممارسة سليمة لشخص لايميل إلى تبديل منزله أو رأيه أبداً، توصلت إلى الاستنتاج غير المتوقع وهو أن

شابلن في نهاية المطاف لم يكن كوميدياً بل تراجيدياً. لاحظوا كم أن كل شيء حزين, كل شيء سوداوي في أفلامه. فالقناع الشابليني نفسه، الأسود والأبيض بالكامل، مع لصاقة من الجلد الباريسي، والرموش والشوارب السوداء، والعينان مثل نقطتين من القار، هذا القناع لم يكن بأي شكل خارج المكان بين التماثيل الأكثر تقليدية للممثل التراجيدي. وثمة شيء آخر يضاف إلى ذلك كله. فابتسامة شابلن ليست ابتسامة سعيدة: بل على العكس، أجرؤ على القول، حتى مع معرفتي بالمخاطر التي ينطوي عليها ذلك، أنه من المزعج أنها كانت ستبدو أفضل على وجه دراكولا.

لو كنت امرأة، لهربت من رجل يبتسم لي بتلك الطريقة. فتلك الأسنان القواطع، الكبيرة جداً والمنتظمة جداً والبيضاء، مخيفة. ثمة تكشيرة في الهيئة الصارمة للشفتين. أعرف مسبقاً أن عدداً قليلاً منكم سيتفقون معي على هذه المسألة. لقد حدث ذلك بالصدفة، حالما قرر الناس أن شابلن ممثل هزلي. ففي الواقع لم ينظر أحد في وجهه مرة أخرى. فكروا مرة أخرى وتأملوا ما أقوله لكم. انظروا إليه في الوجه، بدون تصورات مسبقة، وراقبوا ملامحه بدقة، مرة واحدة، ناسين للحظة رقصة الأنامل، ثم أخبروني بما ترون. كان من الممكن أن يأخذ شابلن كل أفلامه إلى التراجيديا لو استطاع ذلك.

19 أيار: الشعراء والشعر

لن يحدث ذلك للجميع، ولن يدوم إلى الأبد، لكن في أحيان قليلة يقع ما نشهده الآن: عندما يموت شاعر فجأة، يظهر شاعر جديد, ويعلن قراء الشعر عبر العالم كله عن أنفسهم الآن أنصاراً لماريو بنديتي

Mario Benedetti، يقدمون قصائد تعبر عن حزنهم العميق. ربما تخدم هذه اللحظات في استذكار زمن كان الشعر فيه يمتلك مكانة باقية في العالم، في حين أن الاقتصاد في يومنا هذا هو الذي يبقينا ساهرين في الليل. لذلك فنحن نشهد تأسيس مسار جديد مفاجئ في الشعر لا بد أنه قد أربك كل الإحصائيين الرسميين للشعر المنظوم بأبيات قصيرة تقول فعلاً أكثر مما يبدو من النظرة الأولى. إن مفككي الشيفرات لا يملكون الموارد لمعالجته. إذ يوجد الكثير جداً من الألغاز لحلها، والكثير جداً من العناقات والكثير جداً من الموسيقى في تلك العواطف التي تريد أن تقول أكثر مما ينبغي: العالم لا يمكنه أن يحتمل كل هذه الشدة العاطفية لأكثر من أيام قليلة. على العموم، لولا التعبير عن ذاك الشعر اليوم، لما كنا بشراً بشكل كامل. بكلمات قليلة، هذا هو كل ما يدور حوله: ماريون بنديتي مات في مونتفيديو والكوكب أصبح أصغر من أن يستوعب الاستجابة العاطفية إلى هذه الحقيقة.

فتحت كل كتبه في الحال فبدأت تتمدد [متحولة] إلى شعر - أشعار الوداع، أشعار النضال، أشعار الحب، كل تلك السمات الثابتة لحياة بنديتي، بالتوازي مع وطنه، أصدقائه، كرة القدم، والحانات الوضيعة القليلة حيث انغمس في جلسات الشرب حتى في الليالي الأطول.

توفي بنديتي، الشاعر الذي عرف كيف يجعلنا نعيش لحظاتنا الأكثر حميمية ويكشف غضبنا المخفي الأكثر عمقاً. إذا أخرجنا قصائده إلى الشارع - جنباً إلى جنب، لأنه يوجد أكثر بكثير منا نحن الاثنين - ونحن نقرأ Geographies [جغرافيات]، على سبيل المثال، فإننا نتعلم أن نحب بلداً صغيراً في قارة كبيرة. الآن، بالحكم عن طريق الرسائل الواصلة إلى المؤسسة يمكننا أن نستبقي لحظات العشق تلك منذ زمن طويل، وهي تُستعاد الآن إلى الحاضر. إنه شيء آخر ندين به إلى

بنديتي، إلى الشاعر الذي يتركنا موته ورثة لعمل حياة استثنائية.

تانيا وماريو: الحرية[4]

ليس صحيحاً أن العالم بأكمله قد تم اكتشافه سابقاً. فالعالم هو أكثر من جغرافيته، وقراه وجباله وأنهاره وبحيراته، ومحيطاته الشاسعة وسهوله، مدنه وشوارعه، الصحراء التي ترقب الزمن وهو يمر، والزمن الذي يرقبنا جميعاً ونحن نمضي. العالم أيضاً هو الصوت البشري، معجزة الكلمة التي تتكرر كل يوم، مثل نسمة من الصوت تنتقل عبر الفضاء. إن كثيراً من أصواتنا تصدح، تغني، لكن قلة منا فقط تعرف حقاً كيف تغني. عندما سمعت أغنية تانيا ليبرتاد Tania Libertad لأول مرة، تكشفت لي ذرى الانفعال التي يمكن للصوت البشري العاري أن يحملنا إليها، عندما وقفت تواجه العالم وحدها، تغني منفردةً، بدون أي شكل من مرافقة الآلات الموسيقية. غنت تانيا قصيدة رافائيل ألبرتي La Paloma [*اليمامة*] عيوقة، كل نغمة تداعب وتراً من أحاسيسي على الطريق إلى الإشراق.

الآن تانيا ليبرتاد تنشد ماريو بنديتي، الشاعر العظيم الذي يمكن تسميته أيضاً ماريو ليبرتاد...

إنهما صوتان إنسانيان، صوتان إنسانيان بعمق. تتحد فيهما موسيقى الشعر وشعر الموسيقى. الكلمات كلماته والصوت صوتها. ونحن نصغي إليهما، نكون أقرب إلى العالم، إلى الحرية، إلى ذواتنا نفسها.

---

[4] هذه هي هوامش الغلاف الأمامي على آخر CD لـ تانيا ليبرتاد، Ese Parentesis La Vida (الحياة في الفترة الفاصلة).

20 أيار: حلم

لم أقابل أبداً الرجل موضوع البحث، ولم أتكلم إليه أبداً. إذ لم تكن له أية علاقة بأي شيء يهمني لا من قريب ولا من بعيد، و، باختصار، مهما كان عدد المرات في أثناء الأعوام المنصرمة التي سمعت فيها اسمه أو قرأته، لم تكن لدي أية فكرة عما إذا كان ميتاً أم لا يزال حياً.

أنا أشير إلى المحرر البرتغالي دومينغو باريرا، الذي زارني في أحلامي الليلة الماضية. وحقيقة الأمر، إنني لم أتوصل إلى رؤيته، وإذا كنت قد رأيته، فلن تكون لدي أية فكرة عن أي وجه أمنحه. ما فعله هو أنه أرسل إلي سكرتيرته تحمل مذكرة يشرح فيها أنه يود أن يقابلني، بحيث يمكننا أن (ندردش) حول الماضي معاً. لم أعرف أي جوانب من الماضي كان يريد أن يناقش لأنه بالرغم من أنه حدد موعد لقائنا في نهاية الأسبوع التالي، لم يذكر مكاناً. وعندما تحققت من ذلك فجأة، لم تعد السكرتيرة موجودة ورأيت أن الأمر برمته كان مستحيلاً.

الآن دعوا الأطباء الأكاديميين يأتون ويفسرون هذا الحلم بدون أي سبب أو دافع ظاهر. ربما يودون أن يؤكدوا فكرة من أفكاري، وجدت نفسي أغرى بتسميتها قناعة، في لحظة ما من العام الماضي عندما عانيت من مرض كاد أن يطيح بي. التجربة رجت دماغي، فتهز ذكرياتي القديمة قبل إعادة ترتيبها بالشكل الصحيح، بحيث يمكن لذلك، أيضاً، أن يكون قد لعب دوراً في استثارة مثل هذا الحلم غير المتوقع.

لسوء الحظ، أن السؤال «لماذا؟» لا يزال بدون جواب. والأمر أسوأ مما ينبغي، لأن كل أطباء الأكاديمية لن يتفقوا على ما يجب فعله بهذه الصفحة، بعد قراءتها.

كنت قد وعدت نفسي بألا استأنف الكتابة حول هذا الكاريكاتور الأكبر من الحياة في عصرنا، لكن، مرة أخرى: تغلبت الحقائق على إرادتي. هذه المرة ليست مسألة فتيات صغيرات، عارضات أزياء وراقصات يتم التقاطهن ببساطة بإشارة إصبع - أو أصابع - في البرلمان الأوروبي، أو مسألة مجوهرات تقدم كهدايا عيد الميلاد إلى ragazze[5]، فتيات بالكاد تجاوزن مرحلة المراهقة، يطلقن على رئيس الوزراء الإيطالي اسم بابي Papi، وهو مصطلح معناه الدقيق لا يمكنني أن أكفله (خبرتي ليست تحديداً في اللغة الإيطالية التي تتكلمها اللوليتات المحليات)، لكن أعرف أنه يحظى بالمكاسب حتى بالنسبة للفتيات اللواتي بذلن أقل جهد ممكن في امتحاناتهن. إنها حتى أقل من مسألة الكثير من القيل والقال حول الطلاق، الذي أشك شخصياً كثيراً في أنه سيمر، نظراً إلى ثقل الأطراف ذات المصالح المادية المشتركة. ما يعني أن ثمة مخاطرة كبيرة في أن تنتهي الكوميديا (إذا كانت بالفعل هكذا) بمصالحة تنشر بساعات كثيرة من البث التلفزيوني في الوقت الرئيس.

لا، إن ما أخرجني عن سلامي وهدوئي النسبيين لأنكب على مسائل أخرى تتعلق ببرلوسكوني مالك العقارات IL Padrore[6] كان حكماً فرضته محكمة العدل الميلانية يدين المحامي البريطاني ديفيد ميلز (الزوج المغرّب لوزيرة الألعاب الأولبية الحالية تيسا جويل Tessa Jowell بأربع سنوات ونصف في السجن بسبب الفساد المكتشف في

---

[5] الكلمة الإيطالية بمعنى «فتيات صغيرات».

[6] كلمة إيطالية تعني «المالك / المقتني».

أثناء عملية قانونية. أثبت الحكم أن برلوسك (هكذا تبين، لذا تلك هي الكيفية التي سنتركه يبقى بها) قد رشا المحامي البريطاني في عام 1997 بمبلغ لا يقل عن 600000 دولار أمريكي للعثور على شاهد زور، بهدف «منح الحصانة لبرلوسكوني وزمرة فينيفست Finivest».

كان رد برلوسكوني نموذجياً تماماً: «هذا الحكم فضائحي بشكل مطلق، ويتبدد في وجه الواقع». وقال أكثر من ذلك: «سيكون هناك استئناف، سيكون هناك قاض آخر»، ما يقتضي ضمناً، أو على الأقل هكذا قرأتها - فعلاً - إجراءاً مؤذيا متعمداً مخفياً بالكاد سأسمح لنفسي بتفسيره بالطريقة التالية: «سيكون هناك قاض آخر، سأحاول أن أرشوه». وذلك كما رشا آخرين، سأضيف.

كنت أود أن أعتقد أن نهاية برلوسكوني تقترب. لكن لكي يحدث ذلك، من الضروري أن يخرج جمهور الناخبين الإيطاليين من لامبالاته الجماعية، سواء كان عفوياً أم متواطئاً، وأن يتبنى عبارة شيشرون، التي استخدمتها منذ أيام قليلة فقط. دعوهم مرة واحدة وإلى الأبد يقولون ما يقال في كل مكان آخر حول العالم: «لقد عبثت بنا أطول مما ينبغي وأكثر مما ينبغي، يا برلوسك. هذا هو الباب فأخرج منه وأغرب!». وإذا كان الباب يؤدي إلى السجن فيمكن أن نقول إن العدالة قد أخذت مجراها. أخيراً.

22 أيار: البالغون [7]

في اللغة البرتغالية نقول «أشخاص من سن معين». كلما كان ذلك ممكناً، نجد تعبيرات ملطفة لنتفادى مصطلح العجائز الممل ونجد

[7] هذا العنوان بالإسبانية هو: Mayores.

مصطلحاً يمكن وينبغي اتخاذه كإثبات نابض بالحياة (لقد عشت ولا أزال حياً)، لكنه في أغلب الأحيان يرمى في وجه العجائز كنوع من التجريد من الأهلية الأخلاقية. في هذه الأثناء، في بلدي على الأقل، اعتدنا أن نقول (هل لا نزال نقولها الآن؟) بطعنة نهائية مميتة، «أنت قبعة عتيقة!» للمسنين من زمني عندما كانوا يردون على أي شخص تجرأ على أن يسميهم عجائز. لذلك تابع العجائز عملهم، بدون الاكتراث لأصوات العالم.

بالطبع كانوا عجائز، لكنهم لم يكونوا عديمي الفائدة، ولا عاجزين عن إصلاح أحذيتهم أو توجيه قبضة المحراث التي يستعملونها لأجل أشغالهم. واعتادت الحياة أن تكون حول شيء ما آخر، أيضاً: لقد كانت قاسية. وهي حول شيء جيد أيضاً: كانت بسيطة.

في هذه الأيام، ما تزال الحياة قاسية، لكنها فقدت بساطتها. ربما كانت هذه الملاحظات، المصاغة بهذه الطريقة أو بطريقة أخرى، هي التي تسببت في ولادة فكرة إحداث جامعة للسن الثالث في قشتالة - لامانشا، وهي منظمة كان لي شرف أن أكون راعيها. فالأشخاص الذين تعني لهم الشيخوخة وجوب أن يتقاعدوا من وظائفهم، ماذا يفترض بهم أن يفعلوا بعد ذلك؟ والآخرون الذين تعني لهم الشيخوخة الفراغ لمتابعة اهتمامات جديدة، لما تُستكشف بعد، ماذا نفعل بهم؟ الجواب على هذين السؤالين لم يكن بطيئاً في المجيء: إحداث جامعة لأجل الجيل ذي الشعر الأبيض والبشرة المجعدة، مكان يمكنهم فيه أن يدرسوا ويكتشفوا عوالم المعرفة المجهولة أو المعروفة قليلاً. كل واحد من هؤلاء الأشخاص، كل واحدة من أولئك النسوة، كل واحد من هؤلاء الرجال، يمكنه الآن أن يقول، كلما فتحوا كتاباً أو قرأوا مقالة حول أي موضوع، «لم أستسلم». في لحظة كهذه فإن عبق الشباب يحيي قسماتهم

وينيرها، كما لو كانوا يجلسون بجانب أحفادهم، روحياً على الأقل ـ أو ربما إن الأطفال هم الذين يجدون أنفسهم جالسين بجانب أجدادهم. إن التفاهم يقرب كل واحد من الآخر ويقرب كل واحد من الجميع.

أي سن هو سن جيد للتعلم. وكثير مما تعلمته قد جاء في سنوات نضجي، واليوم، وأنا في سن السادسة والثمانين، لا أزال أتعلم بنفس الشهية. أنا لا أحضر في جامعة السن الثالث في قشتالة ـ لامانشا (مع أنني أخطط لأزورها يوماً ما)، لكنني أشارك البهجة (يمكنني أن أقول أيضاً السعادة) مع أولئك الذين يتعلمون هناك، أولئك الذين أخاطبهم بهذه الكلمات المتواضعة: زملائي الأعزاء.

25 أيار: دورة حياة زهرة

بالعودة إلى حوالي بداية السبعينات، عندما كنت لاأزال مبتدئاً بالكاد ككاتب، خطرت ببال ناشر لشبوني فكرة غير مألوفة وهي أن يطلب مني كتابة قصة للأطفال. لم أكن متأكداً على الإطلاق أنني أستطيع أن ألبي الطلب بطريقة محترمة، لذلك لكي أنقح قصتي عن زهرة كانت على وشك الموت لافتقارها إلى قطرة من الماء جعلت السارد الزهري يعتذر عن عدم معرفة كيف يكتب قصصاً لأجل الصغار ودعوتهم بشكل دبلوماسي لأن يعيدوا كتابة القصة بكلماتهم هم. الابن الصغير لأحد أصدقائي، الذي امتلكت الوقاحة لأقدم هذا الكتاب الصغير إليه، أكد شكوكي بدون أن يتصنع كلماته.

«حقاً» أخبر أمه «إنه لا يعرف تماماً كيف يكتب قصصاً للأطفال». التقطت الإشارة وحاولت ألا أفكر كثيراً بها، هذه المحاولة المحبطة للانضمام إلى صفوف الأخوين غريم في فردوس خيالي. ومضى الوقت،

فكتبت كتباً أخرى كان لها حظ أفضل، وذات يوم جاءتني مكالمة هاتفية من محرري، زيفيرينو كويلهو، يحيطني علماً بأنه كان يفكر في إعادة إصدار قصتي التي كتبتها للأطفال. أخبرته أنه لا بد أن يكون مخطئاً، لأنني لم أكتب شيئاً للأطفال. لابد من القول في هذه المرحلة أنني كنت قد نسيت كلياً الحكاية التعيسة. مع أنني يمكنني الآن أن أعترف بأن هذه هي الكيفية التي بدأت بها الحياة الثانية لقصة أعظم زهرة في العالم، لكن هذه المرة كنت قد استفدت من الكولاجات التي لا تصدق التي أبدعها خواو كايتانو Joao Caetano لأجل الطبعة الثانية، التي لعبت دوراً حاسماً في تحقيق النجاح الجديد للكتاب. إن آلافاً من القصص الجديد (نعم، آلاف، بدون مبالغة) قد كتبت في المدارس الابتدائية في البرتغال وإسبانيا وعبر نصف العالم، وآلاف من الطبعات أثبت أظهر فيها آلاف الأطفال قدراتهم الإبداعية، ليس فقط كقصاصين صغار، بل أيضاً كشارحين متبرعمين. أخيراً، أثبت ابن صديقي أنه على خطأ: فالقصة، وهي قصة ذات بساطة شفافة، قد وجدت قراءها. لكن الأمور لم تستقر هناك. فمنذ أعوام قليلة، قام خوان بابلو إتشيفيري وتشيلو لوريرو، اللذان يقطنان في غاليسيا ويعملان في الأفلام، بالتعاقد معي وهما يخططان لصنع فيلم كرتون مقتبس عن قصتي الزهرة، وهو الفيلم الذي كان إيميلو أراغوان قد ألف الموسيقى له. بدت فكرة مثيرة للاهتمام بالنسبة لي، لذلك فقد أعطيتهما الإذن الذي طلباه، وحالما انقضى وقت كاف و ـ لا بد من الاعتراف ـ بعد تضحيات ومصاعب عديدة، عُرض الفيلم على الشاشة لأول مرة.

إنني أظهر فيه بنفسي، أرتدي نوعاً من القبعة التي تتلاءم مع كوني متقدماً في السن. أما بقية الفيلم فتبلغ مدتها خمسة عشر دقيقة من الأفضل في الرسوم المتحركة، وقد صفق له الجمهور مؤخراً في صالات

السينما ومهرجانات الأفلام في اليابان وآلاسكا، على سبيل المثال. وحتى أنه منح جائزة مهرجان السينما الايكولوجية [البيئوية] في تينيريف Tenerife، الذي أعيد تأسيسه بسعادة بعد تعليق قسري دام بعض السنوات. اكتشف تسيلو مكان إقامتنا وجلب لنا الجائزة - وهي منحوتة على شكل نبات، تبدو كأنها تريد الصعود إلى الشمس والأرجح أنها سوف تواصل حياتها في الكازا دوس بيكوس Casa do Bicos[8] في لشبونة. هناك سوف تثبت كيف أن كل شيء في عالمنا مرتبط بكل شيء آخر: الحلم، الإبداع، العمل. إنها تعرّف ما الذي يملك القيمة لنا: عملنا.

26 أيار: الأسلحة

تكاد مبيعات الأسلحة، بفضل مرونة القوانين ضمن الحدود القومية أو ببساطة بفضل التهريب الوقح، أن تكون في أزمة - أعني الأزمة التي نوقشت كثيراً ويعاني منها بشدة، التي يحمل الدمار المادي والمعنوي لكثير من سكان كوكبنا شهادة عليها، لكنها مع ذلك لم تمس كل شخص حتى الآن. فالعاطلون عن العمل حول العالم يمكن عدهم بالملايين، إذ تعلن آلاف الشركات إفلاسها وتغلق أبوابها يومياً، لكن مع ذلك لا توجد أية إشارة على إغلاق حتى مصنع أسلحة واحد. إن العمل في مصنع أسلحة هو بوليصة تأمين على الحياة. فنحن نعرف مسبقاً أن الجيوش تحتاج دوماً إلى الأسلحة، لأنها دوماً تستبدل الأسلحة التي تملكها بأسلحة أحدث وأكثر فتكاً - هذا هو كل ما في الموضوع - لأن الترسانات القديمة، المفيدة في وقتها، لم تعد تلبي

---

[8] حيث يضم مؤسسة خوسيه ساراماغو.

متطلبات العصر الحديث. ينبغي أن يكون واضحاً أن حكومات البلدان المصدرة للأسلحة ينبغي أن تضبط بشكل صارم إنتاج وبيع الأسلحة التي توردها صناعاتها. بعبارة أخرى وببساطة، البعض منها لا يزعج نفسه، والبعض الآخر يبدو خلاف ذلك. أنا أتحدث عن الحكومات لأنه من الصعب أن نصدق، عندما نتأمل المنشآت الصناعية المخفية بصعوبة التي تمد تجار المخدرات، أنه لا توجد أيضاً مصانع أسلحة سرية. إذ لا يوجد شيء كالمسدس لا يمكن إصداره بشكل مزور وبشكل استعادي بختم رسمي، كيفما تم إدخاله بشكل غير مرئي. عندما تقدر قارة بأكملها مثل أمريكا الجنوبية، على سبيل المثال، أنها تحتوي على 80 مليون سلاح على الأقل، يصبح مستحيلاً ألا نؤمن بتواطؤ الحكومات المقنع بشكل بائس، وهو تواطؤ لا بد أنه يمنح غطاء للمستوردين والمصدرين على حد سواء. يقع اللوم، إلى درجة ما على الأقل،على عمليات مكافحة العصابات على نطاق كبير، إذا تركنا جانباً حقيقة أنه لكي يتم تهريب شيء، فإن القاعدة الأساسية هي أن هذا الشيء يمكن تهريبه.

عشت كل حياتي على أمل رؤية إضراب، أن يتوقف العمل في كل مصنع أسلحة، لكنني انتظرت عبثاً، لأن مثل هذه المناسبة الاستثنائية لم تمر، ولن تمر أبداً. هذا كان أملي المحزن الوحيد، أن البشرية لاتزال قادرة بعد على تغيير مسارها، اتجاهها، مصيرها.

27 أيار: الموسيقى

البارحة الأسلحة، اليوم النوتات الموسيقية. من الواضح أننا نحرز تقدماً. الفكرة، وفقاً لما أعتقد أنني أفهمها، جاءت من مؤسسة كالوست

غولبنكيان Calouste Gulbenkian، بالاشتراك مع الحجرة البلدية لأما دورا والكونسرفاتوار القومي: جمع الأطفال الذين يعيشون في أسوأ الأحياء الفقيرة وتعليمهم قراءة الموسيقى والعزف على آلة موسيقية. كان الاقتراح بالكاد أصيلاً، فنحن نحتاج فقط لأن نضع في أذهاننا المثال الحديث لأوركسترا شباب سيمون بوليفار في فنزويلا، المعروفة الآن في كل أنحاء العالم، لكن سيكون من الخطأ أن نكتفي بتقليد فكرة أجنبية كانت بطريقة ما مؤذية أو ضارة. أما هذه فتساوي ثقلها ذهباً، إذا كان بالإمكان أن نزن فكرة ـ بهذه الجودة، وبهذا الغنى في المضمون. لقد حضرت تقديم فيديو يظهر مجموعة من الأطفال، معظمهم من ذوي البشرة السوداء، يعزفون على آلات لم يكونوا يأملون في الإمساك بها بأيديهم حتى في أكثر أحلامهم جموحاً، يجيدون تعديلات النغم على أقواس الكمان وآلات النفخ النحاسية ببراعة أدهشتني.

كان من المحتم أن أستذكر الزمن، مع أنه قصير، عندما داومت في أكاديمية عشاق الموسيقى وعندما لم أنجح في ألا أفعل شيئاً سوى أن أتمتم سلالم مبهمة قليلة وتركت أصابعي تتعثر فوق مفاتيح البيانو. (كان من الواضح أن مستقبلي ليس هناك). بالطريقة نفسها، لا يمكن أن يكون لكل أولئك الأطفال مستقبل في الموسيقى، مع أنني متأكد من أنهم لن ينسوا أبداً الساعات التي أمضوها في غرف التمرن، أو الدروب التي احتاجوها للوصول إلى هناك، وهم يحملون حقائب آلاتهم الموسيقية الخاصة بهم، الصغيرة جداً لأجل عازفي الفلوت، القابلة للتحكم بها لأجل عازفي الكمان، الأقل راحة لعازفي التشيلو. كنت أرى في جدية تعابيرهم، حتى عندما كانت وجوههم تكشف عن ابتسامة، وعن طريق نور عيونهم، والوقار الذي كانوا يردون به على الأسئلة، إثباتاً لنظرية قديمة من نظرياتي، وهي أن السعادة هي مسألة جدية إلى أقصى درجة.

كانوا يتمرنون، متنبهين بعمق، مستغرقين تماماً، على بعض المقاطع من السيمفونية التاسعة لبيتهوفن. أنا أعتقد بأن الذين سيقرأون منهم هذه الصفحات سيجدون أنفسهم متفقين معي، على أن الموسيقى تمنحهم انطلاقة جيدة لأجل الحياة التي تنتظرهم.

28 أيار: الأيادي النظيفة

بالتاسار غارزون هو أحد الأشخاص الأكثر نفوذا الذين برزوا من المجتمع الإسباني في النصف الثاني من القرن العشرين. إننا ندين للقاضي غارزون ببعض اللحظات الديمقراطية الأكثر إشراقاً التي نعرفها: الإجراءات القانونية ضد الجنرال بينوشيه من تشيلي والتحقيق في جرائم حرب الحكومة الفرانكوية. في الحالة الثانية، اعتبر غارزون أن فرانكو، مع أفراد كتائبه Falange الأربعة والأربعين، ارتكب «جرائم ضد أعلى مكونات الدولة» إلى جانب «الحبس غير القانوني للأفراد واختفائهم، اللذان يصنفان في حقل الجرائم ضد الإنسانية». وحصل أيضاً أن التحقيق في هذه الجرائم أغضب الفرانكويين الذين لا يزالون موجودين في إسبانيا، إلى حد أنهم اتهموا غارزون بالمراوغة، لأنه كان قد حرك هذه الإجراءات القانونية، كما قالوا، وهو يعرف أن أولئك المسؤولين كانوا قد توفوا قبلئذ. وقع على الاحتجاج رجل اسمه برنارد، وهو مدير سابق الـ Fuerza Nueva، وهي جماعة من أقصى اليمين ناشطة بشكل خاص في قمع المعادين لفرانكو، والرئيس الحالي لنقابة يصفونها بشكل ساخر بأنها «تدافع» عن الدولة اليمينية والتي أعطوها اسم الأيادي النظيفة، تيمناً بالمبادرة الإيطالية التي لا تنسى إلى الأبد.

ما الذي فعله بالتاسار غارزون؟ إذا نظرتم إلى ذلك بعيداً عن

التداعيات القضائية، بمكائدها ومواجهاتها، وعن الغضب (ليس السياسي فقط) الذي يطلقه الفرانكويون ضد أية مبادرة يمكن أن تتبناها المجتمعات في سعيها للتخلص من الدكتاتورية، فإن ما نراه هو إجراء المقصود منه أن يدخل الفطرة السليمة إلى منابرنا القضائية. فهنا لدينا قاض شجاع يبحث عن الموارد الضرورية التي يسمح بها القانون لأجل ضحايا الحرب الأهلية وتركتها من الفرانكوية، بحيث يمكنهم أن يسردوا تجاربهم الخاصة الجديرة بالتذكر وأن يُعترف بحقوقهم، وذلك بدلاً من أن يغطي نفسه بقوانين المقصود منها أن تبرر السكوت والإلغاء.

لقد فهم غارزون أنهم يملكون الحق في استرداد الجثامين المدفونة في المقابر العامة، وأن يعلموا إلى أين أخذ الأطفال الذين فصلوا بالعنف عن أسرهم، ولهذه الغاية فتح هذه الإجراءات، التي أدت بعدئذ إلى تشعبات أخرى. مع ذلك فإنه لأمر أساسي أننا لا نعدم رؤية حقيقة أنه كان أول من بدأها. أما ما هو رهيب، وغير القابل للفهم، فهو أن ورثة الفرانكوية قد ردوا بتعاطف في محكمة إسبانيا العليا، حيث سيُجبر غارزون على إعلان نفسه موكلاً بالقضية المضادة لفرانكو. قررت المحكمة أنه «بدون إضفاء القيمة أو الحكم المسبق على ما يلي، لا توجد بنود يمكن بموجبها رفض تسلم هذه الدعوى»، وقضت أيضاً بأن فرضية المراوغة ليست عبثية ولا غير عقلانية. هذا ما قرره القضاة الخمسة، خمستهم، في المحكمة العليا. ونحن الآن بحاجة إلى أن ننتظر ونرى ما الذي سيقوله المجتمع الإسباني، المتحمس دوماً في الدفاع عن القضايا العادلة، حول ذلك. فهل سيسمح، بدون أن يكون صوته مسموعاً، لفويرزا نويفا Fuerza Nuerva، بأيديها النظيفة القذرة، بأن تستخدم القانون وتتلاعب به هكذا؟ هل سيسمح، بدون احتجاج، باستعمال مصطلحات مثل حكم القانون، الذي كافح من أجله المناوئون لفرانكو

بضراوة، أن يستعمل ضد ضحايا فرانكو، فيسمحوا مرة أخرى بأن يسقطوا في النسيان؟ هذا لم يعد ببساطة حول غارزون، الذي أقدم له تحيات صديق، بل حول هؤلاء الأشخاص الذين لا يعللون أنفسهم بالأمل على حسابنا. فالتحرك لتوسيع بنود المرسوم ليس فعل مراوغة. فالمراوغة ستكون فشلاً في التصرف في هذه الحالة. إنها صورة زائفة للعدالة أن يسمح للفرانكويين بالمجيء والمحاضرة فينا حول وساوسنا الديمقراطية.

29 أيار : التحرر من الوهم

في كل يوم تختفي أنواع من النباتات والحيوانات، مع اختفاء لغات ومهن. الأغنياء دوماً يزدادون غنى والفقراء دوماً يزدادون فقراً. في كل يوم على حدة ثمة أقلية تعرف أكثر، وأخرى تعرف أقل. الجهل يتسع بطريقة مخيفة حقاً. في هذه الأيام نمر بأزمة حادة في توزيع الثروة. فاستغلال الفلزات وصل إلى نسب شيطانية، الشركات المتعددة الجنسية تسيطر على العالم. لا أعرف ما إذا كانت الظلال أم الخيالات تحجب الواقع عنا. ربما يمكننا مناقشة الموضوع إلى ما لا نهاية. ما هو واضح حتى الآن هو أننا قد فقدنا مقدرتنا النقدية على تحليل ما يحدث في العالم. إذ نبدو محبوسين بداخل كهف أفلاطون. لقد تخلينا عن مسؤوليتنا عن التفكير والفعل. فقد حولنا أنفسنا إلى كائنات خاملة غير قادرة على الإحساس بالغضب، وعلى رفض الانصياع، والقدرة على الاحتجاج التي كانت سمات قوية لماضينا الحديث ـ إننا نصل إلى نهاية حضارة ولا أرحب بنفيرها الأخير. برأيي، الليبرالية الجديدة هي شكل جديد من الشمولية [التوتاليتارية] المقنعة بقناع الديمقراطية التي

لا تحتفظ بشيء منها سوى الشبه. إن مجمع التسوق [المول] هو رمز عصرنا. لكن لا يزال ثمة عالم مصغر ويختفي بسرعة، عالم الصناعات الصغيرة والحرف. ففي حين أنه من الواضح أن كل شيء سيموت في النهاية، ثمة أشخاص كثيرون لا يزالون يأملون في بناء سعادتهم الخاصة، وهؤلاء آخذون في التقلص. إنهم يرحلون مثل المهزومين، لكن كرامتهم محفوظة، يعلنون فقط أنهم ينسحبون لأنهم لا يحبون هذا العالم الذي صنعناه لأجلهم.

حزيران / يونيو 2009

1 حزيران : تمثال في آزينهاغا

كنت هناك جالساً في منتصف الساحة، والكتاب في يدي، وأنا أراقب العالم يمر بي. كانوا قد جعلوني أكبر قليلاً من الحياة، أعتقد أنهم فعلوا ذلك لكي يجعلوني أبرز بشكل أكثر وضوحاً. ليست لدي أية فكرة كم من السنين سأقضي هناك. لقد قلت دوماً إن القدر الأخير للتمثال هو أن يُهدم، حتى رغم أنني كنت أود لو تركوني بسلام مثل شخص كان عليه أن يأتي إلى الأرض مرتين، مرة في هيئة شخص ومن ثم في [هيئة] برونز. كان هذا شيئاً أدخل عقلي في الهذيان الأكثر إضحاكاً، لأنني لم أكن قد تجرأت سابقاً على إضمار الأمل بأن تمثالاً سيقام من أجلي ذات يوم، على نفس الأرض التي ولدت عليها. فما الذي كنت قد فعلته ليحدث ذلك؟ كتبت كتباً قليلة؛ ونقلت معي اسم آزينهاغا[1] حول العالم؛ وقبل كل شيء، تأكدت من أنني لم أتجاوز أبداً الذين حملوني وربوني، والداي وجداي. تكلمت عنهم في ستوكهولم[2] في أثناء محاضرة عامة مزودة بالصور، وكنت مفهوماً. إن ما نراه من الشجرة هو مجرد جزء من الشيء، فجانبها الأهم هو بلا شك

---

(1) مسقط رأس ساراماغو.

(2) حيث منح ساراماغو جائزة نوبل للآداب في عام 1998.

الجذور. جذوري البيولوجية تحمل اسم جوزيفا وجيرونيمو، خوسيه وبيداد، لكن لي جذور أخرى، تحمل أسماء مدن وأمكنة ـ كازالينهو وديفيويس، كابو داس كاساس وآلموندا، يتجو ورابو دوس كاغادوس، وأخرى سميت من أجل كروم الزيتون، وأشجار الصفصاف والحور والرمان؛ أسماء فرق صيد تبحر عبر الأنهار، أشجار تين محملة بالثمار، خنازير تؤخذ إلى المرعى وخنانيص تنام في نفس السرير مع جدي، لمنعهما من التجمد حتى الموت، فأنا مركب من كل هذه الأجزاء، وكل جزء كان متضمناً في تركيب البرونز الذي قولبوني فيه. مع ذلك فأنتم بحاجة لأن تدركوا أن هذا الحمل لم يكن تلقائياً. فبدون تصميم، وجهد وعناد فيكتور غويا وخوسيه ميغيل كوريا نوراس، لما كان التمثال موجوداً. فمن أعمق أعماق امتناني أمنحهم عناقي، ممدوداً ليشمل كل أهل أزينهاغا، مع ابنهم الآخر هذا، الذي أتركه في رعايتهم وليس سواي أنا.

2 حزيران : ماركوس آنا

هناك بعض الناس الذين يبدو أنهم لا ينتمون إلى العالم أو إلى العصر الذي ولدوا فيه. مثل الكثير من جيله الذين جُرجروا إلى سجون إسبانيا الفرانكوية، عانى ماركوس آنا بشكل لا يوصف جسدياً وروحياً، وقد نجا في آخر لحظة in extremis من حكمين بالإعدام وأصبح، بكل معاني الكلمة، ناجياً من الموت. لم يستطع السجن أن يهزمه رغم أنه أمضى ثلاثة وعشرين عاماً من حياته هناك، محروماً من حريته. إن الكتاب الذي أطلقه للتو في البرتغال هو روايته، الموضوعية والمشبوبة بآن معاً، لهذه الحقبة القاتمة. عنوان هذه المذكرات أخبرني كيف تكون

الشجرة Tell Me What a Tree is Like، بالكاد يمكن أن يكون ذا دلالة أكبر. فعلى مر الزمن، انتهى الواقع القاسي لسجنه بأن فرض نفسه على الواقع الخارجي، مكفناً في سديم غامض بحيث كان عليه في كل يوم ينقضي أن يبذل جهوداً جديدة ليطرده لكي لا يفقد الإيمان بذاته الجوانية الهشة بشكل متزايد. إن ماركوس آن أنقذ ليس نفسه فقط بل كثيراً من رفاقه السجونين أيضا، رافعاً معنوياتهم، وهو يحل مشاكلهم وحججهم يتصرف كنوع جديد من عدالة السلام. كان ماركوس آن راسخاً في قناعاته السياسية، وإن بدون أن يسمح لمواهبه النقدية بأن تتأثر، فأعطى كل شخص احتك به إحساساً لا يقاوم بالأمل، كما لو أنهم جميعاً انتهوا إلى الاستنتاج، «إذا كان هو هكذا، يمكنني، إذا، أيضاً أن أكون كذلك». عند استعادة حريته، لم يذهب ببساطة إلى المنزل للراحة. بل عاد إلى النضال السياسي مخاطراً بالدخول إلى السجن مرة أخرى، وأطلق مشروعاً مؤثراً لمساعدة ودعم الذين لا زالوا في السجن. في إسبانيا، قدمه الأصدقاء والمعجبون بشخصيته الاستثنائية (من بينهم الحائز على جائزة نوبل، وول سوينكا) كمرشح لجائزة أمير أستورياس للوفاق. لا شيء يمكن أن يكون أكثر ملاءمة، وهو كله ضروري ليثبت للشعب الإسباني أن هذه الذكرى التاريخية باقية وحية وبيننا.

3 حزيران : الرحلات

غادرنا لانزاروتي يوم السبت الماضي، بالطائرة إلى إشبيلية ومن ثم تابعنا بالسيارة إلى لشبونة. في يوم الأحد، كما شرحت، ذهبنا إلى أزينهاغا بمناسبة رفع الستار عن تمثال. كان لشجرة الدلب المنتصبة أمام بيتنا بهاؤها الخاص، سلسلة من المروج الفنية التي تجذبني إلى التأمل طويلاً

وتجعلني أقول في نفسي، «لا تتحرك حتى، دع نفسك باقياً كما أنت». رغبة عديمة الجدوى، عندما نراقب حر الصيف، والرعشات الأولى للخريف والأوراق المتساقطة وبهاء الشجرة ينطفئ ، ومن ثم سقوطها غافية إلى أن يأتي ربيع جديد ليأخذ مكان البهاء الذي ينتهي الآن.

– هذه الخواطر الجديدة بالكامل جعلتني استذكر الفصل الموجز الآخر من كتاب *رحلة إلى البرتغال* الذي كانت فيه، كما اعتدت التفكير، مسحة من الأصالة. وأنا اعتبر أنها ليست فكرة سيئة أن أدونها هنا عندما نكون على وشك العودة مرة أخرى إلى البلد، داخلين هذه المرة عبر كارونيا.

وهنا دعونا نمضي:

((لم تنته الرحلة أبداً. وحدهم الرحالة وصلوا إلى النهاية لكن حتى عندئذ يمكنهم أن يطيلوا إبحارهم في ذاكراتهم، في الذكريات، في القصص. عندما جلس المسافر في الرمل وأعلن قائلاً: «لا شيء أكثر لنراه»، كان يعرف أن ذلك ليس صحيحاً. فنهاية رحلة واحدة هي ببساطة بداية أخرى. عليك أن ترى ما فاتك في المرة الأولى، ترى ما رأيته سابقاً، ترى في الربيع ما رأيته في الصيف، ترى في ضوء النهار ما رأيته ليلاً، ترى الشمس تشع حيث رأيت المطر يهطل، ترى المحاصيل تخضر، الثمار تنضج، الحجر يحرك من مكان إلى آخر، الظل الذي لم يكن موجوداً من قبل. عليك أن تعيد تعقب خطواتك، إما لتطأها من جديد. أو لتترك خطوات جديدة إلى جانبها. عليك أن تبدأ الرحلة التي انتهت دائماً. الرحالة ينطلق مرة أخرى[3]»)).

هكذا هي. ولتكن هكذا.

---

[3] رحلة إلى البرتغال: متابعة لتاريخ وثقافة البرتغال من تأليف خوسيه ساراماغو ترجمة أماندا هوبكنسون ونك كايستور (هارفيل 2000)، ص 443 (التعقيب).

4 حزيران : العلمانية

سأقارب الآن مسألة العلمانية، التي لم يعبر عنها بشكل واضح جداً أبداً، برأيي، لأن السؤال الأساسي الذي ينبغي أن يطغى على السجال يتم تجاهله عادة: ما إذا كنا نؤمن بوجود الله الذي لم يخلق الكون ومعه النوع البشري، الذي سيبقى حتى نهاية الزمن فقط، بل هو أيضاً القاضي لكل أعمالنا على الأرض، والذي يجزي الذين قاموا بأعمال حسنة بالدخول إلى الجنة حيث يمكن للصفوة أن تتطلع إلى وجه الرب إلى الأبد في حين يعاقب، كذلك إلى الأبد، أولئك المذنبين ببعض الأفعال الأخرى بأن يحترقوا إلى الأبد في نيران جهنم. هذا الحكم النهائي لن يكون سهلاً، سواء بالنسبة للإله أم بالنسبة لأولئك الواصلين ليقدموا تقريراً عن أنفسهم، بما أنني لا أعرف عن أي شخص قام بأفعال خيرة حصراً أو شريرة حصراً طوال حياته. إن شرطنا البشري هو أننا غير أكيدين في أهدافنا ونناقض أنفسنا بين ساعة وأخرى تليها. في وسط كل ذلك، تبدو العلمانية لي موقفاً سياسياً قائماً على الحصافة أكثر مما هي تعبير عن اقتناع عميق فيما يخص عدم وجود إله وعدم ارتباط الإيمان بمنطق الحدوس وأدواتها التي تزعم أنها تفرض عليها أفكاراً معاكسة للفهم البشري. إننا نناقش قضية العلمانية لأننا نخاف من مناقشة الإلحاد. الجانب المثير للاهتمام من الحالة، مع ذلك، هو أن الكنيسة الكاثوليكية، التي تنصاع لتقليدها القديم في فعل الشر وإطلاق الأنين، تستمر في ندب حظها بوصفها ضحية «لعلمانية عدوانية»، فئة جديدة من الموقف الذي يسمح للكنيسة بمهاجمة الكل في حين تتظاهر بأنها تهاجم جزءاً فقط. كانت الازدواجية دائماً سمة لا تنفصل عن التكتيك الدبلوماسي والاستراتيجية المذهبية للـ Roman Curia.

سيكون تغييراً مرحباً به لو أن الكنيسة الكاثوليكية والرسولية الرومانية توقفت عن التدخل فيما لا يعنيها، أقصد في الحياة المدنية والخاصة للناس. على كل، يجب ألا نفاجأ بسلوكها. فالكنيسة الكاثوليكية تهتم قليلاً أو لا تُهتم أبداً بمصير الأرواح، وكانت السيطرة على الأجساد هي هدفها الأولي، في حين كانت العلمانية هي الباب الأول الذي يبحث من خلاله الجسد عن هروبه جنبا إلى جنب مع الروح، نظراً إلى أن أحدهما لا يمكنه أن يبدأ مساراً في أي اتجاه بدون الآخر.

إن قضية العلمانية هي أكثر من مناوشة تمهيدية. المواجهة الحقيقية تأتي عندما يمضي الإيمان واللاإيمان في النهاية رأساً لرأس، عندما يتخذ خصم في الصراع اسمه الحقيقي: الإلحاد. الباقي كله ليس سوى لعبة كلمات.

5 حزيران: كارلوس كاساريس

توفي كارلوس كاساريس، الكاتب الغالي الذي جلبني إلى كارونيا وسيرافقني في الأيام القادمة، في آذار 2002. بعد وفاته بأشهر قليلة، في أيلول من ذاك العام، أحدثت مؤسسة باسمه، وفي الأعوام التالية أقامت تلك المؤسسة برنامجاً استثنائياً للنشاطات الثقافية عبر المنطقة. لقد شاركت في أكثر من واحد من حوارات مارينيان، وهذا الحوار، السادس، كان حول ثيمة إواليات الذاكرة وتطبيقها على الإبداع الأدبي. كان شريكي في هذا الحوار هو مانويل ريفاس، أحد أبرز ورثة التراث العظيم للأدب الغالي، المواظب على خطا تورينتي بالستر، وكوكويرو.

كان المدرج في مؤسسة كايكسا غاليسيا حيث عقدت جلستنا، مزدحماً بجمهور أظهر الاهتمام الأكثر تيقظاً طوال الجلسة، وأنا أعتبر أن مانويل ريفاس وأنا عملنا جيداً معاً، ليس أقله في تقديم التأملات المباشرة كل حول النتاج الأدبي للآخر. والبرهان هو أننا لا نتراجع عندما نواجه بمثل هذه المسائل الشائكة بوصفها الأعمال اللاواعية للذاكرة.

يوجد حوالي نصف دزينة من المؤسسات في كارونيا وهي - كما يعترف كل واحد هناك - الديناموهات الثقافية الأكثر نشاطاً وفاعلية للمدينة والقرى المحيطة. في كل شهر ينظمون دزينات من النشاطات الثقافية، في حقل الأدب كما في الموسيقى والفنون الجميلة - ناهيك عن بعدها الاجتماعي على الأقل، الهام إجمالاً. إن سكان كارونيا يقطنون مؤسساتها، التي لا غنى عنها لتربيتهم المدنية والثقافية. في البرتغال، لدينا أيضاً مؤسسات تتمتع باستحسان عام، لحسن حظهم ولحسن حظ بقيتنا. لكن لا يوجد أي نقص أيضاً من الدخلاء المنتقدين أو من الحاسدين بشكل مهووس مثل صحافي معين متشبث برأيه عندما سئل عما تبدو له الأسباب المحتملة لإحداث مؤسسة خوسيه ساراماغو (إذا كنتم تسامحوني على ذكر نفسي)، أجاب بأن الهدف الوحيد من مؤسستي هو جمع المال والتهرب من الضرائب. سامحه الله، لأننا لا يمكن أن نصل بأنفسنا إلى....

8 حزيران : برلوسكوني. الشيء

هذا المقال ظهر في طبعة البارحة من صحيفة إلباييس الإسبانية، وكتب بتكليف خاص منها. نظراً إلى أن هذه المدونة قد استضافت سابقاً

عدداً من التعليقات المتصلة بمآثر رئيس الوزراء الإيطالي، سيكون من النشاز ألا نرسل هذا المقال هنا. لاشك في أنه سيكون هناك المزيد من المقالات في المستقبل، إلى أن يأتي وقت ينكر فيه برلوسكوني من هو وماذا يفعل. وحتى يصل ذاك اليوم، لن أكون موجوداً.

برلوسكوني. الشيء

لا يمكنني أن أجد اسماً آخر يمكنني إعطاؤه إياه. شيء قريب بشكل خطر من الكائن البشري، شيء يقبض على الأحزاب، يقيم حفلات العربدة، ويحكم بلداً يدعى إيطاليا. هذا الشيء، هذا الداء، هذا الفيروس الذي يهدد بالموت المعنوي لبلاد فيردي هو مرض عميق يجب أن يقتلع من الوعي الإيطالي قبل أن يسري سمه في الأوردة ويهلك قلب إحدى أغنى الثقافات الأوروبية. القيم الأساسية للحياة الجماعية تداس يومياً في الأرض تحت الأقدام البغيضة لبرلوسكوني - الشيء الذي يمتلك، من بين مواهبه الأخرى العديدة، مقدرة مسرحية على التلاعب بالكلمات، محرفاً معناها وفحواها، كما في Partida Della Liberia (حزب الحرية)، اسم الائتلاف الذي يرأسه، الذي استولى على السلطة في إيطاليا. لقد اخترت أن أسمي هذا الشيء مجرماً، ولا أرى أي داع للندم على هذه الكلمة. لأسباب لها علاقة بالدلالات المعيارية أو الاجتماعية، أتركها للآخرين الذين يمكن أن يشرحوها أفضل مني، فإن المصطلح الذي يعني مجرم بالإيطالية له وزن سلبي أقوى بكثير مما في أية لغة أخرى محكية في أوروبة. لقد استخدمت المصطلح بهدف أن أترجم ما هو رأيي في برلوسكوني - الشيء بطريقة واضحة وحاسمة، متقبلاً المعنى الذي منحته إياه لغة دانتي بشكل اعتيادي، حتى رغم

أنه أكثر من مشكوك فيه الآن أن دانتي نفسه قد استخدم المصطلح delinquinza. فالإجرامية، بحسب لغتي الأم البرتغالية، تدل ـ وهنا أحيل إلى القواميس كما إلى الكلام العامي ـ على «فعل ارتكاب الجرائم، ومخالفة القوانين أو القواعد الأخلاقية». هذا التعريف ينطبق على برلوسكوني ـ الشيء بدون أي تجعيدة مفردة أو تغضن واحد، على النقطة التي يبدو فيها أكثر شبهاً بجلده من الملابس التي تغطيه. على مدى سنوات عديدة، كان ينظر إلى برلوسكوني ـ الشيء على أنه يرتكب مجموعة من الجرائم، هي دائماً ذات خطورة يمكن إقامة الدليل عليها هذا ما يقال، إنه لا يخالف القوانين فحسب، بل، وهو الأسوأ، يصنع قوانين جديدة ليحمي مصالحه العامة والخاصة، و هي مصالح سياسي ورجل أعمال ومرافق القاصرات، أما فيما يتعلق بالمعايير الأخلاقية، فثمة جدوى قليلة من ذكرها، نظراً إلى أنه لم يتبق شخص في إيطاليا أو بقية العالم غير مدرك أن برلوسكوني ـ الشيء قد غاص منذ زمن طويل في أقصى الفسوق وأكثره دناءة. هذا هو رئيس الوزراء الإيطالي، هذا هو الشيء الذي انتخبه الشعب الإيطالي مرتين حتى الآن ليخدم كقدوة له، هذا هو الطريق إلى الخراب الذي سلكوه، ممرغين في القذارة قيمتي الحرية والكرامة المطبوعتين في موسيقى فيردي واللتان تشكلان المأثرتين السياسيتين لغاريبالدي ولكل أولئك الذين أوجدوا بلد إيطاليا في القرن التاسع عشر في أثناء الكفاح من أجل التوحد، القيمتين اللتان ساعدتا على جعل إيطاليا دليلاً روحانياً لأوروبة والأوروبيين. وهذا هو ما يريد برلوسكوني ـ الشيء أن يرميه إلى مزبلة التاريخ. فهل سيسمح الإيطاليون لذلك بأن يحدث فعلاً؟

9 حزيران : المفارقة

في أوقات متفرقة سألت نفسي إلى أين يمضي اليسار، واليوم أمتلك الجواب: إنه خارج هناك في مكان ما، لا يزال يحصي العدد البائس والمذل من الأصوات الملقاة من أجل مرشحيه ويبحث عن تفسير للسبب في أن الرقم بهذا الصغر. إن حركة نجحت في الماضي في تمثيل أحد أعظم الآمال بالنسبة للبشرية، قادرة على حثنا على الفعل باللجوء البسيط إلى الاحتكام إلى ما هو الأفضل في الطبيعة البشرية التي رأيت أنها، مع مرور الزمن، تخضع لتغير في تركيبها الاجتماعي، وتكشف عن نزعة متنامية إلى الانحراف وارتكاب الأخطاء، وتخلق انحرافاتها الداخلية الخاصة بها، وتبتعد يومياً أكثر عن وعودها المبكرة، تصبح أكثر فأكثر شبهاً بخصومها وأعدائها القدامى، كما لو كان ذلك الوسيلة الممكنة الوحيدة لتحقيق القبول، وهكذا ينتهي بها المطاف إلى أن تصبح نسخة باهتة مما كانت في الماضي، مستخدمة مفاهيم لتبرير بعض الأفعال، عندما كانت سابقاً تستخدمها للمجادلة ضد الأفعال نفسها بالضبط مع ميل اليسار المتزايد نحو المركزية، وهي نقلة أدعى مناصروه فيما مضى أنها إظهار لتكتيك بارع وتحديث منقطع النظير، لا يبدو أن اليسار لاحظ أنه قد أصبح شبيهاً جداً باليمين. في نهاية كل ذلك، إذا بقي اليسار قادراً على أن يتعلم درساً جديداً، فيجب أن يكون ذلك في خلق جبهة عموم أوروبية تنازل عنها لليمين، وعندما يتحقق ذلك، فيمكنه أن يسأل نفسه ما الذي خلق المسافة المعمقة بينه وبين مؤيديه الطبيعيين ـ الفقراء، المحتاجين، ولكن أيضاً الحالمين ـ في العلاقة بما لا يزال باقياً من مبادئه. لأنه لم يعد ممكناً التصويت لصالح اليسار إذا كف اليسار عن الوجود.

مما يثير الفضول كفاية، وهذه هي المفارقة الحقيقية، أن السياسة التي يصفها عنوان هذه المقالة هي بالضبط تلك التي تقرر في هذه اللحظة مصير البلد الذي كان لزمن طويل للغاية مشغولاً باستنباط شكل من السياسة هو إمبريالي ومحافظ من كافة الوجوه الهامة. إنه بلد باراك أوباما. هذا يغذي الفكر. فالفعل السياسي، كما قلت، الذي يفعل أكثر قليلا من محاولة إعادة ترتيب الأثاث في البيت الأبيض، حيث تقبع الرأسمالية النهابة على وشك أن تلتهم نفسها، يبدو لنا بشكل متزايد الآن أنه تقريباً كتحقق لحلم يساري.

والحال هكذا، نظراً إلى أن أناساً كثيرين للغاية، بمن فيهم التقدميين والاشتراكيين والشيوعيين والبقية، يسألون أنفسهم حالياً: «وماذا لو كان أوباما زعيم حزبي....؟». ربما أن أوضاعاً كهذه هي التي تولد في مناقشات لمصطلح سخرية التاريخ.... أو ربما يُعزى ذلك ببساطة إلى كاريزماه الشخصية.

15 حزيران : فكرة جيدة

ربما لم يكن ذلك أكثر من قطرة ماء عذب تسقط في المحيط المر من الشكوكية واللامبالاة، لكن أعتقد أننا لا نزال بحاجة إلى التهليل للفكرة الجيدة حالياً حول المسير عبر إسبانيا. توخياً للدقة، فإن الفكرة، التي انطلقت في مقاطعة غرناطة، هي إقامة احتفال سنوي بتخفيض سن البلوغ - ليس رسمياً فقط بل أيضاً بلغة الاعتراف الأهلي - إلى سن الثامنة عشرة. إن كل فتى منح حق الاقتراع حديثاً سوف يُسلم نسخاً من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والدستور الإسباني وقانون الاستقلال الأندلسي. من الواضح أنه ستكون هناك احتفالات أخرى، ربما أكثر

مرحاً ـ أو على الأقل أقل رصانة إلى حد ما ـ لكن بما أن المسائل الجدية يجب ألا تعامل إلا بجدية، فيمكنكم أن تتأملوا في رؤية الأحد عشر ألف شاباً الذين يتوقع حضورهم مزودين بدليل كهذا، وهم يتقدمون واحداً واحداً إلى المستقبل، سيعلموننا جميعاً شيئاً ما حول مسؤولياتهم المدنية. «زودوهم» أقول، «بهذه النصوص الثلاثة الأساسية ـ ولن تكونوا قد فشلتم في تزويدهم بتربية أكثر صلابة وقوة، تؤهلهم جيداً لأن يكونوا مواطني الحاضر والمستقبل». الفكرة جيدة، ودعونا نأمل في أن تنتشر أكثر. إن تحويلها إلى يوم عطلة جماعية وأهلية سوف يتطلب إبداعية وجهداً معتبرين، لكن هذين، ونحن يمكن أن نكون أكيدين من ذلك، لن يكونا ناقصين.

إن قطرة الماء العذب المشار إليها في بداية هذه الرسالة لم تسقط في الماء المالح، بل على يدي. رشفتها مثل شخص يموت من العطش في أحد تلك الأيام عندما يحل الإحباط علينا جميعاً، كما نلاحظ كيف أن قوى اليمين ـ بما فيها أقصى اليمين ـ تحتفل بانتصاراتها السياسية في طول أوروبة وعرضها.

فالديمقراطية ليست حتى الآن في خطر، لكنها تعول علينا لمنعها من أن تصبح كذلك. غرناطة على الطريق الصحيح.

11 حزيران : نقش على قبر لويس دي كاموئيس

ما الذي نعرفه عنك إذا كان ما نملكه هو أشعارك
أية ذكرى تبقى في العالم كنت تعرفها؟
بين الولادة والموت هل كنت تغزو كل يوم
أم أضعت حياتك في الأشعار التي تركتها لنا

هذه التساؤلات مأخوذة من كتابي *قصائد ممكنة* os Poemas Possiveis المنشور في عام 1966. اليوم، بعد أكثر من خمس وأربعين عاماً، لا أزال أبحث عن الجواب. ربما لن أجده أبداً. اكتب هذا في العاشر من حزيران، الذكرى السنوية لوفاة مؤلف The Lusiads الذي لا خلاف على أنه الكتاب الأهم في الأدب البرتغالي.

رغم أن كاموئيس مات فقيراً ومنسياً، فإن الذين يكتبون بالبرتغالية اليوم لازال بمقدورهم أن ينالوا الشرف الفريد والحصري لتلقي الجائزة التي تحمل اسمه.

12 حزيران : جسد الله

يعرف أيضاً باسم جسد المسيح Corpus Christi، هذا «يوم مقدس للالتزام» بالنسبة للروم الكاثوليك، إضافة إلى كونه عيداً عاماً. إذ يتوقع من كافة المؤمنين أن يحضروا القداس لكي يشهدوا على الحضور الحقيقي والجوهري للمسيح في خبز القربان المقدس. الويل لكم إذا راودتكم أية شكوك تجاه الحضور الإلهي ضمن الرقاقة القمحية، كما فعل كاهن يدعى بطرس البراغي Peter of Prague في القرن الثالث عشر: آخر شيء تريدونه هو تكرار للمعجزة الشنيعة للرؤية الفعلية لخبز القربان وقد تحول إلى لحم ودم، ليس رمزياً بل واقعياً. ولا أنتم تريدون أن يكون عليكم أن تحملوا الدليل الدموي حولكم في موكب مهيب إلى الكاتدرائية في أوفيدو، كما شرحت موسوعة ويكيبيديا بشكل بالغ اللطف أن بيتر أجبر على فعله، كما علمت عندما كان علي أن ألجأ إلى استشارة الموقع حول مثل هذا الموضوع المعقد. كان العالم مكاناً فاتناً بشكل استثنائي في تلك الفترة. أما اليوم فإن معجزة التعافي

الاقتصادي وبعث المصارف تتأثر بطبع ملايين الدولارات ووضعها في التداول بسرعة مدوخة، مالئة بذلك فراغاً بفراغ آخر، أو، لنستخدم مصطلحات أقل مجازفة، التعويض عن انعدام للقيمة بمجرد قيمة مفترضة ستدوم فقط طالما دام الإجماع المحقق على ما تدعى قيمتها في المقام الأول.

مع ذلك لم تكن هذه الأزمة هي ما أردت الكتابة حولها. بأي حال، كما سترون الآن، فإن ذكري لجسد الله ليست حجة مجانية أو سهلة للتبشير بالهرطقة، كما هي عادتي عندما أتابع آرائي الخاصة الخبيرة بشكل مقبول. فمنذ أيامٍ قليلة، في 28 أيار على وجه الدقة، كان بوليفي يبلغ من العمر ثلاثاً وثلاثين سنة يدعى فرانز ريلز، وهو مهاجر «بدون أوراق» وبلا إذن عمل، لا داعي للقول إنه كان يعمل في مخبز في غانديا، إسبانيا، ضحية لحادث خطير: آلة عجن بترت ذراعه اليسرى. صحيح أن مالكي المخبز أحسنوا إليه بأخذه إلى المستشفى، لكنهم تركوه على بعد 200 ياردة من الباب مع الأمر: «إذا سئلت، لا تذكر مخبزنا». وكما ينبغي تماماً طلب الأطباء الذراع لكي يحاولوا إعادة وصلها، لكنهم أجبروا على التخلي عن هذا المشروع بسبب الحالة البائسة للذراع عندما وجدوها. كانت قد رميت على كومة النفايات.

في الختام، أؤكد أنني لم أكن أود حقاً أن أكتب حول جسد الله. كما هي عادتي، فقد تركت شيئاً يقود إلى آخر، وقد كان جسد الإنسان هو الذي أردت حقاً أن أتكلم عنه، هذا الجسد الذي لا يزال يعامل بسوء منذ البزوغ الأول للزمن، ويُعذب ويُحتقر ويذل ويغتصب في شرطه المادي الأكثر أساسية؛ جسد بترت منه ذراع، والإنسان الذي فقدها أُمر بأن يبقى صامتاً لئلا يؤذي شركة. آمل فقط من المؤمنين الذي يهرعون

إلى القداس اليوم أن يقرؤوا صحفهم وأن ترق قلوبهم قليلاً لأجل اللحم المتألم لهذا الرجل ودمه المراق. أنا لا أفكر بما يُعلن على المذبح. بل أفكر فقط في أن على مرتادي الكنيسة أولئك أن يفكروا بهذا الرجل وغيره الكثيرين من أمثاله. هم يقولون إننا جميعاً أبناء الله. هذا ليس صحيحاً، لكن هذا الكذب يمنح العزاء للكثيرين. الله لم يكن في عون فرانس ريلز، ضحية آلة العجن وضحية وحشية الناس عديمي الضمير الذين استغلوا عمله استغلالاً بشعاً. هذا هو طريق العالم: لا يوجد أي طريق آخر.

15 حزيران : ميغويـز

تعرفت على خوسيه رودريغز ميغويز بعد وقت من بدء عملي في دار Estedios Cor للنشر في 1959. كانت الشركة ملكية مشتركة لكوريّا Correia وكانهو Canhao، وكان المدير الأدبي هو ناتانيل كوستا قبلئذ بعام، كان ميغويز قد نشر مجموعة من القصص القصيرة والروايات تدعى Léah، لقيت استقبالاً جيداً إلى أقصى الحدود من قبل العامة والنقاد في ذاك الوقت. كان هذا أول عمل قرأته له، ولا داعي لأن أخبركم كم ملأني بالحماس. لست متأكداً بدقة متى تعرفت على ميغويز شخصياً، لأنه كان يعيش في الولايات المتحدة في ذاك الوقت. ما أعرفه هو أنه، من ظهور رواية ***رجل يبتسم للموت بنصف وجه*** Um homem sorri à morte com meia cara، المنشورة في عام 1959، وصولاً إلى ظهور رواية Nikalai! Nikalai!، التي ظهرت في عام 1971، ومروراً برواية A Escola do Paraiso ورواية O Passageiro do Expresso وكلتاهما ظهرتا في عام 1960،

وClasse Gente da Terceira في عـــام 1962، و ÉProibido apontap في عام 1964، كنت في اتصـال شـبه متواصـل مـع خوسـيه رودريغز ميغويز: في اتصال يومي يبقى كلما كان في البرتغال وفي اتصـال متـواتر عــن طريــق الرســائل كلمــا عــاد إلى الولايــات المتحــدة. هــذه المراسلات، الذي حُكم عليها بأنها جديرة بالاختيار مـن قبـل خوسـيه ألبينو بيريرا من أجل أطروحته لنيل شهادة الـدكتوراه (وعلـى المسـتوى نفسه عندما وضعت حواراتي الأدبية مـع خورخـه دي سـينا) تمـنحني الحق في القـول إنـني لم أظهـر بمظهـر سـيء في هـذا العـام. لم تنقطـع علاقتي الرسائلية مـع ميغيـز إلا عنـدما تركـت دار النشـر، في حـوالي نهاية عام 1971. بعدئذ لم أكن أراه إلا في أحيان قليلة، فلم تعد هناك رسائل أذكرها، لكنه بقي دائماً في ذاكرتي كشخص غير عـادي، محبـو بمهارات بلاغية استثنائية وبعقل قادر على وصف أعقد الأوضـاع بأقـل الكلمات. وفي كل يوم كان معه هبة حقيقية، والدخول في حوار مع مثل هذا العقل اللامع يجعل محـاوره يبـدو أكثـر ذكـاءً. بـالكلام شخصـياً، وبدون الرغبة في التبجح حول ذلك، لقد استفدت اسـتفادة قصـوى مـن تلك المناسبات. توفي منذ حوالي ثلاثين عاماً، مع ذلك فأنا أتذكر ذلـك كله كما كان البارحة.

16 حزيران : نتنياهـو

لم أتكلم إلا لأنه كان من المستحيل أن أبقى صامتاً أطول مـن ذلـك. وافق رئيس الوزراء الإسرائيلي، وقد أجبره على ذلـك رئـيس الولايـات المتحدة، (أو بالأحرى، تنازل)، أخيراً، على إنشاء دولة فلسطينية. لم يكن الأمر بأكثر صراحة من ذلك. أو بالأحرى، نعم لقـد طالـب بشـكل

إضافي بألا يُسمح لهذه الدولة في المستقبل (إذا وجدت فعلاً دولة فلسطينية في وقت ما) بإنشاء جيش، وأن يكون مجالها الجوي خاضعاً لسيطرة إسرائيل ـ بعبارة أخرى، سوف تمتلك إسرائيل الوسائل لاضطهاد الفلسطينيين وإبقائهم في حالة التهميش السياسي القسري.

مع ذلك، فإن الجوانب الجوهرية الأخرى من موقف باراك أوباما، فيما يخص كلاً من المستوطنات والمستوطنين، لم تستأهل كلمة واحدة من نتانياهو. فكل شخص يعرف في الضفة الغربية أن الأرض «القومية» التي تعود نظرياً إلى الشعب الفلسطيني مغطاة بالمستوطنات، بعضها «قانوني» (يعني أنها مرخصة ومبنية من قبل الحكومة في القدس)، والبعض الآخر «غير قانوني» (غير مرخصة) لكن الحكومة نفسها تغض الطرف عنها). إذ يصل مقدارها مجتمعة إلى أكثر من 200 مستوطنة، يقطنها حوالي نصف مليون مستوطن، يشكلون، بالنسبة لكل شخص معني، العائق الأخطر أمام السلام، وهو عائق أكبر حتى من الحصول على الاعتراف بحق الفلسطينيين في دولة مستقلة وقابلة للحياة.

كان بوش الأب نفسه قد اقترح إلى هذا الحد في عهده، عندما أجبر الحكومة الإسرائيلية على أن تتحقق من أن الحديث عن السلام وبناء المستوطنات في الوقت نفسه هو تناقض جنوني. وبدا أن رئيس الوزراء السابق أيهود أولمرت أيضاً أنه مدرك لذلك عندما قال، في مقتطفات سربت إلى صحيفة هآرتز في تشرين الثاني 2007، أنه إذا لم يتم التوصل إلى حل الدولتين سريعاً، فإن «دولة إسرائيل ستنتهي». مع ذلك لم يفعل شيئاً على الإطلاق لحل المشكلة، في حين بقيت كلماته معلقة في الهواء. إنها تساعدنا على فهم كيف خدم المستوطنون دائماً بمثابة سيف ديموقليس المسلَّط فوق الحكومة الإسرائيلية، والآن ـ مع وجود مبررات أكثر إلحاحاً ـ فوق رأس نتنياهو. أظن أن كثيراً من اليهود في

إسرائيل يتملكهم الخوف من العودة إلى الشتات، ذاك الانتشار حول العالم الذي كان يبدو أنه قدرهم. والأفق لا يحمل لي أي مبعث للسرور أياً يكن، مع ذلك يبقى أن نرى ما إذا كان حكام إسرائيل سيبرهنون على أنهم قادرون على صنع السلام. اسألوهم كما تشاؤون غالباً، ويبقى الجواب بالنفي.

17 حزيران : الفيل في أسفاره

سيتذكر قُرائي أن اسمي القريتين اللتين صادفتهما الحملة إلى فيغويرا دي كاستيلو رودريغو لم يذكرا أبداً من قبل سارد تلك القصة. هاتان القريتان، كما وصفتا، كانتا مجرد اختراعين ضروريين للسردية ولم تكونا تحملان آنذاك، أكثر مما كان لهما الآن، أي صلة بالواقع الفعلي. لذلك ستكون إهانة للمخلصين للأمانة التاريخية أن يعلموا أن سولومون اليوم كانت تُعد لأجل رحلة من الممكن أن تكون قد حدثت، حتى رغم أنها ليست حقيقة تاريخية موثقة، حتى رغم أنه لم يتبق أثر منها. الحياة مليئة بأحداث الصدفة، ولا يمكن للمرء أن يستبعد إمكانية أن التاريخ، في هذه الحالة أو في حالة أخرى، يصدف أن يتطابق مع القصة. صحيح أن التاريخ لا يسجل دوس سولومون فوق الأرض في كاستيلو نوفو أو سوتيلا أو سيدادلهي، لكن من المستحيل بالقدر نفسه أن نقسم أن ذلك من الممكن أن يكون قد حدث. نحن في مؤسسة خوسيه ساراماغو استفدنا من هذه الحقيقة الجلية لكي نخطط وننظم الرحلة التي تنطلق اليوم من الدير الهيرونيمي في بيليم وتأخذنا جميعاً في الطريق إلى الحدود، حيث وقعت حادثة الفرسان الدارعين النمساويين الذي حاولوا جلب الفيل إلى الأرشيدوق.

فأي تكرار تعسفي، قد يحتج القارئ قائلاً، «في حين أننا، من أجل ماضينا، لن نحصل على شيء منه» مفضلين أن نصفه ببساطة بأنه إحدى الإمكانيات التي لا تعد ولا تحصى. دعونا نبتعد ليومين، ودعونا ننسج قصة من رحلاتنا. من الذي سيذهب؟ دعوا المؤسسة بأكملها تنطلق، مع قلة من أفضل أصدقاء سولومون وبعض الصحافيين البرتغاليين والأسبان، الطيبين جميعاً. دعونا نذهب بسلام. فإلى أن نعود وداعاً، وداعاً.

18 حزيران: في كاستيلو نوفو

منذ أكثر من ثلاثين عاماً كتبتُ:

«كاستيلو نوفو هي إحدى ذكريات المسافر الكثيرة الأكثر إثارة للمشاعر. ربما سيعود إلى هناك ذات يوم، ربما لن يعود، أو ربما سيتحاشى ذلك بشكل متعمد، لأن بعض التجارب لا يمكن تكرارها. إن كاستيلو نوفو، مثل ألبدرينها، مبني على سفح جبل. فإذا واصلت الصعود، ستصل حالاً إلى قمة غادرونها. لا حاجة بالمسافر لأن يكرر روايته لوقت النهار، والضوء، والهواء الرطب. إنه ببساطة يطلب ألا تنسى ذلك كله فيما هو مشغول بصعود الشوارع المنحدرة، والمرور بالبيوت البسيطة والقصور مثل هذا القصر من القرن السابع عشر، برواقه المعمد، وشرفته، ومدخله المقنطر المؤدي إلى البهو. سيكون من الصعب أن نجد بناء أكثر تناغماً. لذلك هناك الضوء والساعة، كما لو كان معلقاً في الزمن وفي السماء: المسافر سيكون قادراً على رؤية كاستيلو نوفو».

وكتبت أيضاً حول أشخاص محددين منذ ثلاثين عاماً:

«يسأل المسافر امرأة عجوز تقف على عتبة بابها أين وعاء الخمر. المرأة العجوز صماء، لكنها تفهم إذا خوطبت بصوت عال ويمكنها أن تراقب شفتيك. عندما تفهم السؤال، تبتسم ويذهل المسافر لأنه رغم أن أسنانها اصطناعية إلا أن الابتسامة حقيقية للغاية، ومن الواضح أنها مسرورة للغاية بالابتسام بحيث تشعر كأنك تعانقها وتطلب منها أن تفعل ذلك مرة أخرى».

كتبت عن خوسيه بيريرا دوارتي، أحد أكرم الناس الذين قابلتهم في حياتي، أنه كان ينظر إلى المسافر كما ينظر المرء إلى صديق يظهر بعد غياب دام سنوات كثيرة. أما أسفه، كما قال، فهو لأن زوجته مريضة في الفراش: «لو لم تكن مريضة للغاية، لكنت استمتع حقاً باستضافة المسافر لفترة من الزمن في بيتي».

اليوم نحن مع ابنة خوسيه بيريرا دوارتي وحفيده. السيدة العجوز لم تعد هناك، لكن وجوها ودودة أخرى تظهر في كاستيلو نوفو ولن أنطلق مرة أخرى بنفس الروح العالية كما غادرت قبل ثلاثين عاماً. إذا صدف أن مر سولومون الفيل في هذا الاتجاه، فإن أولئك الذين كانوا يشكلون حاشيته سيشعرون بالشيء نفسه. لا يمكنك أن تخترع دفء ترحيب كهذا.

22 حزيران : عودة

ابتهج الفيل بما شاهده وأبلغ ذلك إلى الرفاق المجتمعين، رغم أنه لم توجد نقطة واحدة على خط رحلتنا، المختار، يمكن أن تكون قد تقاطعت مع تلك النقاط التي حفظها بشكل غيور في ذاكرته الفيلية. إن الفيل الذي سافر شمالاً، كما أخبرنا، مع جنود كتيبة الخيالة إلى

مسافة تكاد تصل إلى الحدود، في وقت كانت فيه الطرق في حالة مفزعة حقاً. كانت رحلتنا، مقارنة بالرحلة في تلك الأيام، نزهة في حديقة: طرق جيدة، أمتعة جيدة، مطاعم جيدة. الأرشيدوق نفسه، مع أنه كان متعوداً تماماً على كل كماليات أوروبة الوسطى، كان سيفاجأ بشكل سار. فقد كانت الحملة حملة عمل، لكنها كانت ممتعة كما لو كانت عطلة. فحتى الحمالين الطويلي المعاناة، المجبرين على حمل أكثر من خمسة عشر باونداً من التجهيزات على أكتافهم، كانوا مسحورين. مما كان مثيراً للاهتمام هو أن أحداً من أصدقائنا، ومن الصحافيين المرافقين، لم يكن مطلعاً سابقاً على الأمكنة التي زرناها. كل شيء كان أفضل لهم، إذاً، نظراً إلى أنهم استطاعوا أن يجمعوا قدراً كبيراً من المادة للسرد والتسجيل. انطلقنا من كونستانسيا، حيث يعتقد أن كاموئيس عاش وبنى بيته، وحيث أنه لابد قد رأى عبر نوافذه عناق الزيزيري Zezere والتيجو Tejo أكثر من ألف مرة، والذي ألهمته مياهه الراجعة الرقراقة أرفع أشعاره. من هناك ذهبنا إلى كاستيلو نوفو لرؤية الكازا دا كامارا[4]، التي يعود تاريخها إلى عصر الملك دينيس من القرن الثالث عشر، والنافورة الجوانية Joannine التي تقبع بهدوء إلى جانبها. رأينا أيضاً حوض الاستحمام، هو نوع من راقود الهواء الطلق محفور من الصخر الأجرد، حيث كانت الأعناب تهرس فيه في أوقات تعتبر الآن ما قبل تاريخية: بتنا الليلة في المؤسسة، التي تقع في منطقة ممتازة لأجل الكرز، وفي اليوم التالي تابعنا إلى بلمونتي، حيث ولد بيدرو ألفاريس كابرال، وحيث ذهبنا مباشرة إلى كنيسة سانتياغو، التي أنا مخلص لها بشكل خاص. إنها تحتوي على النحوتات الرومانية

---

(4) بيت الحجرات ـ صالة المدينة، المبنية بالأسلوب الرومانسكي المفضل لساراماغو.

الأكثر إثارة للمشاعر على وجه الأرض، وصوره المنتحبة المرسومة بخشونة مصنوعة من الغرانيت، مع المسيح الميت من الحياة ممدداً على ركبتي أمه. مقارنة بهذه، فإن منتحبة مايكل أنجلو الشهيرة من الفاتيكان هي بالكاد أكثر من آخر نفس من التكلف لم يكن من السهل انتشال زملائنا المسافرين من الغشية الانتشائية التي كانوا قد وقعوا فيها، لكننا نجحنا في استدراجهم لرؤية اللغز المعماري للـ Centum Cellas المبني الذي كانت حالته غير المنتهية ولا تزال موضوع المجادلات الأكثر سخونة. فهل كان من الممكن أن يكون برج مراقبة؟ أم نزلاً لأجل المسافرين العابرين؟ أو ربما سجناً، رغم كمية النوافذ المكسرة المتبقية، وهو أمر غير اعتيادي بالتأكيد من أجل سجن؟ لا أحد يدري. إن جوعنا من أجل الصور قد أشبع في حينه، فانطلقنا إلى سورتلها، مع أسوار مدينتها العملاقة، حيث إن عاصفة رعدية خلافاً لأية عاصفة أخرى هاجمتنا بأشعة مخططة من البرق، والرعد المرافق له، والمطر في الولاء، والبَرَد مثل نار بندقية آلية. لم ننجح في الحصول على قهوتنا، نظراً إلى أن الكهرباء كانت مقطوعة. استغرق الأمر ساعة قبل أن تبدأ السموات بالانقشاع. كانت لا تزال تهطل عندما خرجنا على طريق السيارات، متجهين نحو سيدادلهي، التي لن أكتب عنها الآن. إنني ببساطة أحيل القارئ المهتم والمتعاطف إلى الصفحات الأربع أو الخمس المكرسة لذاك المكان في كتاب رحلة إلى البرتغال. انبهرت أنظار رفاقنا بالـ Palio 1707 وبعدئذ، في جولة القرية، بالنقوش ضئيلة فوق مدخل الباب المؤدي إلى البيوت والأضرحة في الكنيسة الأم، مع بورتريهات القديسين فيها. فعادوا وقد تبدلت هيئتهم بفعل السعادة.

الآن كل ما بقي لنا حتى الآن لنراه هو كاستيلو رودريغو Castelo Rodrego. كان رئيس غرفة مجلس فيغويرا دي كاستيلو رودريغو

ينتظرنا على الجسر فوق نهر كوا، غير بعيد عن سيدادلهي. احتفظت بصورة لكاستيلو رودريغو منذ أول مرة أذهب إلى هناك، منذ ثلاثين سنة، صورة مدينة قديمة خربة ، حيث الخرائب كانت خرائب الخرائب، كما لو أن ذلك كان مقصوراً كنوع من قناع متعدد. في هذه الأيام كاستيلو رودريغو هو منزل لـ 140 نسخة، الشوارع نظيفة، ومتيسرة الوصول إليها، الواجهات والأجزاء الداخلية تم ترميمها أو، قبل كل شيء، اختفى حزنها بلا ريب، ومواجهها الجديد هو الآن أفضل دعاية لها. على المرء أن يعود إلى هذه الأماكن التاريخية. لأنها يمكن أن تعود إلى الحياة مرة أخرى. هذا هو الدرس من هذه الرحلة.

23 حزيران : ساستري

قابلت الكاتب المسرحي ألفونسو ساستري منذ أكثر من ثلاثين عاماً. كان لقاءنا الأول والوحيد. لم أكتب إليه أبداً ولم أتلق منه رسالة أبداً. تخلف لدي الانطباع عن شخصية صارمة وقاسية، ليس فيها أي شيء لطيف، لم يفعل شيئاً لجعل نقاشنا أسهل، رغم أنه لم يكن صعباً تماماً. لم أسمع عنه شيئاً، سوى من خلال مراجعات الصحافة الحينية والتافهة التي كانت تشير دائماً إلى نضاله السياسي في صفوف قوميي الباسك.

في الأسابيع الأخيرة عاد اسم ألفونسو ساستري إلى الظهور على رأس قائمة المرشحين للانتخابات الأوروبية، كجزء من مبادرة أممية مشكلة حديثاً. فشلت الجماعة في إحراز تمثيل في برلمان ستراسبورغ.

منذ أيام قليلة، اغتالت منظمة ايتا شرطياً اسمه إدواردو بيليس، باستخدام تلك الحيلة المضمونة تقريباً، قنبلة موضوعة تحت شاسيه

سيارته. كان موته شنيعاً؛ فالنار أحرقت جسد الرجل التعيس الحظ بشكل مرعب، فلم يكن بمقدور أحد أن يساعده. أثارت الجريمة استياء عاماً، عبر إسبانيا كلها، أو بالأحرى، ليس عاماً إلى هذا الحد. فألفونسو ساستري كان قد نشر مقالة تهديد في الجريدة اليومية للباسك (غارا Gara)، تكلم فيها عن «أزمنة الألم العظيم بدلاً من السلام» فيما كان يسعى إلى تبرير الهجمات بوصفها مكملة «للصراع السياسي»، مضيفاً أنه ستكون هناك هجمات أخرى ما لم يعاد فتح المفاوضات السياسية مع ايتا. يمكنني بصعوبة أن أصدق ما أقرأه. إذا لم يكن ساستري هو الذي ألصق القنبلة إلى شاسيه سيارة إدوارد بيليس. كله سواء، لم أتوقع أبداً أن أراه يبرر جرائم قتل كهذه.

24 حزيران : ساباتو

حوالي مئة عام، أو لنكن دقيقين ثمانية وتسعين، هو ما يحتفل إرنستو ساباتو بمروره اليوم ـ سمعت اسمه لأول مرة في مقهى تشيادو القديم في لشبونة، في الخمسينات. فقد ذكره صديق كانت أذواقه الأدبية تميل نحو آداب أمريكا الجنوبية المعروفة قليلاً آنذاك. أما بقية شلتنا ـ كنا نلتقي كل يوم بعد الظهر، فكانت تفضل، بشكل شبه إجماعي، فرنسا الحلوة والخالدة مع ذلك، باستثناء غريبي الأطوار المناسبين الذين كانوا يتبجحون بأنهم يحفظون عن ظهر قلب ما يُكتب في الولايات المتحدة إلى هذا الصديق، الذي فقدت رؤيته في النهاية، أدين بالدافع الفضولي الأولي الذي قادني إلى خوليو كورتاثار وبورخس، وبيوي كاساريس وميغيل أنخل أستورياس، ورومولو غاليغوس وكارلوس فوينتس، وآخرين كثر الذين ينسلون من ذاكرتي عندما أحاول تذكرهم ـ

ومن بينهم ساباتو. لسبب غريب ما ربطت هذه المقاطع السريعة الثلاثة بطعنة متقطعة من خنجر بالأخذ في الاعتبار ما تعنيه فعلاً هذه الكلمة الإيطالية المألوفة، فإن ربطي هذا قد يبدو الأكثر تناقضاً، لكن الحقائق موجودة لتروى، وهذه واحدة منها. نشرت رواية *النفق* El tunnel [وتترجم أيضاً بعنوان *الغريب* The outsider] قد نشرت في عام 1948، لكنني لم أقرأها أبداً. في تلك النقطة من الزمن، كنت كشاب بريء ومفعم بالشباب عمري ستة وعشرون عاماً، لا تزال أمامي طرق كثيرة لأرتادها قبل أن اكتشف الطريق البحري الذي سيأخذني على بوينس أيرس.

في هذه الأثناء، أصبحت رواية النفق شريكي الذي لا يُنسى على الكثير من طاولات المقاهي، حيث كنت أجلس وأنا أتسلى وأراقب، ورواية ساباتو في يدي. لقد بينت لي صفحاتها الأولى بالضبط إلى أي مدى صار تداعي الأفكار الجريء يجلبني من الكنية إلى الخنجر. إن أية قراءات لاحقة لأعمال ساباتو، سواء كانت روايات أم مقالات، قد خدمت فقط في تأكيد انطباعي الأول عن لقاء مع كاتب تراجيدي وشفاف بشكل بارز قادر على فتح طريق عبر الممرات التاهية لأرواح قرائه ولن يسمح لهم، حتى للحظة، بأن يبعدوا أنظارهم عن الزاوية الأكثر غموضاً أو الزاوية المظلمة من كينونتهم. هل جعل ذلك العمال أصعب قراءة؟ ربما، لكنه أيضاً جعلها أكثر فتنة.

إن مزيج السوريالية والوجودية والتحليل النفسي الذي وفر المرتكز النظري للنثر الذي ألفه مؤلف Sobre heroes Ytumbas[5] ينبغي ألا يسمح لنا بأن ننسى أن هذا العدو المعلن ذاتياً للعقل (المدعو إرنستو

---

[5] عن الأبطال والقبور، غير مطبوعة بالإنكليزية الآن لكنه نص كلاسيكي م الأدب الأرجنتيني في القرن العشرين.

ساباتو) استخدم عقله البشري اللامعصوم والمتواضع لوصف ما كان أمام عينيه مباشرة في أثناء جحيم من القمع الدموي المنزل على الشعب الأرجنتيني[6].

إن أعمال النثر التخييل التي تعيد إلى الذاكرة فترات تاريخية معينة في أمكنة مسماة بشكل هادف، مثل El túmel، Sobre heroes Y tumbas، Abbadjon el Exlermtimador [أبادجون المبيد]، يجبر المرء ليس فقط على سماع صرخات ضمير مبتلى بعجزه الخاص ومشاهدة الرؤية النبوئية لسيبيل أرعبها المستقبل المتنبأ به، بل تذكرنا أيضاً، مثل غويا (المعروف كرسام أفضل مما هو معروف كفيلسوف) في نقوش Caprichos الشهيرة الذاكرة المتعذر محوها. إنه دائماً نوم العقل هو الذي يلد ويكبّر ويجعل عرقاً لا إنسانياً من الوحوش مزدهراً.

عزيزي أرنستو، هذه هي الرعشة والرعب اللذان يسريان عبر كل حيواتنا، وحياتك ليست استثناءً. ربما كنا في هذه الأيام لا نواجه وضعياً دراميا كتلك الأوضاع التي عشت فيها، و بسببها، أنت محبو بحس الإنسانية كما أنت، رفضتَ أن تغفرَ نومك الخاص. أنت شخص أصبح من المستحيل بالنسبة له أن يغفر حتى شرطه الإنساني الخاص به. لا شك في أن البعض لن يُسر بقوة الشعور هذا، لكنني أرجوكم ألا تجردوا أنفسكم من ذاك الخنجر. عمري حوالي مئة عام. أنا متأكد من أن القرن الذي خلفناه وراءنا سيصبح معروفاً بقرن ساباتو، على الأقل بقدر ما هو قرن كافكا أو بروست.

---

[6] الدكتاتوريات العسكرية الثلاث للجنرالات فيديلا وفيالا وغالتييري التي حكمت بين عامي 1976 و1983، و«الحرب القذرة» التي شنوها على السكان المدنيين، أدت إلى «اختفاء» من 10 إلى 30 ألف شخصاً. في 1984 نشر إرنستو ساباتو كتاباً عن شهادات الضحايا، أسماه Nunca Más (نشر في بريطانيا تحت عنوان [لن يتكرر مرة أخرى أبداً]. Never Again. [فابر أند فابر 1986 ترجمة نك كايستور].

25 حزيران : تشكيل (1)

لست غافلاً عن حقيقة أن الواجب الرئيسي للتعليم عموماً، والتعليم في الجامعة خصوصاً، هو ما نسميه التشكيل Formation. فالجامعة تعد الطالب لأجل الحياة، ونقل المعرفة ضروري لأجل التطبيق الفعلي لمهنة مختارة ضمن مجال المطالب المفروضة عليها من قبل مجتمع مفترض، مهنة كان من الممكن أن تكون فيما مضى دافعاً مهنياً، لكنها تقوم في كثير من الأحيان الآن وبشكل متزايد على التطورات العلمية والتكنولوجية، جنباً إلى جنب مع مصالح الأعمال الضاغطة. في الحالتين، فإن الجامعة سيكون للجامعة دوماً المبرر للاعتقاد أنها قد وفت بالتزاماتها بتسليم المجتمع شباباً جاهزين ليتلقوا ويدمجوا في جسم معرفتهم الدروس التي لا يزال من الواجب تعلمها، أعني تلك الدروس التي ستعلمهم إياها التجربة (أم الكائنات البشرية قاطبة). في هذه الأيام تكون الجامعة، كواجب لها، وإذا استمر ما يدعى التكوين بالقيام بالباقي يبرز السؤال الحتمي: «أين المشكلة؟» المشكلة هي أنني قد حضرت نفسي بمناقشة التكوين الضروري للتطوير المهني، تاركاً جانباً التكوين الآخر، تكوين الفرد، الشخص، المواطن. ذاك الثالوث الدنيوي، كله موجود في جسد واحد.

لقد حان الآن لمعالجة هذا الموضوع الدقيق. فأي عمل يُنجز يفترض مسبقاً، بشكل واضح، موضوعاً وهدفاً. أما الموضوع ـ أو ربما ينبغي أن نقول هنا الذات ـ هو الشخص الذي هو موضوع التكوين والهدف يكن في طبيعة وغايات ذاك التكوين. فالتكوين الأدبي، على سبيل المثال، يخلق الشكوك فقط في مناهج التعليم المستخدمة وتقبليه الطالب الأكثر أو الأقل. مع ذلك يتغير السؤال بشكل جذري عندما نبدأ مناقشة تكوين

الفرد، مفترضين دائماً أننا نريد أن تخلق لهم ذاك الشخص الذي أسميناه «موضوعنا»، ولا نحصر أنفسنا بمجرد توفير المواد المناسبة لهذا الحقل العلمي بعينه أو ذاك المنهاج بعينه. هذا يورطنا في تضمين المركب الكامل من القيم الأخلاقية والعلاقات النظرية أو العملية التي لا غنى عنها لأي نشاط مهني. مع ذلك، ليست تكوين الأفراد، بحد ذاته، منوماً. فالتعليم الذي نشر أفكار التفوق العرقي أو البيولوجي سيكون تحريفاً لهذا المفهوم الجوهري للقيمة مستبدلاً الإيجابي بالسبي، مستبدلاً الأفكار التي تشجع على احترام الإنسانية بالتعصب ورهاب الأجانب. إن التاريخ القديم والحديث ليس مقصوراً على أمثلة على ذلك. دعونا نتابع.

26 حزيران : تشكيل (2)

إلى أين يمكنني أن أذهب بهذا الخطاب؟ إلى الجامعة. وأيضاً نحو الديمقراطية. فالجامعة لأنها أصلاً بيت مقر التفوق، المسؤول عن توزيع المعرفة الضرورية لتكوين المواطنين و تربية الأفراد بقيم الإنسانية المشتركة واحترام السلام، وإعدادهم لأجل الحرية ولأجل المناقشة المسؤولة والنقدية بشكل سليم للأفكار. يمكنك المجادلة في أن الجزء الأساسي من هذه المهمة ينبغي أن تؤول إلى الأسرة بوصفها النواة الاجتماعية الأساسية، مع ذلك، كما نعرف، فإن مؤسسة الأسرة تمر بأزمة هويتها الخاصة، ما يجعلها غير فاعلة في مواجهة أي من التغيرات التي تميز عصرنا. فالأسرة، باستثناءات نادرة، تنحو إلى هدهدة ضميرنا الاجتماعي لينام، إلى أن نصل إلى الجامعة، حيث، عندما نقابل أشخاصاً جدداً ونكتشف الاختلاف، الشرط الضروري

لأجل التمرن العملي والحقيقي في أكمل القيم الديمقراطية مجتمعة، بدءاً بما يبدو لي أنه القيمة الأكثر أساسية قاطبة: قضية الديمقراطية ذاتها. ينبغي علينا أن نجد طريقة لإعادة اختراع هذا المفهوم، أن ننتشله من الشلل الذي أغرقه فيه الروتين والإنكار، وكلاهما بمساعدة من قبل القوى الاقتصادية والسياسية التي تجد أن من المناسب أن تحافظ على الواجهة الزخرفية للصرح الديمقراطي بدون السماح لبقيتنا بالتحقق ما إذا كان لا يزال ثمة شيء فعلاً وراءها. برأيي، أياً يكن المتبقي فهو بشكل شبه دائم يستخدم بشكل أكثر في دعم الأكاذيب أكثر مما في الدفاع عن الحقيقة. إن ما ندعوه ديمقراطية يبدأ، بشكل مؤسف، بأن يشبه ثوب الجنازة الذي يغطي جرة الرماد التي ترتاح فيها بقايا الجثة المتعفنة. فدعونا إذاً نعيد إحياء الديمقراطية، قبل أن يفوت الوقت كثيراً. ويمكن للجامعة أن تساعدنا في القيام بذلك. فهل تريد هي ذلك؟ وهل ستكون قادرة على ذلك؟

29 حزيران: إسبانيا السوداء

إسبانيا السوداء Espanà megra هو عنوان كتاب من تأليف الفنان خوسيه غوتيريز سولانا (1886 ـ 1945). هذا الكتاب يكون في بعض الأحيان من الصعب أو من المزعج قراءته، ليس بسبب الأسلوب العويص أو التركيب الإعرابي الفقير، بل بسبب قسوة تصويره لإسبانيا، التي يتتبعها ببساطة عن طريق ترجمة صورة إلى الصفحة المكتوبة، صور وصفت سابقاً بأنها قاتمة وبشعة، تعكس الجو المنحط لإسبانيا الريفية في ذاك الوقت، كاشفة كل ذلك في لوحات بدون تجنب الأمثلة الأكثر فظاعة أو فحشاً أو قسوة على السلوك البشري. إن إسبانيا غوتيريز

سولانا، المتأثرة بأسلوب الباروك الأكثر قتامة وبالأخص أسلوب فلاديس ليال Vlades Leal، والذي تشي به «اللوحات السوداء» لغويا Goya، قذرة والبشاعة بأقصى درجة يمكن تخيلها، لأنه لا يوجد أي سبب آخر غير ذلك فيما وجده في ملاحظاته لما تدعى أيام الأعياد الشعبية وأزياء وتقاليد موطنه.

إسبانيا اليوم لم تعد هي نفسها؛ فقد أصبحت بلداً متطوراً ومهذباً، قادرة على تلقين العالم دروساً قليلة في المجتمع المدني. كما سيحتج قارئ الفقرة الواردة أعلاه. لا أنكر أن هذه الرؤية من الممكن أن تصمد للنقد في كاستلهانا، في صالات متحف برادو، في المناطق المجاورة لسلامنكا أو جادات برشلونة؛ مع ذلك لا يوجد أي ندرة في الأمكنة التي يمكن فيها لغوتيريز سولانا، لو كان لا يزال حياً، أن ينصب حامل لوحة الرسم ويرسم نفس اللوحات بنفس الظلال كما من قبل. أعني تلك البلدات والمدن حيث، عن طريق الاشتراك العام أو بالدعم المالي لصالات البلدة المحلية، تورد الثيران وحلبات مصارعة لأجل بهجة وسرور السكان المحليين في كل مرة يحين فيها يوم عيد محلي. البهجة والسرور لا يقومان ببساطة على قتل الثور وتوزيع شرائح اللحم على الناس الأكثر عوزاً. رغم مستويات البطالة المرتفعة، فإن الشعب الإسباني يتمتع بحمية غذائية وفيرة. يُرهق الثور وهو أعمى، وهو يفيض دماً، يطعن بالرمح في الخاصرتين، وربما يكوى عن طريق المناخس الملتهبة التي كانت تستعمل في البرتغال في القرن الثامن عشر، ومن ثم يُطارد إلى البحر، لكي يغرق هناك: فيكون الثور قد عُذب بالفعل حتى الموت. يتشبث الأطفال الصغار بأعناق أمهاتهم ويصفقون بأيديهم، والأزواج المثارون يضمون زوجاتهم المثارات، لأنه يصدف هكذا أن الناس يُسعدون كلما حاول ثور الهروب من جلاديه، وهو يجر في

أثره نهيرات من الدم. إنه شيء فظيع، إنه وحشي وهو شيء فاحش. لكن بالتأكيد ما يهم حقاً هو ما إذا كان كريستيانو رونالد سيلعب لصالح ريال مدريد؟ ما الذي يعنيه شيء كهذا عندما يبكي العالم برمته على وفاة مايكل جاكسون؟ وما الذي يهم في ذلك أن مدينة تُخضع حيواناً عاجزاً عن الدفاع للتعذيب المتعمد، في يوم عطلة شعبي سوف يتكرر بلا رحمة في العام التالي؟ هل هذه ثقافة؟ هل هذه حضارة؟ أو أليست أكثر شبهاً بالهمجية؟

30 حزيران : عامان

البارحة بلغ عمر مؤسستنا عامين. كما درجت العادة على القول، في الواقع لا يبدو إلا كأننا قد بدأنا البارحة. إذا حاولنا أن نقوم بجردة حساب لما فعلناه وما كنا نحلم بفعله، يكون لدينا كل المبرر لنؤكد لكم أننا لم ننعم بلحظة راحة واحدة.

في المقام الأول، كان هناك القلق على تغذية المولود الجديد على النحو الأفضل، لكي تكون مراحل تطوره التالية صحية ومفعمة بالوعد. ثم جاء كل العمل المجد لإقناع ذوي الإيمان الضعيف بأننا لسنا هنا لنكرس أنفسنا لتأمل سرة الراعي، بل بالأحرى للعمل لصالح الثقافة البرتغالية والمجتمع البرتغالي ككل. لسنا وقحين للغاية إلى حد أن نزعم أننا غيرنا آراءكم عندئذ أو أننا بصدد أن نغيرها الآن، لكن مهمة الإيضاح العام تمنحنا الفرصة لعرض أفكارنا ومقترحاتنا على الأشخاص ذوي الإرادة الطيبة، الذين لحسن الحظ لا ينعدمون في هذا البلد، مع أنه يحكي عنه بشكل سيء في بعض الأحيان. إن المؤسسة الآن في وضع يؤهلها لتقديم حقيبة خدماتها التي سيتم تقديمها، وهو ما يبدو ليس

جديراً فقط بل واعداً أيضاً. فالعمل في الكازادوس بيكوس، الذي زرناه منذ ثلاثة أيام، يحرز تقدماً مضطرداً. ومن المحتمل جداً أننا خلال ستة أشهر أو ليس أكثر، سنحمل المفتاح في أيدينا وسنكون قادرين على الدخول والخروج بحرية إلى الدار التي هي دارنا من قبل لكنها ستكون أكثر من ذلك حالما ينفذ البرنامج بالكامل. نأمل في أن يصبح الـ Campos das Cebolas، حيث تقع [المؤسسة]، جزءاً منتظماً من مشاوير الناس اليومية، بما في ذلك أولئك الذين [تمثل] الثقافة بالنسبة لهم أكثر من زخرفة روحية سطحية لقد امتلكنا الفرصة أخيراً لنتذكر العمل والحياة وخوسيه رودريغز ميغويس. في العام التالي، ربما في كانون الثاني 2010، سنكرم فيتورينو نيميسيو. وبعده راؤول برانداو. إن قوانين بلدنا، مهما كانت ظالمة في بعض الأحيان، تؤمن الفرص والمخارج في السوق الأدبية، في عصر لم يعد، غالباً، يُحكى فيه عن الكتاب العظام من الماضي الحديث في العالم الأدبي. سنفعل كل ما بوسعنا لكي نكبح، وحتى لنعكس هذه النزعة المؤذية. أمامنا الكثير من العمل.

عامان لا يساويان شيئاً، لكن الطفل في صحة جيدة، ويستحق المديح.

تمـوز / يوليو 2009

1 تموز: أغوستينا

منذ حوالي أربعين عاماً، وعلى مدى أشهر قليلة، عملت كناقد أدبي لصالح مجلة Seara Nova [New Cornfield]، وهي مهمة تكاد تكون قد وجدت لكي أقوم بها لكن ذينك الصديقين اللطيفين والكريمين أعتقدا أن ذلك سيكون ضمن مؤهلاتي. إنهما أوغستو كوستا دياس، الذي كانت الفكرة فكرته، وروجيريو فرنانديس، الذي كان آنذاك مدير المجلة التي يُحن إليها كثيراً. على العموم لا أظنني كنت مسؤولاً عن أية مظالم خطيرة، بعيداً عن نقص الحيطة التي كنت اتخذها عند إعطاء رأيي حول رواية *ابن الملك* o Delfim لخوسيه كاردوسو بيريس. فيما بعد سأسأل نفسي ما الذي كان يدور في رأسي في ذاك اليوم. إذ يقولون إن أي شخص يمكن أن يرتكب خطأ، لكن هذا لم يكن مجرد خطأ، لقد كان (إذا كنتم ستعذرون ابتذال الكلمة) حماقة كاملة. بعد ذلك بسنوات، في روما، عندما قاتلت بكل ما أمكنني، بمساعدة ثمينة من خورخي أمادو في المعركة التي خضتها في المناوشات الجدالية لهيئة التحكيم حول ما إذا كان ينبغي أن يتلقى كاردوسو بيرس جائزة الاتحاد اللاتيني، من الممكن تماماً أنني كنت مدفوعاً بهذه الذكرى المؤلمة من ماضيٍ. ولم يكن منافس كاردوسو بيريس سوى مارغريت دورا.

من المهم أن نلاحظ أن قائمة أوراق اعتمادي لدى القدوم إلى الـ Seara Nova لم تكبر كثيراً: كنت قد نشرت *أرض الخطيئة* Terra do Pecado في عام 1947 و«*القصائد الممكنة*» Os Poemas Possiveis في عام 1966. ولا شيء أخر. لم يكن ثمة كاتب في البرتغال لم يفعل أكثر وأفضل كثيرا من خوسيه ساراماغو. أنا أتفهم أولئك الذين رأوا قراري بقبول دعوة أصدقائي الطائشين صفاقة لا تغتفر بالنسبة إلى شخص معروف قليلاً جداً. وربما كان هذا هو ما يجب أن تكون قد فكرت فيه أوغستينا بيسا ـ لويس عندما وجدت نفسها وهي تقلب صفحات الـ Seara Nova (هل قرأت أوغستينا بيسا ـ لويس الـ Seara Nova ؟) تنظر إلى مراجعة لكتابها الجديد، مع سطر في رأس الصفحة يحمل اسمي). ما كنت لألومها لو كان ذلك هو ما تفكر فيه، حتى رغم أن إحساسها بما كانت تستحقه من الممكن أن يكون أكثر سروراً بالكلمات التي تلي مباشرة. إنني أقتطفها من الذاكرة:

«إذا كان للبرتغال كاتب واحد ينضح بالعبقرية، فذاك الكاتب هو أوغستينا بيسا لويس». هذا هو ما قلته، وأنا أكرره اليوم. صحيح أنني كتبت لاحقاً، «دعونا نأمل في أنها لا تغفو على صوت موسيقاها الخاصة». هل من الممكن أن تكون ثمة لمسة خبث في ذاك التعليق». ربما، لكن ذلك يمكن غفرانه تماماً، عندما نتحدث حول ناقد مبتدئ يتطلع إلى أن يجد لنفسه مكاناً لائقاً في السوق الأدبية.

– هل أغفت؟ هل إنها لم تغفُ؟ أظن لا. كان مفهوماً بالنسبة لبعض قرائها أن يكونوا قد تمنوا لو أن أوغستينا، مع حرية روحها التي لا تنضب (لأنها كانت تمتلكها) لو أنها انطلقت في مغامرات أدبية أخرى وعلى مسارات جديدة، لكن ما يبدو أن أوغستينا كانت أكثر اهتماماً به، تسجيل الكوميديا الإنسانية Comedie humaine

لمقاطعة دورو اي مينهو، الذي أنجزته بشكل نموذجي. ليس القول إن ثمة قراءة سوسيولوجية لعمل اوغستينا بيسا القوي، من بين قراءاته الأخرى الكثيرة، تقليلاً من شأنه. فكل واحد في حقله الخاص، كل واحدة في زمنها الخاص، كلهم وفقاً لخصائصهم الشخصية والفنية الخاصة بهم، كان بلزاك وبيسا ـ لويس يقومان بالشيء نفسه: يراقبان ويرويان. يمكنك أن تفهم القرن التاسع عشر الفرنسي على نحو أفضل بقراءة بلزاك. فالنور الذي يشع من عمل أوغستينا يساعدنا على أن نرى بشكل أوضح عقلية مجتمع معين في القرن العشرين ـ ونهاية القرن التاسع عشر أيضاً. حقاً، حقاً، هذا عمل شخص قد نام....

2 تموز: الترجمة

الكتابة هي دوماً ترجمة، حتى عندما نستعمل لغتنا الخاصة. فنحن ننقل ما نراه ونشعره (بافتراض أن الرؤية والشعور، كما نفهمهما عادة، هما شيء أكثر من مجرد الكلمات التي كان من الممكن نسبياً لنا أن نعبر بها عن تجربة الإبصار والشعور) بواسطة شيفرة تقليدية متعارف عليها من الإشارات، الكتابة، ونأمل في أن يسمح لها الظرف وتقلبات الاتصال بالوصول إلى عقل القارئ، إذا لم يكن سليماً، بوصفها التجربة الكاملة التي قصدنا أن ننقلها ـ حتماً تنقل كلماتنا مجرد نتف من الواقع الذي تغذت عليه تجربتنا ـ عندئذ مع ظل على الأقل لما نعرف في أعماق روحنا أنه غير قابل للترجمة: العاطفة النقية للقاء، دهشة الاكتشاف، تلك اللحظة الهائمة من الصمت قبل أن تُنتج الكلمة ستبقى في الذاكرة مثل أضغاث حلم لم يمحوها الزمن بشكل كامل.

هكذا، يترجم عمل شخص ما، ليس أن ينقل إلى لغة أخرى (لغته) عادة، شيئاً كان قبلئذ في العمل وفي اللغة الأصلية ترجمة، أي، إدراكاً

مفترضاً لواقع اجتماعي وتاريخي وأيديولوجي وثقافي،وليس واقع المترجم، وإدراكاً يجسده سياق لغوي ودلالي، وهو أيضاً ليس سياقه. فالنص الأصلي هو مجرد واحد من «الترجمات» الممكنة لتجربة المؤلف مع الواقع، وعلى المترجم أن يحول نص الترجمة هذا إلى ترجمة نص؛ وهذا يخلق حتماً بعض الالتباس نظراً إلى أن المترجم، وقد بدأ يقبض على تجربة الواقع الذي هو موضوع اهتمامه، يتعين عليه عندئذ أن يقوم بالمهمة الأكبر، مهمة إدخالها بدون مس إلى السياق اللغوي والدلالي للواقع (الآخر) الذي يفترض به أن يترجمه إليه، كاشفاً عن الاحترام المستحق في الوقت نفسه لكل من المكان الذي جاء منه والمكان الذي يذهب إليه. بالنسبة للمترجم، لحظة الصمت التي تسبق الكلمة هي لذلك مثل عتبة تحول خيميائي يجب فيها تحويل «الشيء الذي يكونه» إلى شيء آخر لكي يبقى «الشيء الذي كانه».

إن الحوار بين المؤلف والمترجم، في العلاقة بين النص الذي يكون والنص الذي يفترض أن يكون، ليس فقط بين شخصيتين فرديتين ينبغي أن تكمل إحداهما الأخرى، إنه قبل كل شيء لقاء ثقافتين جمعيتين يجب أن تعترف كل واحدة منهما بالأخرى.

6 تموز: مراجعة

في مراجعته لكتاب *المفكرة* ، المنشورة في آخر عدد من مجلة إكسبريس ، يقول خوسيه ماريو سيلفا إنني لست مدوناً حقيقياً. يقول ذلك ويثبته:

أنا لا أضمنّ الوصلات links، فأنا ليس لي حوار مباشر مع قرائي،

ولا أتفاعل مع بقية جو المدونات Blogosphere. هذا شيء كنت أعرفه سابقاً، لكن منذ الآن فصاعداً كلما سألني الناس سوف استخدم مبررات خوسيه ماريو سيلفا باعتبارها مبرراتي وأحسم الموضوع مرة واحدة وإلى الأبد. بأي حال، أنا لا أشكو من هذه المراجعة، اللبقة، اللائقة، والكاشفة. مع ذلك، ثمة نقطتان أخرجتاني من مشكلتي على خلفية قراري الأصلي ـ الذي نفذته حتى الآن حرفياً ـ بعدم الرد أو حتى التعليق على أي نقد لعملي. النقطة الأولى ترتبط بالطبيعة التبسيطية ظاهرياً لتحليلي للمشكلة. كان بمقدوري أن أجيب بأن الفضاء لا يسمح بالمزيد، لكن ذلك في الواقع لأنني لا أسمح لنفسي بفعل أكثر من ذلك، نظراً إلى أنني أفتقر إلى الكفاءات الأساسية المطلوبة من محلل عميق التفكير، مثل أولئك الاقتصاديين عميقي التفكير من مدرسة شيكاغو، الذين فشلوا، رغم كونهم موهوبين جداً، بشكل مطلق، فإن الفكرة لا تخترق أدمغتهم الممتازة ذات الأزمة الكارثية بحيث أن أي محلل تبسيطي سيكون قادراً على التنبؤ بها.

النقطة الأخرى أكثر خطورة، وهذه النقطة وحدها أظنها تبرر تدخلاتي غير المتوقعة نوعاً ما. إنني أشير إلى إفراطاتي المزعومة في النقمة. فقد كنت أتوقع أي شيء إلا هذا من رجل ذكي مثل خوسيه ماريو سيلفا. لذلك فإن سؤالي بسيط مثل تحليلاتي تماماً. هل للنقمة حدود؟ وأكثر من ذلك، كيف يمكن للمرء أن يتحدث عن إفراطات النقمة في بلد يفتقر إليها بشكل خاص، مع التبعات التي يراها الجميع؟ عزيزي خوسيه ماريو، فكر في ذلك ونورني برأيك، من فضلك!

7 تموز: الذات، حول نفسه

لا أظنني فصلت هويتي ككاتب عن ضميري كمواطن. أعتقد أنه حيث تذهب الأولى ينبغي أن يذهب الآخر، أيضاً. لا أتذكر أبداً أنني كتبت كلمة واحدة تناقض القناعات السياسية التي أحملها، لكن هذا لا يعني أنني قد وضعت الأدب في خدمة أيديولوجيتي. مع ذلك، فإن ما يعنيه هذا هو أنني في كل كلمة أكتبها أسعى إلى التعبير عن كامل الإنسان الذي أكونه.

دعوني أكرر ـ لا أفضل دوري ككاتب عن دوري كمواطن، لكنني لا أخلط دور الكاتب بدور المناضل السياسي. صحيح أنني معروف بشكل أفضل ككاتب، لكن يوجد أيضاً بعض الناس الذين يعتقدون، بمعزل عن أية دلالة يمكن أو لا يمكن أن يجدوها في عملي ككاتب، أن ما أقوله كمواطن عام هو ذو أهمية بالنسبة لهم ويهمهم. حتى إذا كان الكاتب وليس أي أحد آخر هو الذي حمل على كتفيه مسؤولية التعبير عن ذاك الصوت.

إذا كان الكاتب شخصاً من زمنه، إذا لم يكن مقيداً بالماضي، فيجب عليه أن يعرف مشاكل العصر الذي شاءت الصدفة أنه يعيش فيه. وما هي هذه المشاكل اليوم؟ أننا لا نعيش في عالم مقبول؛ على العكس من ذلك، إننا نعيش في عالم يسير من سيء إلى أسوأ ولا يقوم بوظيفته بشكل إنساني. لكن أرجوكم أن تلاحظوا ـ لا تخلطوا شكواي مع أي نوع من التنظير الأخلاقي؛ فأنا لا أقول إن هدف الأدب هو أن يخبر الناس كيف ينبغي عليهم أن يتصرفوا. أنا أتحدث حول شيء آخر، حول الحاجة إلى مضمون أخلاقي بدون أدنى أثر للديماغوجية [الغوغائية]. وهذا أساسي ـ الأدب الذي لا ينأى بنفسه عندما تكون وجهة النظر النقدية مطلوبة.

8 تموز: كاستريل

النهر الذي يجري عبر لشبونة لا يدعى اللشبون، بل التيجو، النهر الذي يجري عبر روما لا يدعى الروم بل التيبر؛ النهر الذي يجري عبر إشبيلية ليس الإشبيل بل الغوادلكويفر... لكن النهر الذي يجري عبر كاستريل في إسبانيا، نعم، هذا النهر يدعى الكاستريل. إن أي مكان مأهول سرعان يكتسب الاسم الذي صار يعرف به، لكن الأنهار ليست كذلك. على مدى آلاف وآلاف السنوات كان على كل أنهار العالم أن تنتظر أن يتنطح أحد ما ويعمدها، لكي يمكنها بعدئذ أن تظهر على الخرائط بوصفها أكثر من مجرد خط متعرج مغفل الاسم. على مدى قرون وقرون كانت كل مياه النهر غير المسمى تمر بشكل قوي من خلال المكان الذي ستظهر فيه قرية كاستريل ذات يوم، وعندما كانت تمر، كانت تتطلع إلى الجبال وتقول إحداها للأخرى، «هذا ليس هو بعد». وكانت تتابع طريقها نزولاً إلى البحر، معتقدة، بشكل فاقد الصبر تماماً، أن العصر يلي العصر وأن المياه الجديدة ستظهر ذات يوم لتجد النساء يغسلن وينشرن ثيابهن على الصخور، والأطفال يتعلمون السباحة، والرجال يصطادون سمك السلمون وأي شيء آخر يعلق بصناراتهم. في تلك اللحظة عرفت المياه أنها قد منحت اسماً، أنه من ذاك اليوم فصاعداً لن تكون النهر في كاستريل بل نهر كاستريل، سيكون الميثاق طول الحياة قوياً للغاية بحيث أنه سيضمها إلى أولئك الناس الذين يشيدون بيوتهم البسيطة الأولى على المنحدر ذي المصاطب، والذين سيشيدون الفئتين الثانية والثالثة من المنازل، بعضها إلى جانب البعض الآخر، والبعض على أنقاض البعض الآخر، أجيالاً بعد أجيال، وصولاً إلى يومنا هذا. إن مياه الكاستريل، التي روضت الآن وحجزت

بجدار ضخم جعلها تتحول إلى بحيرة، لم تعد تهدر نفسها بقوة على الصخور، لم تعد تزأر كما كانت تفعل فيما مضى بين الجدران الصخرية الشاهقة الضيقة بالطريقة التي حاول بها الجبل على مدى آلاف السنوي بلا جدوى أن يخنقها. بدلاً من ذلك فإن التطور الذي سيجعل كاستريل تكبر وتزدهر قد روض ذاك التيار. فالناس الذين هم الأفضل مقدرة على حساب ما الذي تم كسبه وما تم خسرانه هم الكاستريليون، الذين توجد جذورهم هناك، في حين أنني مجرد ذاك الرجل البرتغالي الهادئ الرصين الذي ظهر ذات يوم، تقوده يد الشخص الذي أكن له أعظم الحب في العالم، والذي تشرف منذئذ بلقب ابن الأرض بالتبني وصعد وهبط من القرية إلى النهر ومن النهر إلى القرية، يتمشى على طول الضفتين وآثار الأقدام التي تحتفظ بذكرى الأقدام العارية التي داستها، كما لو كانت، أيضاً، حافية، كانت تسير على درب طفولته في أرض مختلفة، وليس درب الجبال ونهر قادر على القفز فوق الصخور شديدة الانحدار، بل درب السهول ومجاري المياه الملتفة، التيجو، الألموندا، صفحات الماء التي تعكس للحظة الغيوم التي تمر عبر السماء مسرعة، شاقة طريقاً لأجل الغيوم خلفها. برغم كل الوقت - لقد مضى الكثير والكثير جداً من الوقت - فإن الرجل العجوز الذي هو أنا الآن ينظر بنفس العينين البريئتين إلى الجبال ونهر كاستريل، وشوارع القرية المنحدرة الضيقة والبيوت الواطئة، وأشجار الزيتون التي تذكره بأشجار الزيتون الأخرى التي تفيأ في ظلها وجمع ثمارها، والدروب بين الأعشاب والأزهار، وحيواناً مجفلاً يركض ليختبئ، تاركاً خلفه الارتعاشة السريعة لنبات كان قد احتك به. بعض الناس يمضون حيواتهم وهم يبحثون عن الطفولة التي فقدوها. أظن أنني واحد منهم.

9 تموز : فرق في الشعر

كنت وخوسيه مانويل مندس نتفجع على نقاط ضعف بلدنا التي لا شفاء منها، بتلك الطريقة التي يكون فيها كل واحد منا نوعاً من حائط مبكي للآخر، ليس في القدس بل في جوار أركو دو سيغو، وعندما كنا قد استعرضنا كل أشباح وغيلان السياسة القومية و ختمنا، كل بأسلوبه الخاص، بتعليقات مناسبة حول قرني مانويل بينهو[1] (godspeed)، فخيم صمت ثقيل بيننا. حتى أنني فكرت باستحضار حقيقة أن زيوس ميكيل أنجلو، الذي هو في ورما، هو أيضاً ذو قرنين، لكن رغم أن ذلك سيكون خلطاً للتفاح والبرتقال، لذلك أبقيت فمي مطبقاً. أتخيل أن ذلك كان بدافع من اليأس، لمجرد كسر الصمت المزعج الذي بدا أنه يحاول سحقنا، فكان أن أبدى خوسيه مانويل مندس ملاحظة، عرضية أكثر مما هي مهتمة حقاً، حول الاستعمال الشائع لمصطلحي يمين الوسط ويسار الوسط وصعوبة إيجاد اختلافات حقيقية بين الحزبين والجماعتين والأشخاص الذين يستخدمون هذين المصطلحين لتعريف وتصنيف أنفسهم. كان ذلك عندما طلعت بنكتة اليوم، يوم كان قد بدأ يقترب من نهايته. قلت:

«عزيزي زي مانل، السياسة مثل الفرق في شعر الشخص، في بعض الأحيان يكون في المنتصف وفي أحيان أخرى يكون مائلاً إلى إحدى الجهتين. حتى تلك الفروق المبتعدة قليلاً عن الوسط هي دليل على قصر زمن الشخص الذي صنعها. إن الحياة السياسية لبلدنا العزيز هي كل شيء حول ذلك: الفروق وحالات قصر النظر، قصر النظر والفروق.

---

[1] في 4 تموز 2009، لمح وزير الاقتصاد مانويل بينهو تلميحاً فظاً إلى ذاك الاسم إلى معارض شيوعي أمام البرلمان وأجبر على الاستقالة.

الشيء الوحيد الذي لا يتغير هو قصة الشعر». ضحكنا كلانا وغيرنا الموضوع. لقد كانت ثرثرة جيدة بعد الظهر.

10 تموز: قراءة الصيف

إنه لأكيد مثل القدر أنه عندما يبدأ حر الصيف الأول ستكون هناك صحف ومجلات رطبة مثل برنامج التلفزيون المناسباتي ذي الأذواق الغريبة الأطوار، الآتي ليسأل كاتب هذه السطور أي الكتب ينصح بها لأجل القراءة على مدى الصيف. كنت دائماً أتملص من الجواب، نظراً إلى أن القراءة بالنسبة لي هي نشاط هام بما يكفي ليشغلنا على مدار العام بكامله، هذا العام وكل عام قادم. لكن في مناسبة واحدة، عند إلحاح صحفي مثابر لن يبرح بابي الأمامي، قررت أن أمرر السؤال مرة واحدة وإلى الأبد وعرّفتُ لأجله ما أسميتها آنذاك عائلتي الروحية التي سأكون فيها، إذا جاز القوم، ابن العم الأصغر. لم تكن مجرد قائمة بالأسماء، لأن كل واحد كان مذيلاً بحواشي، بحيث يمكن فهم اختياري للأقارب على نحو أفضل. في **مفكرة لانزواتي** ضمنت النسخة النهائية من «شجرة العائلة» التي ادعيت بجرأة أنني رسمتها، وأعيد تقديمها هنا لكل من لديه الفضول. في المقام الأول جاء كاموئيس، لأنه، كما كتبت «*في سنة موت ريكاردو ريس*»، كل الطرق البرتغالية تؤدي إليه. يليه الأب أنطونيو فيئيرا، لأن اللغة البرتغالية لم تكن أجمل أبداً مما كانت عندما كان هذا الجزويتي يكتبها؛ وسرفانتس، لأنه لولا مؤلف دون كيخوته لكانت شبه الجزيرة الأيبرية بيتاً بلا سقف! ومونتين، لأنه لم يكن بحاجة لفرويد ليعرف من هو! وفولتير، لأنه فقد

كل أوهامه حول الإنسانية ونجح في النجاة من قرفه؛ وراؤل براندار لأنه لا ينبغي عليك أن تكون عبقرياً عظيماً لكي تكتب كتاباً عظيماً، مثل كتابه ***Húmus***؛ وفرناندو بسوا، لأن الباب الذي تدخله لتجده هو أيضاً الباب الذي تتخذه لتجد البرتغال (كان لدينا قبلئذ كاموئيس، لكننا لا زلنا بحاجة لبسوا)؛ وكافكا، لأنه أثبت أن الإنسان خنفساء؛ وايكادي كويروز، لأنه علم البرتغاليين السخرية؛ وخورخه لويس بورخس، لأنه اخترع الأدب الافتراضي، وأخيراً غوغول لأنه احتقر الإنسانية ووجد أنها حزينة تعيسة.

كيف ذلك؟ أسمحوا لي أن أقدم اقتراحاً لقرائي. اصنعوا قائمتكم الخاصة بكم، عرفوا «العائلة الروحية» الأدبية التي تشعرون أنها الأقرب إليكم. ستكون طريقة جيدة لتمضية الوقت، ذات عصر على الشاطئ أو في الريف أو في البيت، إذا لم تكن النقود كافية لقضاء إجازة هذا العام.

13 تموز: الأكاديمي

أرجو أن تغفروا لي غروري في صياغة إعلان: أنا عضو زميل في الأكاديمية البرازيلية للآداب، منحت المكان الشاغر بوفاة الكاتب الفرنسي موريس درون، الذي أتذكر أنني قرأته منذ سنوات لا تحصى، في طبعة أركاديا البرتغالية، إذا أسعفتني الذاكرة، من روايته العائلات الكبيرة ***Les grandes Familles***، التي كتبت بأفضل تقاليد نثر القرن التاسع عشر. عُلمت بالخبر السار من ألبرتو دا كوستا أي سيلفا، وهو شاعر ظريف، وسفير أيضاً، خدم في بلدان مختلفة بما

فيها البرتغال، وهو مؤرخ قدير للموضوعات الأفريقية. ينبغي علـى كـل من لا يعرفه، على سبيل المثال، أن يقرأ العمل الرائع **المجرفة والرمح: أفريقية قبل البرتغاليين**. لذلك ها أنا، عضو الأكاديمية في البلـد الـذي أحبه بعد بلدي، البرازيل حيث أشـعر كـأني في بـيتي، مـع اخـتلاف عديم الأهمية على الإطلاق في الشعور الذي يلفه التأثر، وهو شيء ينسى بلدي أحياناً أن يعبر عنه، كما لو كان النجاح في أن تولد في لشبونة أو أزينهاغا شرفاً كافياً. سأذهب إلى هناك في تشـرين الأول لتقـديم كتـاب جديد، ولأجلس في ظل تمثال ماتشادو دي أسـيس. والنـاس يقولـون لا توجد أشياء جيدة في الحياة.

14 تمـوز: أكويلينـو

كـان عمـل أكويلينـو ريـبيرو الرومانسـكي هـو العمـل الأول، وربمـا الوحيد، الـذي ينظـر بـدون أوهـام إلى منطقـة بـيرا مـن العـالم الريفـي للبرتغال. بدون أوهام، لكن بشغف، إذا كنـا نعـني بالشـغف ـ كمـا في حالة أكويلينو ـ ليس الإظهار المدعي للحنان والدمعة الرقيقة التي تمسح بسهولة بالغة، ولا حتى المتع البسيطة للشعور، بل انفعـالاً فظـاً معينـاً يفضل أن يخفي نفسه خلف فظاظة الصوت والإيماءة. لم يكن لأكويلينو خلفاء، مع أنه لم ينعـدم وجـود أشـخاص أعلنـوا أنفسـهم أو اقترحـوا أنفسهم كمريدين له. لا أظن أن ادعاء المريدية هذا كان أسـوأ مـن خطـأ يرتكب بنية طيبة. فأكويلينو هو جلمود ضخم، ومتوحد وفسيح، ينبثـق من الأرض في منتصف درب الحديقة الرئيسـي الذي كان يمر عبر أدبنـا الرشيق غالباً في النصف الأول من القرن. لم يكن مفسـد المتعـة الوحيـد،

لكنه بلغة الفن، وكذلك بلغة فضائله ونواقصه الخاصة، كان بالتأكيد الأكثر تماسكاً ومثابرة. على العموم، لم يعرف الواقعيون الجدد كيف يفهمونه، وكانوا مذهولين بالغزارة اللفظية القديمة نوعاً ما للمعلم، وضللهم «السلوك الغريزي» لكثير من شخصياته، بوصفهم بارعين في الخير كما كانوا بارعين في الشر، وحتى أكثر براعة عندما حان الوقت لمقايضة معاني الشر والخير في نوع من لعبة مروعة، مفرحة، لكنها كانت قبل كل شيء لعبة إنسانية. ربما كان عمل أكويلنو نقطة متطرفة في تاريخ الأدب البرتغالي، ذروة، ربما معلقة، ربما مقطوعة في دافعها الأعمق، لكن بانتظار قراءات جديدة لجعلها متحركة مرة أخرى. وهل حصلت هذه القراءات الجيدة؟ أو لنكن أكثر دقة، هل ظهر قراء جدد لتنفيذها؟ سيبقى أكويلينو، وسنبقى نحن، أولئك الذين يكتبون اليوم حول فقدان الذاكرة، ليس فقط الذاكرة الجماعية بل الذاكرة الفردية للشعب البرتغالي، لكل شخص برتغالي ينغمس الآن في هذا الصخب المغري والأبله أساساً للحداثة التي تربك تداول أفكارنا وتشوش عقول العالم البرتغالي بأكاذيبها. إن الزمن، الذي يعرف كل شيء، سوف يخبرنا. لا يمكننا أن نفهم أننا إذا أهملنا ذاكرتنا، وبدافع من الاستسلام أو الكسل الذهني نسينا ماذا اعتدنا أن نكون، فإن الفراغ الذي سيخلقه ذلك سوف تحتله ذاكرات ليست ذاكراتنا لكننا سنبدأ باعتبارها ذاكراتنا، ستبدأ بأن تصبح الذاكرات الوحيدة، وسنصبح نحن الشركاء في الجريمة والضحايا لاستعمار تاريخي وثقافي لا يمكن إزالته.

قد تقولون إن عوالم أكويلينو الواقعية والخيالية قد ماتت. ربما كذلك، لكن تلك العوالم كانت عوالمنا، وهذا ينبغي أن تكون أفضل سبب مبرر لأن تستمر في كونها كذلك. عندما نقرأ، على الأقل.

15 تمـوز: سيزا فيئيـرا

كـل فـن العمـارة يفـترض مسـبقاً وجـود علاقـة معينـة بـين الكمـدة الطبيعيـة لمـواد البنـاء المسـتعملة علـى النحـو الأكثـر شـيوعاً والضـوء الخارجي. في الجدران الرومانسية السميكة كان من الصعب أن نحـدث فتحات من شأنها أن تسمح بدخول ضوء نهار كافٍ ليرمي الظلال التي ستعطي إحساساً بالفضاءات التي يبدو أنها تلفظها؟ فالظلال هـي الـتي تجعل من الممكن قراءة الضوء. كانت الجدران الغوطيـة مشـقوقاً عموديـا بنوافذ ذات زجاج ملون يُدخل الضوء وفي اللحظة نفسه يبدل لونه ليعيد خلق المؤثرات الغريبة للظل.

حتى في العصـر الحـديث، عنـدما تسـتبدل الجـدران إلى حـد كـبير بفتحات تكاد تلغيها، فإن ذلك يجعلها تختفي في رداء زجاجي مضحك يضـعف حجمهـا مـن خـلال سـيرورة إنعكاسـات وإسـقاطات كلايدوسـكوبية، فـإن العـين البشـرية تنشـد الـدعم الـذي لا يمكنهـا الاستغناء عنه، تبحث بقلق عن نقطـة مصـمتة يمكنهـا أن ترتـاح فيهـا ويمكنها أن تتأملها.

لا أعرف عـن أي تعـبير مـن العمـارة الحديثـة يكـون فيهـا الجـدار البدئي بهذه الأهمية كما في عمل سيزا فيئيرا. للوهلة الأولى تنهض تلك الجدران المغلقة الطويلة مثل أعـداء كـؤودين مـن الضـوء، وعنـدما تمـرر الضوء أخيراً فإنها تفعل ذلك كما لو كانت تنفذ بشكل متذمر طلباً ملحاً بأن يكون البناء وظيفياً.

على كل، الحقيقة كما أفهمها مختلفة. فالجدار فضاء لأجل التأمل، حيث الضوءُ من الخارج لا يتوقف عند السطح. يتكـون لـدينا وهـم أن المواد تصبح نفوذة للضوء، وأن نظرنا يمكنه أن يخترق الجـدار المصـمت

ويدمج معاً ما هو في الخارج وما هو في الداخل في إدراك جمالي وانفعالي واحد.

هنا الكمدة تحول إلى شفافية. يتطلب الأمر عبقرية ليكون المرء قادراً على دمج هذين الضدين اللذين لا يمكن مصالحتهما بشكل متناغم للغاية. وسيزا فيئيرا هو ذاك الساحر.

16 تموز: ألوان الأرض

عندما تعمل اليدان في التراب تختلطان به. ثمة رسامون يقاربون قماشة الرسم بأيديهم الملطخة بالتراب. ثمة رسامون لا يمكنهم أن ينسوا ألوان التراب، ولا حتى يريدون ذلك، عندما يشرعون في رسم وجه، أو جسد عار، أو شعاع تألق قطعة من الزجاج، أو لا شيء أكثر من وردتين بيضاوين في أصيص.

يوجد الضوء لأجل هؤلاء الرسامين أيضاً، لكنهم يدركونه كما لو أنه قد طلع لهم من داخل الأرض المظلمة. عندما يرتبونه على قماشة الرسم، أو على الورقة، أو على جدار، فإن ما يستحضرونه هو الأنغام المكتومة الحارة للصلصال، دكنة الدُبال humus، سمرة الجذور، دم المغرة الحمراء. إنهم يرسمون الإنسانية وما ينتمي إليها بألوان الأرض لأن هذه الألوان وليس سواها هي الأساسية. لا تقل أبداً إن لوحة رسمت بألوان الأرض (مثل تلك التي رسمها سيزان) كانت صورة: إنها ليست مشابهة بل مطابقة، مطابقة للأصل، مطابقة في جوهرها؛ الشبه الأكثر أو الأقل الذي تقدمه لنا هو أقل ما ينبغي أن يهمنا. الأشخاص المرسومين بألوان الأرض سيكون فيهم دوماً شيء ما من الكمال الخشن للصوان في وجوههم، شعرهم يلتف مثل حقول الذرة التي تهزها الريح

وتحركها، وأيديهم يبدو أنها قد استخرجت أعمق ثمار الأرض. إن الألوان، كل ألوان التراب والهواء، تنشد دوماً الأشكال التي تحتاجها لكي نرى فيها أكثر من مجرد لون. فالألوان كانت دوماً تتحدى وتجسد الدوافع المتناقضة الموجودة ضمناً في الأشكال، التي تخاض فيها معركة أبدية بين التمرد الفوضوي والخضوع السلبي للعرف. بلا شك، كل هذا أقل لفتاً للانتباه في اللوحات التي تقدم نفسها كتحولات محاكية للواقع الظاهر؛ مثل هذه اللوحات تطمح قبل كل شيء إلى أن يُعترف بها، وتحدد هويتها وتصنف، لكنها عاجلاً أم آجلاً ينتهي بها المطاف إلى كونها أسيرة التأثير المفسد لرؤية تختزلها، شيئاً فشيئاً، إلى انعدام الأهمية. بالمقابل، بحماية ذاتها من الأشكال التي يمكن مماهاتها بسهولة مع التمثيلات الشائعة للواقع المحيط، فإن الفن المجرد - إما بشكل مباشر أو على الأقل مع نزعة في ذاك الاتجاه - «يحمي» وعموماً «يحرر» الاستقلال النسبي للون؛ إنه لا يخنقه في قيد ضاغط من التأليفات التي هي أكثر أو أقل قابلية للتنبؤ بها أو ما يتفق عليها عموماً على أنها نماذج اجتماعية صحيحة.

لم تكن صدفة أنني استخدمت كلمة **نزعة** tendency عند الإشارة إلى نوع معين من الممارسة التصويرية التي، رغم أنها مرسخة بشكل لا يُخطأ في مقولة ما ننحو إلى وصفه بشكل عام أكثر مما ينبغي بأنه فن مجرد، يرفض أن يهدم بشكل كامل الجسور إلى عالم الإشارات والرموز، سواء كانت طرازية بدئية أم حديثة. كل هذا انتفض بشكل عفوي في روحي فيما أنا بنظرة تعجب، أشعر عاطفة نادراً ما مررت بها من قبل، تأملت الجداريات التي غطى بها جسوس ماتيو Jesus Mateo الجدران الباردة لكنيسة سان جوان باوتيستا دي ألاركون. هل

كان جسوس ماتيو رساماً تجريدياً ذا «نزعة» نحو الواقعية؟ أو، بالعكس، هل كان رساماً تجريدياً ذا «نزعة» نحو التجريد؟ وهل تلك الجسور التي أشرت إليها أعلاه قابلة للتطبيق فقط لأجل وصل الفن «المجرد» مع الإشارات والرموز التي أبدعت من خلال شتى الاستعلامات التي أخضع الواقع لها، أم هل يمكن أن توجد أيضاً لوصل الفن «الواقعي» مع كون متوسع باستمرار من التجريدات؟ خطر ببالي عندئذ أن جسوس ماتيو، في الوقت نفسه تحرر من القيود المقيدة لواقعية صارمة لكي يتفرغ لمقالة حول الأشكال التي كانت نفسها تمتلك نزعة نحو الحرية، وبرغم طريقتي في الفهم، الملتزمة بمنطق كرونولوجي متسق، نجح أيضاً، بفضل إدخاله المحسوب بذكاء وعناية لإشارات ورموز يمكن تحديد هويتها بسهولة، في خلق جوقة فريدة، يمكن للمرء تقريباً أن يقول تعبيراً موحداً، من أصوات متزامنة كثيرة، مثل POLYPTYCH تلتقي منظوراته في نقطة متلاشية واحدة، الجدران الهائلة ترتفع من الأرض ترسم كل الألوان الخرساء للأرض نحو الأرض لتلاقي الألوان المتألقة للسماء في مواجهة مثل هذا العمل الهائل والمذهل، فإن مفاهيم مثل التجريدية والواقعية تفقد بعضاً من دلالتها المستقلة الراهنة، وتصبح يداً يسرى ويداً يمنى تقولبان بشكل متناسق، نفس القطعة من الصلصال. لا أعرف ما إذا كان سيصل الأمر بكنيسة سان جوان باوتيستا على أن ينظر إليها على أنها كنيسة سيستين Sistine Chapel يومنا هذا، لكنني أعرف أن جسوس ماتيو ولد من شجرة العائلة التي كان أفضل ثمارها هيرونيموس بوش Hieronymos Bosch وبروغل الأكبر Breughel the Elder. إن جسوس ماتيو، مثلهما، قد فسر الإنسان من خلال ما هو منظور، وما هو غير منظور.

17 تمـوز: قصص الهجرة

دعوا من ليس لديه بقعة واحدة من الهجرة تلطخ شعار عائلته يرمي بأول حجر. لنعد سرد حكاية الذئب السيئ الكبير في الحكاية الخرافية الذي يتهم الحمل الصغير الوديع بتعكير ماء الساقية الذي يشربان منـه كلاهما: إذا لم تهاجر فقد هـاجر أبـوك، وإذا لم يكـن أبـوك بحاجـة للانتقال من مكان إلى آخر، فقد كان ذلك فقط لأن جـدك قبلـه لم يكـن أمامه خيار سوى الذهاب، ووضع حياته القديمة خلفه بحثاً عن الخبز الذي حرمته منه بلاده. غرق برتغاليون كثر في نهـر بيداسـوا ذات ليلـة ظلماء فيما كانوا يحاولون السباحة إلى الضفة البعيـدة، حيـث قيـل إن فردوس فرنسا يبدأ. في ما تدعي أوروبـة المثقفـة، المتحضـرة وراء جبـال البيرينيس، كان على مئات آلاف البرتغاليين أن يخضعوا لشـروط عمـل مخزية وأجور مهينة.

إن أولئك الناجين القادرين على تحمل العنف القديم نفسه والأشكال الجديدة من الحرمان، يعيشـون مشـتتين في وسـط مجتمعـات تحتقـرهم وتذلهم، ضـائعين في لغـات لا يمكـنهم فهمهـا، بـدأوا، شـيئاً فشـيئاً، بنكـران للـذات شـبه بطـولي، بالتضـحية بقطعـة النقـد بعـد القطعـة، بالسنت بعد السنت، لبناء مستقبل أبنائهم. بعض هؤلاء الرجال والنساء لم يفقدوا ولم يريدوا أن يفقدوا ذكرياتهم عن الأزمنـة الـتي كـان علـيهم فيها أن يعـانوا كـل مـذلات العمـل المتـدني الأجـر وكـل مـرارة العزلـة الاجتماعية.

ينبغـي أن يُشـكروا علـى نجـاحهم في الاحتفـاظ بـالاحترام الـذي استحقوه علـى ماضـيهم. أمـا الآخـرين الكثـر، الأغلبيـة، فقـد حرقـوا الجسور التي ربطتهم بتلك الساعات القاتمة؛ إنهم يخجلون من كـونهم

جاهلين، فقراء، وفي بعض الأحيان بائسين؛ باختصار، إنهم يتصرفون كما لو أن حياة لائقة لم تبدأ فعلاً لأجلهم إلا في ذاك اليوم المبارك عندما كانوا قادرين على شراء سيارتهم الأولى. هؤلاء هم الأشخاص الذين يكونون مستعدين دوماً للتعامل بقسوة وازدراء مع المهاجرين الذين يعبرون هذا البيداسوا الآخر، الأعرض والأعمق، البحر المتوسط، حيث يغرق الكثيرون الذين سيصبحون طعاماً للأسماك إذا لم يجرفهم المد والريح إلى الشاطئ ويأتي البوليس ليأخذ الجثث بعيداً. إن الناجين من حوادث غرق المراكب الجديدة هذه، الذين يصلون إلى البلاد ولا يطردون منها، يمكنهم أن يتطلعوا إلى الأمام إلى المقتل الأبدي للاستغلال والتعصب والعنصرية وكره بشرتهم، والشك والانحطاط الأخلاقي. من كان مستغلاً [بفتح الغين] ذات مرة وفقد ذاكرة كونه مستغَلاً سيصبح مستغِلاً [بكسر الغين]. من كان محتقَراً ويدعي بأنه قد نسي سوف يكرر احتقاره الخاص من كان مهاناً البارحة سيهين الآخرين بشكل أكثر مرارة اليوم. وهم موجودون جميعاً، معاً يرمون الحجارة على الأشخاص الذين يصلون إلى الضفة القريبة للبيداسوا، كما لو أنهم أنفسهم لم يكونوا مهاجرين أبداً، ولا كان آباؤهم، ولا أجدادهم ـ كما لو أنهم لم يعانوا الجوع واليأس والكرب والخوف أبداً.

وبكل نزاهة، بكل نزاهة أخبركم، ثمة طرق معينة لأن نكون سعداء هي ببساطة كريهة.

20 تموز: هواجس

منذ إعلان قانون الإصلاح الدستوري الذي اقترحه الرهيب ألبرتو خواو، كما يدعوه بانفعال أصدقاؤه وأتباعه، كان واضحاً أن ثمة شيء لا

جدوى من محاولة إخفائه. إننا نطري عليه على صراحته فجارديم يريد أن يكون رئيساً للإقليم، يحتفظ بحق الفيتو لأي عذر مهما كان تافهاً، وكان من المنطقي أن نعتقد أنه كان قبلئذ يغذي الفكرة في رأسه منذ بعض الوقت عندما أشار ـ ولو بشكل خدر، بدرجة ما من الغموض اللفظي ـ إلى قراره بترك السياسة، مانحاً إياناً متعة لن يقدر لها، مثل ورود مالهرب Malherbe، أن تدوم طويلاً جداً، ليس ذكاء جارديم شيئاً مشهدياً، لكن مكره، بالمقابل، لا حدود له كما يبدو. لا حدود له، تماماً مثل سذاجتنا. سيكون تخيل هذا البرلوسكوني الماديري في أي مكان إلا في أروقة ومكاتب السلطة مثل محاولة تخيل ما يمكن للمرء أن يدعوه عدماً مطلقاً، تناقضاً في المصطلحات. لقد ولد جارديم ليقود، وسوف يقود حتى آخر أنفاسه. بكره البرتغال كما يفعل هو، لن يوافق أبداً على أن يكون رئيساً للجمهورية؛ سيكون كافياً له أن يكون رئيساً لمادبرا، وبورتو سانتر والجزر الوحشية Sanage Ilands. في الأعماق، إن ما يسعى القانون المقترح لفعله هو إرساء دستور في البرتغال يكون مشكلاً على صورته ـ أي قصيراً، مدوراً، تافهاً.

أحد النتوءات غير اللائقة التي يود القائد العزيز لماريرا أن يفصلها عن الجسم السياسي الراهن هو الحزب الشيوعي المحتقر. أخشى أن يكسر أسنانه في المحاولة. فالشيوعيون لهم تجربة قاسية طويلة في التخفي؛ إن جعلهم غير قانونيين سيعني فعلياً وجوب رفع كل صخرة من الصخور المبعثرة عبر كل البرتغال لرؤية ما إذا كان من الممكن أن يوجد شيوعي يختبئ تحتها. ما سيكون الأكثر إثارة في الساعات القادمة هو مهرجان الوطنية الزائفة التي ستنفجر عبر الجمعية المناطقية، مع المتكلمين العلنيين الذين يعتنقون الشعارات المحلية وربما يدوسون ويحرقون العلم الذي تظهر عليه الأسلحة البرتغالية لأن الثلثين

الحمراوين من ذاك العلم قد ألهبا خدي جارديم الضاربين إلى الحمرة أكثر حتى. سيكون من المثير للاهتمام أيضاً أن نراقب كيف سينجح مانويلا فيرير لايت[2] ذاك الوشق للسياسة القارية، في التملص من ذلك. سأقترح على الأشخاص الأربعة الذين يقرأون هذا أن يبقوا أعينهم مفتوحة على الأحداث. سيكون لديكم شيء تحكونه لأحفادكم.

21 تموز: القمر

منذ أربعين عاماً لم يكن لدي حتى جهاز تلفزيون في البيت. إلا أنني اشتريت واحداً، صغيراً جداً، بعد ذلك بخمس سنوات، في عام 1974، لمتابعة الأخبار حول ذاك النوع الآخر من الهبوط على القمر الذي كانته تجربة ثورة أبريل بالنسبة لنا. لذلك لجأت من أجل لحظة الهبوط الأصلية إلى بعض الأصدقاء الدين كانوا أقرب إلى الحد القاطع للتكنولوجيا، وبتلك الطريقة راقبت، وأنا أشرب البيرة وألوك الفواكه المجففة، الهبوط على القمر والترجل من المركبة. في حوالي ذاك الوقت كنت أكتب أعمدة في الصحيفة المسائية التي أعيد إحياؤها مؤخراً وهي A Capital [العاصمة]، والتي جمعت لاحقاً في كتاب تحت عنوان «عن *هذا العالم والعالم الآخر*» Deste Mundo e do outro. كرست اثنتين من المقالات للتعليق على إنجاز الأميركيين الشماليين بلهجة لم تكن حماسية ولا تشكيكية ـ كما ستصبح هي الموضة سريعاً. بقراءتها مرة أخرى الآن، توصلت إلى الاستنتاج الحزين أنه لم يتم إنجاز أية خطوة كبيرة لأجل الإنسانية بعد كل ذلك، وأن مستقبلنا ليس في النجوم، بل دائماً هنا على الأرض حيث نضع أقدامنا ـ كما قلت في العمود الأول من

---

[2] سياسي واقتصادي برتغالي، زعيم حزب الريف الاجتماعي الديمقراطي.

هذه الأعمدة، «دعونا ألا نخسر الأرض، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة بالنسبة لنا لئلا نخسر القمر». في العمود الثاني، الذي أسميته «قفزة في الزمن»، متخيلاً الأرض تعوم كما القمر الآن، بدأت بقولي «بدا ذلك كله لي مجرد مثل مجرد مشهد في فيلم خيال علمي بدائي تقنياً. حتى حركات رواد الفضاء كانت تشبه بشكل واضح حركات الدمى المتحركة، كما لو أن أذرعهم وأرجلهم كانت تشد عن طريق خيوط غير مرئية، خيوط طويلة جداً مربوطة إلى أصابع التقنين في هيوستن، يجرون بها، عبر الفضاء، الحركات الضرورية هناك. كل شيء كان مخططاً إلى آخر ثانية، وحتى الخطر كان متضمناً في المخطط. في أكبر مغامرة في التاريخ لم يكن ثمة أي متسع لأجل المغامرة».

وذاك كان المكان الذي انطلقت مخيلتي فيه بالكامل، وأعلمتني أن الرحلة إلى القمر لم تكن قفزة في الفضاء بل قفزة في الزمن. فقد زعمت أن رواد الفضاء، الذين أطلقوا في رحلتهم، كانوا قد سافروا عبر خط زمني وعادوا إلى الأرض، ليست هذه الأرض التي نعرفها ـ بيضاء، خضراء، سمراء وزرقاء ـ بل أرض المستقبل، أرض ستحتل نفس المدار، تدور حول شمس مطفأة، ميتة أيضاً، مجردة من البشر والطيور والأزهار، بلا ضحك، بلا كلمة حب. كوكب عديم الفائدة، مثل قصة قديمة لا يوجد أحد ليرويها. الأرض ستموت، ستكون كما هو القمر اليوم ـ هكذا أنهيتها. على الأقل إن الملحمة الطويلة للبؤس والحرب والجوع والعذاب التي كانتها إلى هذا اليوم لن تدوم إلى الأبد.

ما لم نبدأ محاولة القوم منذ اليوم فصاعداً أن الإنسان لم يكن يستحق قدره رغم كل شيء.

سيوافق القارئ على أن أفكاري ستبدو، خيراً أم شراً، لم تتغير كثيراً في أربعين عاماً. لا أعرف بالشرف ما إذا كان عليّ أن أهنئ نفسي أم أوبخ نفسي.

22 تمـوز: مونتانيا بلانكـا

الآن وقد بدأت ساقاي تستعيدان بالتدريج قوتهما وقدرتهما على المشي بشكل طبيعي، بفضل الجهود المشتركة لصاحبهما ولجوان، معالجي الفيزيائي المخلص، فأنا سعيد بتذكر ذاك العصر من أحد أيام شهر أيار عندما بدأت، بدون أن أكون قد فكرت بذلك قبلاً، رحلة الصعود إلى مونتانيا بلانكا [الجبل الأبيض] مع أنني كنت في البداية بدون أي ثقة على الإطلاق بأنني سأكمله حتى القمة. كان ذلك منذ ستة عشر عاماً، في عام 1993، وفي والوقت الذي كان عمري سبعون عاماً بالضبط. إن مونتانيا بلانكا، الذي ينتصب على بعد كيلو مترين عن منزلي، هو أعلى جبل في لانزاروتي، الأمر الذي لا يشي بالكثير، نظراً إلى أن الجزيرة، رغم كونها وعرة إلى درجة قصوى، مع المئات من براكينها الخامدة، لا يتمتع بأي شيء يمكن مقارنته بجبل تيدي Teide في تاناريف Tenerife. فارتفاعه، بالنسبة إلى مستوى سطح البحر، يربو قليلاً على 600 متر وشكله يشبه مخروطاً شبه كامل. لو كنت قادراً على تسلقه، لكان بمقدور أي شخص أن يتسلقه.

لا حاجة بك لأن تكون متسلق جبال شديد البراعة. على كل، سيكون من الصواب أن ترتدي حذاءً مناسباً، من النوع ذي المسامير المعدنيّة المدببة على النعل، نظراً إلى أن السفوح شديدة الانحدار. فكل ثلاث خطوات، تفقد واحداً منها. رغم أنني أقول لنفسي، أنا الذي حذائي ذو نعل مصقول بفعل البسط المنزلية.... لدى الوصول إلى قاعدة الجبل سألت نفسي، «وماذا لو كان علي أن أتسلق هذا؟». في ذهني، كان صعوده يعني الارتفاع عشرين أو ثلاثين متراً، لمجرد أن أكون قادراً على إخبار العائلة بأنني كنت على الجبل الأبيض. لكن في الوقت الذي تم فيه

احتلال العشرين متراً الأولى، كنت قد عرفت أنه سيتعين علي أن أصل إلى القمة، مهما كلف ذلك. وهكذا كان. لقد استغرقت أكثر من ساعة لأصعد إلى النتوءات الصخرية التي تتوج قمة الجبل والتي لا بد أنها بقايا من الفوهة البركانية القديمة.

«هل كان يستحق ذلك؟» يسأل الناس. لو كنت أمتلك اليوم الساقين اللتين كنت أمتلكهما آنذاك، لتخليت عن هذه القطعة من الكتابة الآن وصعدت مرة أخرى وتأملت الجزيرة، كلها، من بركان كوروا في الشمال على سهول الروبيكون في الجنوب، ووادي لاغيريا، وتيمانفايا، سلسلة التلال التي لا حصر لها التي تركتها النار جرداء. كانت الريح في وجهي، تجفف العرق المرتشح من جسمي ما يجعلني أشعر بالسعادة. كان ذلك عام 1993 وكنت في السبعين من عمري.

23 تموز: خمسة أفلام

طُلب مني التحدث عن خمسة أفلام أتذكرها فعلاً. لم يكن يهمني ما إذا كانت هي الأفضل والأشهر والتي يشار إليها في أغلب الأحيان أم لا كان يكفي أن الأفلام قد شدتني بشكل خاص، كما يُشد المرء بنظرة، بإيماءة، بنغمة. لم يكن اختيارها صعباً؛ بل على العكس. فقد قدمت نفسها لي بشكل طبيعي تماماً، كما لو أنني لم أفكر بغيرها أبداً. وها كم هي، إذا، لكن بترتيب ليس مؤشراً على أية جدارة، ولا ينبغي أن يؤخذ هكذا. أولاً (كان عليّ أن أبدأ القائمة في مكان ما). فيلم ***ملح الأرض*** *Salt of Earth* لهربرت بايبرمان Herbert Biberman، الذي شاهدته في باريس في أواخر السبعينات والذي أبكاني إلى حد ذرف الدموع، هذه قصة الإضراب من قبل عمال منجم تشيكانو

وزوجاتهم الجريئات شدني إلى أعماق روحي. الفيلم الثاني الذي أرشحه هو فيلم عداء الشفرة *Blade Runner* لريدلي سكوت Ridlay Scott، الذي شاهدته أيضاً في باريس، في سينما صغيرة في الحي اللاتيني، بعد عرضه العالمي الأول بزمن ليس طويلاً، والذي لم يكن في حينه يبدو أنه يمتلك مستقبلاً كثيراً. لا يمكن لأحد أن تراوده الشكوك حول فيلم *Amarcord* لفيلليني Fellini، وهو رائعة فنية مطلقة، ربما أجل أفلام المعلم الإيطالي، برأيي. ثم يأتي فيلم ***[قاعدة اللعب]*** **La Régle du jeu** لجان رنوار، الذي أبهرني بتحريره الخالي من الأخطاء وتوجيه / إخراج ممثليه وإيقاعه ورشاقته، وتوقيته، أيضاً، بأي حال. وفي الختام فيلم يظهر في ذاكرتي كما لو كان آتياً من القصص قرب الموقد التي تحكى عن الليلة الأولى من التاريخ: كوميديا صامتة حول طحانين، يؤدي دوريهما بات وباتاشون، الممثلان الدانماركيان الجليلان (بلا مبالغة) اللذان جعلاني أضحك أكثر من أي شخص آخر عندما كنت في السادسة. أكثر من شابلن أو بستر كيتون أو هارولد لويد أو لوريل وهاردي. إذا لم تشاهد بات وباتاشون فأنت لا تعرف ما الذي ينقصك.

24 تموز: فصل لأجل «الإنجيل»

لقد قيل إنني بعد وفاة يسوع ندمت على ما كانت تدعى آثام بغائي الشائنة وأصبحت تائبة لبقية حياتي، وهذا ليس صحيحاً. لقد وضعت على المذبح وأنا لا يستر عربي سوى الشعر الذي ينسدل إلى ركبتي، ونهداي يرتعشان وفمي بلا أسنان، وإذا كان صحيحاً أن السنين قد جففت الاشتداد الأملس لبشرتي فذلك ليس إلا لأنه في هذا العالم لا

شيء يمكن أن يصمد ضد الزمن، وليس لأنني قد احتقرت و انتهكت ذاك الجسد نفسه الذي كان يسوع قد اشتهاه وامتلكه. فكل من يروي تلك الأكاذيب حولي لا يعرف شيئاً عن الحب. لقد توقفت عن كوني بغياً في اليوم الذي دخل فيه يسوع إلى منزلي بقدمه المجروحة، يطلب مني أن أداويها، أما بالنسبة لتلك التصرفات الإنسانية التي يدعونها آثام الفسق، فليس لدي أي مبرر للتوبة عنها، نظراً إلى أن حبيبي قابلني بصفتي بغياً، وذاق جسدي وعرف كيف كنت أعيش فلم يدر لي ظهره. عندما قبلني يسوع مرة، مرات كثيرة، أمام كل الرسل، سألوه لماذا أحبني أكثر منهم، أجاب يسوع: «لماذا لا أحبكم بقدر ما أحبها؟» لم يعرفوا ماذا يقولون، لأنهم لم يكونوا قادرين أبداً على حب يسوع بنفس الحب المطلق الذي كنت أشعر به لأجله. بعد موت أليعازر، كان كرب يسوع وحزنه عظيمين للغاية بحيث أنني ذات ليلة، تحت اللحاف الذي يستر عرينا، قلت له، «لا أستطيع أن أصل إليك حيث تكون، لأنك قد حبست نفسك خلف باب لم يكن مصنوعاً لأجل قوة كائن بشري». فقال، بنواح وأنين حيوان قد أخفى نفسه ليكابد، «مع أنك لا تستطيعين الدخول، لا تتركيني، أبقي يدك ممدودة على الدوام نحوي حتى عندما لا تستطيعين رؤيتي، لأنك إذا لم تفعلي ذلك فسوف أنسى الحياة، أو أن الحياة سوف تنساني».

وبعد ذلك بأيام قليلة، عندما ذهب يسوع لمقابلة الرسل، قلت له، وأنا أسير إلى جانبه، «سأنظر إلى ظلك، إذا لم تردني أن أنظر إليك»، فرد قائلاً: «أريد أن أكون حيث يكون ظلي، إذا كانت عيناك موجودتين هناك». وأحببنا بعضنا بعضاً ونطقنا بكلمات كهذه، ليس فقط لأنها كانت جميلة وصادقة، إذا كان بالإمكان أن تكون بهاتين الصفتين في آن معاً، بل لأننا أحسسنا أن زمن الظلال كان يصل وفي حين كنا لا نزال معاً كان

علينا أن نبدأ بالتعود على ظلمة الغياب الدائم. رأيت يسوعاً يعاد إلى الحياة، ولتلك اللحظة الأولى ظننت أن الرجل الذي رأيته إنما كان الشخص الذي اعتنى بالحديقة حيث كان الضريح، لكنني أعرف الآن أنني لن أراه أبداً من المذبح حيث وضعوني، مهما كانت مرتفعة، ومهما كانوا قريبين بحيث يمكنهم أن يصلوا إلى السماء، مهما كانت مزينة بالأزهار ومضمخاً بالعطور. لم يكن الموت هو الذي فصلنا، ما فصلنا إلى الأبد كان الأبدية. عندئذ، بمعانقة الواحد للآخر، متحدين في الروح وفي لحم فمينا، لم يكن يسوع ما كان يُدعى أنه يكونه، ولا كنت أنا ما كنتُ أزدرى لأجل كونه. بالنسبة لي لم يكن يسوع هو ابن الله، وأنا، بالنسبة له، لم أكن مريم المجدلية، كنا مجرد رجل وامرأته، كلانا نرتعش من الحب، مع العالم يدور حولنا مثل نسر يقطر دماً. قال البعض إن يسوع قد طرد سبعة عفاريت من أحشائي، لكن هذا أيضاً، غير صحيح. فما فعله يسوع هو إيقاظ الملائكة السبعة الذين كانوا ينامون في روحي انتظاراً له ليأتي ويطلب مني المساعدة:

«ساعديني». لقد كان الملائكة هم الذين شفوا قدمه، كانوا هم من أرشدوا يدي المرتعشتين ومسحوا القيح عن الجرح، هم من وضع على شفتي السؤال الذي بدونه لم يكن بمقدور يسوع أن يساعدني: «أنت تعرف من أنا، ماذا أفعل، كيف أعيش»، ورد قائلاً «أنا أعرف». «أنت لم تكن في حاجة للنظر، وكنت تعرف»، قلت، ورد قائلاً، «لا أعرف شيئاً» وألححت بقولي، «أنا بغي». «أعرف ذلك». «أنا أنام مع الرجال مقابل المال»، «نعم». «إذاً فأنت تعرف كل شيء حولي» قلت، بصوته الهادئ، مثل السطح الأملس لبحيرة هامسة، قال، «هذا كله أعرفه». كنت لا أزال لا أعرف آنذاك أنه ابن الله، ولا حتى تخيلت أن الله يريد ابناً، لكن في تلك اللحظة، مع النور المبهر للفهم في روحي، فهمت

أن ابن الإنسان فقط يمكن أن يكون قد نطق بتلك الكلمات البسيطة الخمس، «هذا كله أعرفه». نظرنا أحدنا إلى الآخر، دون أن نلاحظ حتى أن الملائكة قد انصرفوا للتو، ومن تلك اللحظة فصاعداً، من خلال الكلمات والسكتات، من خلال الليل والنهار، من خلال الشمس والقمر، من خلال الحضور ومن خلال الغياب، بدأت أخبر يسوعاً من أنا، وكنت لا أزال بعيدة عن بلوغ أعماق نفسي عندما قتلوني. أنا مريم المجدلية وأنا أحببتُ. لا شيء أكثر لقوله.

27 تموز: مشكلة ذكورية

أرى من استطلاعات الرأي أن العنف ضد النساء هو رقم أربعة عشر على قائمة هموم الشعب الإسباني، برغم حقيقة أنك سوف تستنفد الأصابع إذا حاولت أن تعد عليها عدد النساء اللواتي يقتلن كل شهر من قبل الذين يعتقدون أنفسهم مالكين لهن. أرى أيضاً أن المجتمع، عبر إعلانات الدولة ومختلف النشاطات الأهلية، صار يفترض - وإن يكن تدريجياً فقط - أن هذا العنف هو مشكلة الرجال، وأن الرجال هم الذين يتعين عليهم حلها. منذ برهة تلقينا خبراً من أشبيلية والإكستريمادورا الإسبانية عن مثال جيد: رجال يتظاهرون ضد العنف. حتى ذاك الوقت كانت النساء فقط هن اللواتي يخرجن إلى الساحات العامة للاحتجاج ضد كل المعاملة السيئة التي يعانين منها على أيدي أزواجهن وشركائهن (شركاء، وهذه مفارقة محزنة).

ورغم أنهن في حالات كثيرة كن يعانين التعذيب المتعمد الذي يمارس عليهن بدم بارد، فإنهن لم يجفلن من إمكانية حصول الأسوأ: أن يخنقن، ويضربن حتى الموت، ويحرقن بالأسيد أو بالنار، أن تشق حنجراتهن.

العنف الذي كان يمارس دوماً ضد النساء قد حول مكان المساكنة (دعونا ألا نسميه المنزل أبداً) إلى سجن، فضاءً مثالياً لأجل الإذلال اليومي، لأجل الجلدات المنتظمة، لأجل الفظاظة السيكولوجية كأداة للهيمنة. إنها ليست مشكلة نساء، كما يقولون، لكن ذلك ليس صحيحاً.

المشكلة هي مشكلة رجال: أنانية الرجال، مشاعر الرجال التملكية المرضية، نزعة المراهنة لدى الرجال، ذاك الجبن البائس الذي يسمح لهم باستعمال القوة ضد شخص أضعف جسدياً منهم وقدرته على المقاومة السيكولوجية قد تم إضعافها بشكل ممنهج. منذ أيام قليلة فقط في هويلفا، قامت جماعة من المراهقين، الذي تبلغ أعمارهم ثلاثة عشر وأربعة عشر عاماً، ينفذون الأدوار التي يضطلع بها عادة من هم أكبر منهم، باغتصاب فتاة من نفس العمر كانت مختلة عقلياً، ربما اعتقاداً منهم بأنهم مخولون بالجريمة والعنف، بحيث أنهم يملكون الحق في استعمال ما يعتقدون أنه ملك لهم.

هذا الفعل الطري للعنف القائم على الجنوسة، بالتوازي مع تلك الأفعال التي حدثت في نهاية هذا الأسبوع ـ فتاة قتلت في مدريد، امرأة في سن الثالثة والثلاثين مقتولة أمام ابنتها البالغة مت العمر ست سنوات في طليطلة ـ ينبغي أن تكون قد دفعت الرجل للخروج إلى الشوارع. ربما كانوا مئة ألف رجل، رجال فقط، لا أحد سوى الرجال، كانوا سيتظاهرون في الشوارع. في حين أن النساء يقفن على الأرصفة يرمين الزهور عليهم ـ هذه قد تكون الإشارة التي يحتاجها المجتمع للبدء بمحاربة هذا الخزي الذي لا يحتمل، من الداخل، وبلا تأجيل.

ولجعل العنف القائم على الجنوسة، سواء كان مميتاً أم لا، أحد الأحزان والهموم الأساسية لمواطننا. إنه حلم، واجب. إنه قد يكون أكثر من مجرد طوباوي.

على قائمة الإبداعات الإنسانية (ثمة إبداعات أخـرى لا علاقـة لهـا بالإنسانية، كتصميم شبكة العنكبوت الجاذب للغذاء، أو جيـب الهـواء المغمور الذي يفيد كعش للسمك)، على هذه القائمة، كما سأجادل، ثمة شيء واحد لم أشاهده متضمناً، شيء درجت العادة أن يكـون الطريقـة الأكثر فعالية للسيطرة علـى أجسـادنا وأرواحنـا. أنـا أشـير إلى النظـام القضائي الذي نجم عن اختراع الخطيئة، وتقسيمها إلى خطايـا عرضيـة وخطايا مميتة، والاختراع اللاحق لمحمصة من العقوبات، والتحريمات والكفارات. إن النظام القضائي القائم على الخطيئة، رغـم ضـعف الثقـة به اليوم، الواقع في سوء الاستعمال مثل تلك النصب القديمة التي هدمها الزمن لكنها تحتفظ بذاكرة وانطباع قوتها السابقة نزولاً إلى آخر حجـر، [هـذا النظـام] يسـتمر في أن يكسـو ضـمائرنا، مخترقـاً إياهـا بجـذوره العميقة.

فهمت ذلك بشكل أفضل عندما رأيت الخلافات الـتي أثارهـا نشـر الكتاب الذي وضعت له العنوان ***الإنجيل وفقاً ليسوع المسيح*** خلافـات كانت تفاقمها دومـاً الإهانـات والـتهم الافترائيـة الأخـرى الموجهـة إلى المؤلف الطائش. بما أن الإنجيـل هـو مجـرد روايـة تنحصـر بــ «إعـادة مسرحة» وإن يكن بشكل غـير حـرفي، لشخصـية يسـوع وحياتـه، مـن المفاجئ أن كثيراً من الذين ثاروا ضدها رأوها فعلاً كتهديد لاستقرار وقوة أسس المسيحية نفسها، وللطبقة الكاثوليكيـة مـن المسـيحية علـى وجـه الخصـوص. سـيكون ذا مغـزى بالنسـبة لنـا، إذاً، أن نشـكك في القـوة الحقيقية لذاك الصرح الآخر الموروث من العصـور القديمـة، لـو لم يكـن واضحاً أن مثل ردود الأفعال هـذه هـي في جوهرهـا التمظهـر لنـوع مـن

الانتماء، انعكاس للنظام القضائي القائم على الخطيئة الذي نحمله بداخلنا بطريقة أو بأخرى. إن رد الفعل المبدئي، لكنه الأكثر سلمية، كان يقوم على الاحتجاج على أن مؤلف الإنجيل، كونه كافراً، لا يملك الحق في أن يكتب حول يسوع. الآن، بعيداً تماماً عن الحق الأساسي الذي يمتلكه أي كاتب في أن يكتب حول أي موضوع، سأضيف في هذه الحالة حقيقة أن مؤلف الإنجيل وفقاً ليسوع المسيح قد حصر نفسه ـ إذا تأملتم المسألة بشكل صحيح ـ بالكتابة حول شيء لا يهمه ولا يؤثر عليه مباشرة، بما أنه كنتيجة ونتاج للحضارة والثقافات اليهودية المسيحية، هو بتلك الطرق وبكل طريقة، بقدر ما تكون عقليته معنية بالأمر «مسيحي»، حتى لو عرَّف نفسه فلسفياً، وتصرف في الحياة اليومية كما هو أيضاً ـ كملحد. لذلك سيكون من الإنصاف أن نقول إنني كنت أمتلك الحق بقدر ما يمتلك الكاثوليكي المناضل الأكثر تقوى والتزاماً في الكتابة حول يسوع، مشككاً مثلي.

لا يمكنني أن أرى سوى اختلاف واحد بيننا، لكن إلى هذا الاختلاف ـ وهو اختلاف هام، اختلاف تدوين الأشياء ـ أضفت، من تلقاء نفسي وعلى مسؤوليتي، اختلافاً آخر محظور على الكاثوليكيين: الحق في الخطيئة. أو بعبارة أخرى، الحق الأكثر إنسانية في الهرطقة.

سيقول البعض إن هذا كله ماء تحت الجسر. مع ذلك، فيما يتعلق بهذه المسألة فإن روايتي التالية (لن أسميها قصة هذه المرة) لن تكون أقل إثارة للجدل، بل على العكس تماماً، كنت أعتقد أنها قد تستحق اتخاذ بعض الإجراءات الشفعية. ليس لحماية نفسي (شيء ما لم يهمني أبداً) بل لأن، كما نقول في هذه الأصقاع، من ينذر مسبقاً ليس بغدار [أعذر من أنذر].

29 تموز: «Epur si mouve»

مع نتائج المسح التي لا تزال ساخنة، كانت صحيفة إلبايس تطلب مني التعليق على الاتحاد النهائي للشعب الذي يشكل شبه الجزيرة الأيبيرية. ما يلي هو ما أرسلته إلى مدريد حول هذا الموضوع المخادع. هذا الموضوع المخادع، الحساس المثير للجدل والاستفزازي الذي كان من الممكن الاتفاق عليه بشكل كاف على الأقل لنناقشه بشكل جدي.

«ومع ذلك فهي تدور» هذه هي الكلمات التي قالها غاليليو غاليلي في همسة بالكاد مسموعة في نهاية قراءته لبيان الارتداد الذي أرغم عليه من قبل محاكم التفتيش للكنيسة الكاثوليكية في 22 حزيران 1633.

وكما ستعرفون، فقد كانت هذه محاولة لجعله ينكر ويشجب والتبرؤ علناً ما كانت ولا تزال قناعته التي يؤمن بها إيماناً عميقاً، أي، الحقيقة العلمية للنظام الكوبرنيكي، التي تثبت أن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض. أما نص تنازل غاليليو فينبغي أن يُدرس بكل الاهتمام المستحق له في كل مؤسسة تعليمية على الكوكب، مهما كان الدين السائد، ليس لكي يثبت ما هو جلي لكل شخص، وهو أن الشمس ثابتة والأرض تدور حولها، بل كطريقة لشفاعة تطور الخرافات الجديدة، الغاسلة للأدمغة، الأفكار الثابتة Ideés Fixes أو الاعتداءات الأخرى على الذكاء والفطرة السليمة.

الموضوع الرئيسي لهذه المقالة، مع ذلك، ليس غاليليو، بل شيء أقرب إلينا في الزمان والمكان. أنا أشير إلى مسح «البارومتر الهسبانو ـ لوسو» من مركز التحليل الاجتماعي في جامعة سالامنكا، المنشور اليوم، الذي يتفحص إمكانية إقامة وحدة نهائية بين قُطري ايبيريا مع تطلع إلى تشكيل اتحاد إسباني ـ برتغالي.

القراء المنتظمون لتعليقي هذا ولتعليقاتي الأخرى سيتذكرون المناظرة، المزينة بعدد من الإهانات المختارة وبعدد من الاتهامات بالخيانة لبلدي التي أثارها تنبؤي بمثل هذا الاتحاد منذ بعض الوقت. لكن لا، وفقاً لمسح جامعة سالامنكا، فإن 399 بالمئة من البرتغاليين و3 ـ 30 بالمئة من الأسبان سوف يؤيدون هذا الاتحاد. تظهر النسب المئوية تقدماً يستحق التقدير ـ في البلدين ـ في ضوء أحدث الحسابات. إن الذين يرفضون الفكرة يشكلون أكثر قليلاً من 30 بالمئة من الذين سئلوا، أي 260 من الـ 876 مواطناً الذين تم استفتاؤهم لأجل هذا الغرض في شهري نيسان وأيار من هذا العالم.

بالرغم مما يقوله الناس عادة، فإن المستقبل يكتب مسبقاً؛ إنه بالضبط أننا لا تمتلك بعد العلم الضروري لقراءته. إن احتجاجات اليوم قد تتحول إلى وئام الغد، أو قد يحدث العكس، لكن ثمة شيء واحد مؤكد، وعبارة غاليليو تنطبق عليه تماماً. نعم: ايبيريا. لكنها تدور.

30 تموز: التبرؤ

إلى كل من يهمه الأمر:

أنا، غاليليو غاليلي، ابن المرحوم فنسنزو غاليلي، من فلورنسا، عمري سبعون عاماً، قدمت شخصياً إلى المحاكمة وأنا راكع أمامكم، أنتم الكرادلة الأكثر شهرة وتبجيلاً، المفتشون العامون للمجتمع المسيحي برمته ضد الفسوق الهرطقي، وأنا أضع أمام عيني الأناجيل المقدسة، التي ألمسها بيديَ، أقسم بأنني كنت أؤمن دائماً، وبعون الله سأؤمن في المستقبل، بكل فقرة من الفقرات التي تدعمها كنيسة روما الكاثوليكية

وتلقنها وتبشر بها. لكن لأن هذا المنصب المقدس قد أمرني بالتخلي كلياً عن الرأي المغلوط، الذي يقول بأن الشمس هي مركز العالم [الكون] وهي ثابتة، ويحريم الاعتقاد بالمذهب الزائف المذكور [......] أو الدفاع عنه أو تلقينه بأية طريقة. أرغب في أن أنزع من أذهان نيافاتكم وأذهان كل المسيحيين الكاثوليك ذاك الشك الذي تحملونه بشكل صحيح ضدي؛ لذلك بدافع من إخلاص القلب والإيمان الصادق أتبرأ وألعن وأمقت الأخطاء والهرطقات المذكورة، وبشكل عام كل الأخطاء والملل الأخرى المخالفة للكنيسة المقدسة، وأقسم بأنني لن أقول مرة أخرى في المستقبل أو أدعي أي شيء، شفهياً أو كتابياً، يمكن أن يثير شكوكاً مشابهة ضدي، لكنني إذا علمت بأي هرطوق أو أي شخص مشتبه بالهرطقة، فسوف أبلغ عنه إلى هذا المكتب المقدس أو إلى المفتش والأسقف في أي مكان أظنه فيه. بالإضافة إلى ذلك أقسم وأعد بأن أنفذ وألتزم بكل الكفارات التي فرضها وسيفرضها هذا المكتب المقدس. لكن إذا حدث بالصدفة أن كنت بصدد أن أنتهك أياً من وعودي الآنفة الذكر أو أحكامي أو احتجاجاتي (لا سمح الله)، فسوف أعرض نفسي لكل الآلام والعقوبات التي نصت عليها وأعلنتها القوانين المقدسة والمراسيم العامة والخاصة الأخرى ضد مثل هؤلاء المذنبين لذلك، بعون الله وأناجيله المقدسة، التي ألمسها بيدي، أنا، الموقع أدناه، غاليليو غاليلي قد تبرأت وأقسمت ووعدت وألزمت نفسي أخلاقياً بما هو مكتوب أعلاه والتزاماً به وقعت بيدي هذه الوثيقة وثيقة تبرؤي التي تلوتها كلمة كلمة.

31 تمـوز: ألفارو كونهال

لم يكن القديس الذي يجله بعض الناس، ولا الشيطان الذي يبغضه الآخـرون؛ لقـد كـان ـ وإنْ لـيس ببسـاطة ـ إنسـاناً اسمـه كـان ألفـارو كونهال[3]، ولسنوات كثيرة كان اسمه مرادفاً لنـوع مـن الأمـل بالنسبة لبرتغاليين كثيرين. لقد جسَّد القناعات التي حافظ على إخلاص لا يهتز تجاهها؛ كان شاهداً ووكيلاً للأزمنة التي ازدهرت فيها؛ كـان حاضـراً عندما انحطت الأفكار، وذوت الأحكام، وشوهت التطبيقات. الذكريات الشخصية التي رفض أن يدونها ربما كان من الممكن أن تساعدنا علـى فهم أفضل للحقائق الأساسية حول الشجرة الضعيفة التي نجد في ظلـها اليوم البرتغاليين يلتجئون فيما هم يلتهمون العلف الكـثير الكـلام الـذي يعتقدون أنه يغذي أرواحهم.

لن نقرأ مذكرات ألفارو كونهال، وتلك الخسـارة هـي أمـر يجـب أن نعتاد عليه. ولن نقرأ ما كان ربما ـ بالنظر إلى الماضي مـن حيـث نحـن الآن ـ الأكثر تنويراً من كل الوثائق التي كان من الممكن أن تولد من عقله ومن يدي الفنان، يديه: تأمل حول عظمة وانحطاط الإمبراطوريات، بما فيها تلك التي نبنيهـا بـداخلنا، تلـك الأطـر مـن الأفكـار الـتي تبقينـا منتصبين وتـدعونا يوميـاً إلى التـوبيخ، حتـى عنـدما نـرفض أن نلتفـت إليها. بدلاً من ذلك، كما لو أن باباً قـد أغلـق وآخـر قـد فـتح، يصـبح الأيديولوجي كاتب روايات، القائد السياسي المتقاعـد يخـر صـامتاً عـن مسألة المصير الممكن والمحتمل للحزب الذي كان على مدى أربعين عاماً مرجعه الثابت وشبه الوحيد. لم يكن لدي أي شك، سواءً على المستوى

---

[3] سياسي برتغالي (1913 ـ 2005) شغل على مدى ثلاثة عقود منصب الأمين العام للحزب الشيوعي البرتغالي.

القومي أو الأممي، بمرارة الساعات والأيام التي عاشها ألفارو كونهـال. لم يكن الوحيد، وكان يعرف ذلك.

في بعض كنت أنا المناضل أختلف مع الأمين العام الـذي كـان هـو، وكنت أخبره بذلك. مع ذلك، عند هذه المسافة، يبـدو كـل شـيء أنـه يبهت، حتى الأسباب التي كنـا نسـتخدمها «بـدون نتيجـة ملحوظـة» ونحاول إقناع أحدنا الآخر. تابع العالم طريقه وتركنـا وراءه. أن تصـبح عجوزاً هو أن تكون غامضاً. كنا لا نزال بحاجة لكونهال عندما تقاعـد. الآن صار الوقت متأخراً جداً. لا يمكننا التخلص من هذا الشعور بكوننا أيتاماً الذي يغمرنا كلما فكرنا به. وكلما فكرت به. وأنا أفهم، أؤكد لكم أنني أتفهم ما قاله غراهام غرين ذات مرة لإدوار لورنسو:

«أما فيمـا يتعلـق بالبرتغـال فقـد كـان حلمـي هـو أن أقابـل ألفـارو كونهال». لقد عبر الكاتب البريطاني العظيم عما كان يشعر به الكثيرون. لا بد أنكم تفهمون كم نفتقده.

آب / أغسطس 2009

3 آب : غابـو

يمكن تقسـيم الكُتَّـاب (بفـرض أنهـم يوافقـون علـى أن يُقسـموا) إلى فئتين: الفئة الصغيرة تتضمن أولئك القادرين على شق طرق جديـدة في الأدب، والكبيرة تتكون من أولئك الذين يشـقون طـريقهم الخـاص بهـم يسيرون على خطا الفئة الأولى. كان الوضع على هـذا النحـو منـذ بـدأ العالم، والغرور (المشروع؟) للمؤلفين عـديمي الحيلـة في وجـه مثـل هـذا الـدليل القـاطع. لقـد اسـتعمل غبرييـل غارثيـا مـاركيز موهبتـه ليفـتح ويؤسس الطريق لما سمي لاحقـاً (وبشـكل مغلـوط) بالواقعيـة السـحرية، وبالتوازي مع ذاك الطريق تقدم بدورهم أعداد كبيرة من الأتباع و، كمـا يحدث دوماً، المنتقصون من قيمته. فكان أول كتاب من كتابه يقع بـين يدي هو *مئة عام من العزلة*، والصدمة التي أصابتني بها كانت من القوة بحيث أنني توقفت عن القراءة بعد الصفحات الخمسـين الأولى. كنـت بحاجة لأن استجمع أفكاري وفق ترتيب ما، وأن أضبط قلـبي الخـافق بقوة و، قبل كل شيء، أن أعلم أن أتحكم بالبوصلة التي كنت آمل أن أكون قادراً بها على شق طريقي على امتداد العالم الجديـد الـذي ظهـر للتو أمام عيني. في حياتي كقارئ كان ثمة مناسبات قليلة بشكل ملحوظ برزت فيها تجربة بمثل هذه الكثافة. فإذا كان بالإمكان أن تكون الكلمة

traumatized (مرضوض) ذات دلالة إيجابية، فإنني سأستعملها عن طيب خاطر في هذه الحالة.

أما وقد كتبت هذه الكلمة، فسوف أتركها كما هي. إنني واثق من أنها ستكون مفهومة.

4 آب : باتيو دو باديرو (فِناء الخباز)

أعتقد أنني يجب أن أكون قد عشت في جوار بنها دافرانسا لشبونة لمدة حوالي عشرين عاماً، أولاً في شارع الـ Rua do Padre sema Freitas ثم في شارع كارلوس ريبيرو . بعدئذ على مدى سنوات كثيرة، حتى وفاة والدتي، كان الجوار بالنسبة لي امتداد متواصل لكل الأمكنة الأخرى التي سأعيش فيها. لدي ذكريات عنه لا تزال حية حتى اليوم. ثم، حتى الوادي المظلم Vale Escuro قد استحق اسمه، لأنه كان مكاناً للمغامرة والاكتشاف لأجل الشبان، معتزلاً طبيعياً بدأ يتعرض للتهديد من قبل الأبنية الجديدة الأولى التي يتم إنشاؤها، لكن كان لا يزال ممكناً تذوق الطعم الحامض للدرنات المحلاة لنبات ينمو هناك لم أنجح في تعلم اسمه. وكان أيضاً ميدان معركة يمكن فيه خوض الحروب الهوميروسية. كان هناك فناء Patio do Padeiro (لم يكن ينتمي إلى بنها دي فرانسا، بل إلى ألتو دي ساوخواو....)، حيث لم يكن الناس العاديون يجرؤون على الدخول، أو هكذا قيل، حتى البوليس كان يمكث بعيداً، مغمضاً العين عن السلوك المحظور المزعوم أو الحقيقي للسكان. ما كان مؤكداً هو أن هذه الدرجة من الخوف وعدم الثقة قد تسببت بها الطبيعة المغلقة لذاك العالم الصغير، المعزول عن بقية الجوار، الذي كانت كلماته، إيماءاته، ومواقفه تصطدم مع السلوك الهادىء الماحي للذات للأرواح الخائفة التي تسير في أرجائه. ذات

يوم، بين الفجر والغسق، اختفى الباتيو دو باديرو، من الممكن أنه أزيل عن وجه الأرض عن طريق حفلة تهديم قامت بها البلدية، لكن الأرجح عن طريق حفارات الأرض لمتعهدي البناء، وفي مكانه أقيمت أبنية لا يتصورها الخيال، كل واحدة نسخة طبق الأصل عن البناية التالية، بحيث أنها ستبدو قديمة في خلال سنوات قليلة. على الأقل كان باتيو دو باديرو يمتلك أصالة ومعالم كلها خاصة به، مهما كانت قذرة وكريهة الرائحة.

لو كان بمقدوري أن أشارك، لو كنت لا امتلك سوى الشجاعة على أن أشارك في حيوات أولئك الناس وأتعلم حولهم، لوددت أن أعيد بناء حياة الباتيو دو باديرو. لكن ذلك سيكون جهداً ضائعاً. فالناس الذين اعتادوا على العيش هناك قد أصبحوا مشتتين، والمتحدرين منهم إما أعادوا تكوين حيواتهم نحو الأفضل، أو ربما نسوا أو لم يعودوا يرغبون في تذكر الحيوات القاسية لأولئك الذين اعتادوا العيش هناك. إن ذكرى بنها دي فرانسا (أو ذكرى الألتو دي سان خواو) لم تعد تحتفظ بفضاء لأجل باتيو دو باديرو.

بعض الناس يولدون ويعيشون حيواتهم بدون حظ. لا أحد منهم ترك وراءه أي أثر. لقد ماتوا واندثروا.

5 آب : ألمودوفار

جئت إلى لاموفيدا[1] متأخراً، عندما خلفت وراءها ملابسها الجلدية الضيقة لمهرجي المدينة، دموعها الكاذبة التي تؤطرها المسكرة السوداء،

---

[1] «لاموفيدا» La movida حركة ثقافية إسبانية ظهرت مع الديمقراطية الجديدة بعد موت فرانكو، وكانت تمثلها في السينما أفلام ألمودوفار اللاذعة والانتقائية والفاضحة.

رموشها المستعارة، وشعرها المستعار، ضحكتها، وأحزانها. لا أقصد أن لاس موفيداس Las movidas بالتعريف ينبغي أن تكون حزينة، أو أن أقول إن جهوداً كبيرة مطلوبة لإيقاف السؤال الحاسم، «ماذا أفعل هنا؟» عن الانسلال عبر شفتيها في وسط مهرجان أو طقوس عربيدة. أرجو أن تلاحظوا، إنني أخبركم قصة ليست قصتي. فأنا لم أكن أبداً رجلاً لأجل لاس موفيداس، كما لو أنني تركت نفسي أغرى، وأنا أكيد قدر المستطاع أنني لن أنحت شخصية أفضل من دون كيشوت في قصر الدوق. السخرية هي مسألة حقيقة، وليست مجرد وجهة نظر. بالنظر إلى أن هذا هو الحال، لا أعتقد أنني مخطئ إلى حد كبير عندما أتخيل بيدرو ألمودوفار، المرجع بامتياز للاموفيدا في مدريد، يسأل روحه الصغيرة (كل الأرواح صغيرة، تقريباً إلى درجة اللامرئية)، «ماذا أفعل هنا؟» لقد أعطانا الجواب في أفلامه، التي تجعلنا نضحك وفي الوقت نفسه نحس بغصة في حلوقنا والتي تدل على أن وراء الصور تكمن أشياء تدعونا للنطق بأسمائها. عندما شاهدت فيلم Volver أرسلت إلى بدرو رسالة قلت له فيها، «لقد لامست الجمال المثالي». ربما (أو بلا شك) بدافع من التواضع، لم يرد عليّ.

إنني أحتاج إلى الوصول إلى خاتمة. بطريقة غير متوقعة، لأجل كل من يضيعون وقتهم في قراءة هذه السطور، سألخص لهم كما يلي:

يتوقع المرء من بدرو ألمودوفار أن يمدنا بالفيلم العظيم حول الموت الذي تفتقد إليه السينما الإسبانية بشدة حتى تاريخه. ثمة ألف سبب لذلك، لكن معظمها لأنه سيكون طريقة لإنقاذ المعنى المطلق للاموفيدا La movida من الظلال.

6 آب : في ظلال الأب (1)

كتب ميخائيل باختين في كتابه ***نظرية الرواية وجمالياتها*** : «الموضوع الأساسي لجنس الرواية، الذي يلخصها، الذي يخلق أصالتها، هو الإنسان الذي يتكلم والكلمات التي يستعملها». أعتقد أن من النادر أن كان ثمة توكيد لهذه النظرية العامة بنفس دقة المثال الأدبي والإنساني لفرانز كافكا. أود أن أترك جانباً أولئك المنظرين الذين لا يخلون من المنطق، في حين ثاروا ضد «النزعة الرومانتيكية» بحثاً عن كاتب في المدونة السيروية الذاتية التي تركها في أعماله، والبحث بدوره عن معنى العمل في تفاصيل الحياة. لا يحجب كافكا مثالاً واحداً (الأكثر، يبدو أنه يمضي بعيداً إلى حد إثارة الأسئلة الجديرة بالاهتمام حول كل مثال) في وصفه للعوامل المقررة لمسار حياته الدرامية و بالتالي، عمله كمؤلف: النزاع مع أبيه، سوء تفاهمه مع الجالية اليهودية، استحالة التخلي عن حياة العزوبية من أجل الزواج، ومرضه. أرى أن أول هذه العوامل، معنى العداء الذي يستعدي الابن ضد الأب والأب ضد الابن، وهو شيء لم يتغلب عليه أبداً، هو ما يؤلف حجر الأساس لأعمال كافكا برمتها، ومنها يشتق، تماماً كما أغصان الشجرة تتفرع من الجذع الرئيسي ـ القلق العميق والحميم الذي قاده في اتجاه الجذع الرئيسي ـ القلق العميق والحميم الذي قاده في اتجاه ميتافيزيقي، رؤية العالم المعذّب عن طريق العبثية، وتعمية الوعي.

الإشارة الأولى إلى **المحاكمة** يمكن ردها إلى مفكراته وكتبت في 29 تموز 1914 (كانت الحرب العالمية الأولى قد اندلعت في اليوم السابق)، وتفتتح بالكلمات التالية:

«ذات ليلة، جوزف ك. ابن تاجر غني، بعد مجادلة مطولة مع

أبيه....». هكذا أعلن، كما كان قد كتب في تلك السطور الثلاثة المستعجلة من كتاب *المسخ*، الذي كتب قبلئذ بحوالي عامين، ما ستصبح الثيمة المركزية للمحاكمة.

عندما يشكو غريغور سمسا، الذي تحول بين عشية وضحاها، بدون تفسير ،إلى حشرة مقرفة ـ شيء ما بين الخنفساء والصرصور ـ من المكابدات الظالمة التي تحل على الرحالة التجاري عموماً، وعليه شخصياً على وجه الخصوص، يعبر عن ذلك بطريقة لا تترك مجالاً للشك: «في كثير من الأحيان يكون هو الضحية لمجرد شائعة، أو ذكر بالصدفة، أو شكوى بلا مبرر، ومن المستحيل إجمالاً بالنسبة إليه أن يدافع عن نفسه، نظراً إلى أنه لم يعد يمتلك أدنى فكرة عما هو متهم به». إن «**المحاكمة**» كلها مغلفة بهذه الكلمات. صحيح أن الأب «رجل الأعمال الغني»، يختفي من القصة، ولا تُذكر الأم إلا في فصلين قصيرين ـ بشكل عابر وبدون تأثر بنوي ـ لكن لا يبدو لي أنه متهور بشكل مفرط (مالم لم أكن مخطئاً كلياً بخصوص نوايا كافكا المؤلف) أن أتخيل أن السلطة الأبوية الكلية القدرة والمهددة من الممكن أن تكون قد تحولت، عبر حيلة كتابة التخييل، إلى الجبروت المتعجرف لقانون مطلق بدون أن يحدد بالضبط أي جريمة ارتكبت ضد بنوده هو عنيد في فرض عقابه. إن حدث العدوان المفرط المكروب والساخر في آن معا، عندما يطرد غريغور سمسا ابنه من غرفة معيشة الأسرة، وهو يرجمه بالتفاح إلى أن تعلق واحدة في درعه، إنما يصف كرباً لا اسم له هو موت الأمل في التواصل.

7 آب : في ظل الأب (2)

قبلئذ بصفحات قليلة، كان غريغور سمسا الجمل قد نطق بشكل مؤلم بآخر الكلمات التي كان فمه الحشري قادراً على التصريح بها: «أمي، أمي». ثم، كما لو كان يحتضر لأول مرة، دخل في كتمان الصمت الطوعي، علامة جوهرية على طبيعته الحيوانية التي لا علاج لها، التي كان تخليه الحاسم عن أي امتلاك لأب أو أم أو ابن في عالمه الحشري جزءاً منها. في النهاية عندما كنس الخادم القشرة المجففة، التي هي كل ما تبقى من غريغور، إلى القمامة، فإن غيابه منذ ذلك اليوم فصاعدا يفيد فقط في تأكيد النسيان الذي كانت عائلته قد أحالته إليه. في رسالة مؤرخة بـ 28 آب 1913 كتب كافكا: «أعيش وسط أسرتي، بين أفضل الأشخاص وأكثرهم محبة ممن يمكن للمرء أن يتخيلهم، لكني، كشخص، أكثر غربة من الغريب. في الأعوام الأخيرة لم أتكلم أكثر من معدل وسطي قدره عشرون كلمة في اليوم الواحد إلى أمي، ولم أتبادل أكثر من تحية عابرة مع والدي». كان يتوجب على المرء أن يكون قارئاً مستقلاً كلياً لكي لا يلاحظ السخرية الأليمة والمرة المحتواة في كلمات «بين أفضل الناس وأكثرهم محبة ممن يمكن للمرء أن يتخيلهم» التي يبدو أنها لا توجد إلا لكي تُعارض. سيحتاج المرء لأن يكون غافلا بشكل مشابه، يبدو لي، لئلا يعزو أهمية خاصة إلى حقيقة أن كافكا كان قد اقترح على محرره، في 4 نيسان 1913، أن ينشر (الوقاد) (الفصل الأول في روايته أمريكا) ***والمسخ والمحاكمة*** في مجلد واحد تحت عنوان واحد هو ***الأبناء*** (وهو شيء، في الحقيقة، قد حصل بعد وقت طويل، في عام 1989). في الوقاد، يُطرد «الابن» من قبل الأبوين لأنه اعتدى على شرف العائلة بالتسبب في حمل خادمة؛ وفي ***المحاكمة***

يدان «الابن» ويحكم عليه بالموت غرقاً من قبل الأب، وفي *المسخ*، يسلم «الابن» بوجوده ببساطة سامحاً بأن يؤخذ مكانه من قبل حشرة... أكثر من رسالة إلى أب، التي كتبت في تشرين الثاني 1919 لكنها لم تصل إلى المرسل إليه، فإن هذه القصص، كما أفهمها ـ بالأخص المحاكمة والمسخ، أنه، تحديداً بفضل كونها مناقلات أدبية، حيث تقوم حيلة الإظهار والحجب بوظيفتها كمرآة للالتباسات والإعكاسات، تقدم لنا الوصف الدقيق لدى الجرح الذي لا يندمل الذي فتحه الصراع مع والد كافكا في روحه. تكتسي الرسالة، بأسلوب الكلام، شكل و نبرة اتهام تشهيري، مصاغ مثل تصفية نهائية للحسابات، فعل موازنة بين المطلوب وامتلاك وجودين متصادمين، تضادين متبادلين، ما يجعل من المستحيل نبذ الفرضية القائلة بأنهما يقومان على مبالغات وتحريفات للحقائق الفعلية، وخصوصاً عندما يتحول كافكا فجأة، في نهاية الكتاب، إلى استعمال صوت الأب كسارد، لكي يتهم نفسه.... في المحاكمة يمكن لكافكا أن يخلص نفسه من الشخصية الأبوية، الموصوفة بشكل موضوعي،و ليس من قانونه البطريركي. و، كما في المحاكمة تماماً يرتكب الابن الانتحار وفقاً لوصية قانون بطريركي، كذلك في المحاكمة يكون المتهم نفسه جوزف ك، الذي ينتهي به المطاف إلى أن يقود جلاديه إلى المكان الذي سيُعدم فيه وحيث سيظل، في لحظاته الأخيرة عندما يكون الموت وشيكاً تماما، يعترف بالفكرة، مثل ندم نهائي، بأنه لم يتعلم أبداً كيف يؤدي دوره حتى النهاية، وأنه لم ينجح أبداً في أن يوفر على السلطات أية مشكلة أي، نحج في الاستغناء عن الأب.

10 آب : اليمن

سألت لاورا رستريبو، المؤلفة الكولومبية وصديقتنا التي نشاطرها قلوبنا وأفكارنا، أطباء بلا حدود إن كان بمقدورها أن ترافقهم إلى اليمن، لكي تقدم رواية لما شاهدته وسمعته وشعرت به هناك.

هذه الرواية نشرت في مجلة البايس الإسبوعي El Pais Weekly في تقرير مؤثر يفتتح، مثل تقارير كثيرة أعدت سابقاً حول موضوع ككاتبة، التصنعات الانفعالية للكاتب الذي يحتكم بشكل متعمد إلى أحاسيس القارئ ـ تعبر بطريقة تلح على البحث العنيد عن الحقائق البعيدة عن متناول معظم المراقبين.

• إن لأوصافها للقوارب الواصلة من الصومال، المحملة فوق طاقتها بالفارين الذين كانوا يأملون في أن يجدوا في اليمن حلاً للمشاكل التي دفعتهم نحو البحر، أثر نادرٌ ومنوٌر. ففيها لا يزال بإمكانك أن ترى الرجال، ترافقهم النساء والأطفال كما هو الحال دائماً، لكن لاورا رستريبو لا تترد في إظهار كم هو شائع أن تتكلم عن هؤلاء الرجال بدون ذكر للنساء والأطفال أيضاً، وكيف أنك عندما تذكر الأطفال فمن المستحيل أن تتجنب أيضاً الكلام عن الأمهات اللواتي ولدنهم، واللواتي يحملن المزيد منهم في أرحامهن. إن الأوضاع التي تجد فيها هؤلاء النسوة أنفسهن عندما ينزلن من القوارب في اليمن تثبت القائمة الكاملة من الإذلالات المعنوية والجسدية التي يتعرضن لها لأنهن ولدن كنساء. فوراء كل كلمة تكتبها لاورا توجد دموع وأنات وصرخات تبقينا جميعاً متيقظين ليلاً إذا لم تكن ضمائرنا العالية المرونة قد اعتادت على فكرة أن العالم يمضي إلى حيث يريد أولئك الذين يتحكمون به أن يمضي، ويكفي لنا أن نرعى مناطقنا بأفضل طريقة نعرفها، بدون أن نزعج

أنفسنا بما يمكن أن يحدث على الجانب الآخر من جدار غرفة معيشتنا. هذه، رغم كل شيء، أقدم قصة في العالم.

11 آب : أفريقية

قال أحدهم: في أفريقية يكون الموتى سوداً والأسلحة بيضاء. سيكون من الصعب أن نجد اقتباساً أفضل للتعبير عن تلك السلسلة من الكوارث التي يعنيها، وكان يعنيها لقرون، الوجود على القارة الأفريقية. إن الجزء من العالم الذي يعتقد أنه مكان ولادة البشرية لم يكن بالتأكيد فردوساً أرضياً عندما نزل أولئك «المكتشفون» الأوروبيون من سفنهم هناك (خلافاً لما تخبرنا إياه أسطورة الكتاب المقدس، فإن آدم لم يُطرد من عدن؛ فهو ببساطة لم يدخلها)، لكن وصول أولئك الرجال البيض فتح للسود بوابات الجحيم واحداً تلو الآخر. هذه البوابات لا تزال مفتوحة بشكل لا سبيل إلى تغييره، و رمي الأفارقة جيلاً بعد جيل من خلالها إلى اللهب، بفضل اللامبالاة المخفية بالكاد أو بفضل التواطؤ اللامبالي للرأي العام العالمي. إن مليون أسود ماتوا نتيجة للحرب والجوع والأمراض التي لا شفاء منها سيكون وزنهم قليلاً على الدوام في الميزان لدى أي بلد استعماري جديد، وسيحتلون فضاءً في صحفه أقل من الخمسة عشر ضحية لقاتل تسلسلي. نحن نعرف أن الرعب، في كل تمظهر من تمظهراته ـ كيفما كان قاسياً أو شنيعاً أو مخجلاً ـ يتظلل و يصير داكناً كل يوم مثل لعنة على كوكبنا المنحوس، لكن أفريقية يبدو أنها عادت إلى مكانها المعتاد بوصفها المختبر لتجاربنا، مكاناً يُجرب فيه الرعب في أغلب الأحيان كارتكاب جرائم نعتبرها في معظمها غير قابلة للتصور في أمكنة أخرى، كما لو أن الجماعات السكانية الأفريقية

قد تم تمييزها عند الولادة لتكون حيوانات مخبرية، بحيث أن كل عنف بالتعريف يمارس ضدها مسموح به، كل تعذيب مبرر، كل جريمة محللة.

إن كثيرين منا مستمرين في اعتقادهم الساذج أن لا الله ولا التاريخ سيحاكمان هذه الفظاعات المرتكبة من قبل البشر ضد البشر. إن المستقبل، الراغب إلى الأبد في أن يقضي بالنوع من العفو العام الممنوح عن طريق النسيان المقنع بوصفه غفراناً، هو أيضاً ميال إلى منح الاعتراف الرسمي، ضمناً أو صراحة، بالحصانة مدى العمر للمؤلفين المباشرين أو غير المباشرين للأفعال الأكثر وحشية ضد الجسد والروح، كلما كان ذلك مناسباً للنظام الاقتصادي أو العسكري أو السياسي الجديد. لذلك فإن من الخطأ أن نرحل إلى المستقبل مهمة جلب المسؤولين عن معاناة ضحايا اليوم إلى المحاكمة لأن هذا المستقبل لن يفشل أيضاً في إنتاج ضحاياه الخاصين به، ولن يقاوم بالقدر نفسه إغراء الإرجاء حتى مستقبل آخر مع ذلك لتلك اللحظة الأبعد والأكثر إدهاشاً للعدالة الكونية، عندما سيحاول الكثيرون منا تبرير أنفسهم بالطريقة الأكثر سهولة ونفاقاً، متنصلين من المسؤوليات التي كانت مسؤولياتنا وحدنا، وهي مسؤولياتنا إلى هذا اليوم. هل إن أي شخص يفهم حقاً إنساناً يعذر نفسه بالقول: «لم أكن أعرف»؟ لذلك، كم سيكون ذلك غير مقبول لنا أكثر أن يقول: «كنت أفضل ألا أعرف»؟ الطريقة التي يعمل بها عالمنا لم تعد الآن اللغز الكامل الذي كانته في الماضي؛ إن حيل الشر قد كشفت أمام الجميع ليروها، والأيدي التي تقوم بالتشغيل ليس لها قفازات كبيرة بما يكفي لحجب بقع الدم. لذلك ينبغي أن يكون من السهل على أي شخص أن يميز بين الصدق والأكاذيب، بين احترام الإنسان لزميله الآخر واحتقاره له، بين الذين هم مع الحياة والذين

ضدها. لسوء الحظ، تكشف الأحداث بصعوبة عن ذلك بشكل مباشر. فالأنانية الشخصية والكسل وانعدام السماحة والأمثلة الصغيرة اليومية على الجبن، كل هذه تساهم في هذا الشكل المهلك من العمى العقلي الذي يقوم على الوجود في العالم وعدم إدراك العالم، أو على رؤية ماهو قادر، في أية لحظة مفترضة، على خدمة مصالحنا الخاصة فقط. في مثل هذه الحالات، يمكننا بالكاد أن نأمل في وجود علامة ما تدل على أن ضميرنا سيصحو ويهزنا بشكل ملح من ذراعنا، سائلاً السؤال «إلى أين أنتم ذاهبون؟ ماذا تفعلون؟ ما الذي يجري برأيكم؟». إن ما نحتاجه هو انبعاث الضمير المحرّر. لكن هل لا زال مثل هذا الشيء ممكناً؟.

12 آب : الرجل الذي كان سيصبح ملكاً

الرجل الذي كان سيصبح ملكاً هو دوم دوارتي دي براغانسا، شخص حسن التعليم بشكل متواضع، بفضل المعلمين المسؤولين عنه منذ الولادة، لكنه مع ذلك يقرف من الأدب عموماً ومما أكتبه خصوصاً، أولاً لأنه يعتبر أن روايتي ***Baltazar & Blimmde*** تهين عائلته، وثانياً لأن العم المذكور هو، وفقاً للرطانة المهذبة لمدعي العرش، «كومة كبيرة من الزبالة». فهو لم يقرأ الكتاب، لكن من الواضح أنه كان يزدريه. لذلك يرجى أن تفهموا أنني طوال هذه السنوات لم أفكر في تضمين دوم دوارتي دي براغانسا، ليكن معلوماً، على قائمتي المختارة للأصدقاء السياسيين. لا يزعجني أن أكون موضوعاً للهجوم العنيف من حين إلى آخر، لكن الفضيلة المسيحية، فضيلة إدارة الخد الآخر للمعتدي، هي ليست من عادتي أن أراعيها. في الحقيقة،إنني أثأر لنفسي في تقييمي لصفته كفكاهي لا إرادي، التي يظهرها ابن أخ الملك

خواو الخامس هذا في كل مرة يفتح فيها فمه. إنني أدين له ببعض الضحكات البطنية الأكثر دلالاً في حياتي الطويلة. ثم انتهى هذا، فقد تم استرجاع الملكية، ويحتاج المرء إلى أن يكون حذرا إلى أقصى درجة لكي لا يتم تحوير هذه الكلمات في مكان آخر، فيعيد إنعاشها المراقب بينا مانيك Pina Maniqu أو المفتش روزا كاساكو. ماذا يعني ذلك، استعادة الملكية؟ سوف يسأل قرائي المشدوهون. نعم يا سيدي الاستعادة، لأن من يمتلك أفضل سبب لقول ذلك سوف يؤكد. (يعني المدعي قيد البحث). ليس معنى ذلك أنه بحاجة من هنا فصاعداً لأن يوصف هكذا، لأن الملكية قد أعيدت إلينا مع ظهور علمها الأزرق والأبيض هناك على شرفة غرفة مجلس لشبونة. إن رجال أرمادا 31 كما يصف أولئك الذين تسلقوا جدران غرفة المجلس أنفسهم ضمنوا مكانهم في تاريخ البرتغال، بالتوازي مع السيدة الخبازة للجوباروتا Aljubarrota[2]، التي لم تقتل قشتالياً واحداً - أو على الأقل في الوقت الراهن هذا موضع خلاف. هذا ليس هو الوضع الراهن. فالعلم بقي هناك لبضع ساعات (هل كان مؤيد للملكية قد تسلل إلى الغرفة لكي يمنع إزالته الفورية؟) في حين بذلت المحاولات بشكل مفترض لتحديد هوية مؤلفي المأثرة، ينتهي ذلك كله، كما يحصل دائماً،

---

[2] وفقاً لطبعة من هذه القصة، كانت بريتز دي ألميدا Brites de Almeida خبازة شريرة وكانت جندية مرتزقة قبل أن تتحول إلى الحياة الهادئة وتقوم بصنع الخبز. عندما غزت إسبانيا البرتغال في عام 1385 شاركت في معركة ألجو بارورا الحاسمة، حيث كانت تسكن. عند العودة من المعركة، التي كسبتها البرتغال، وجدت بابها مغلقاً بشكل مثير للريبة وأمرت الجنود الأسبان السبعة المختبئين فيه بالخروج، وعندما خرجوا سددت لكل منهم ضربة قاتلة برفش الخباز. كما أنها قادت جنود نساء أخريات حول المنطقة لطرد الجنود والمتمردين الأسبان التائهين. ثم عادت لتصبح Padeira مسالمة.

بمهزلة، بتهريج. فدوم دوارتـي لا يمتلك الكاريزما لإلقاء خطابات حماسية إلى الجماهير في ساحة المدينة، الجاهزة والمستعدة لإمداده بتاجه وصولجانه وعرشه.

أي عار أن ينتهي عمل مجيد كهذا بنهاية كهذه. لكن بما أنني، في الصميم، فرد حساس سأختم أيضاً باقتراح من أجل دوم دوارتـي دي بارغانسا. فقد قام بجمع فريق كرة قدم، مؤلف بالكامل من لاعبين مؤيدين للملكية، ومدرب مؤيد للملكية، ومدلك مؤيد للملكية، وكل رجل آخر هو مؤيد للملكية و، حيثما كان ذلك ممكناً، من دم أزرق. يمكنني أن أضمن أنهم إذا فازوا بالدوري، فإن البلد ـ هذه الأرض نعرفها جميعاً بشكل جيد ـ سوف يركع عند قدميه.

13 آب : غواتيمالا

في كل يوم يتضح أكثر للعالم أن مشكلة العدالة ليست العدالة ذاتها، بل مشكلة القضاة. فالعدالة تكمن في القانون، في مجموعة القوانين المدنية، لذلك فإن تطبيقه يجب أن يكون مستقيماً، دقيقاً بشكل كافٍ. كل ما يتطلبه ذلك هو معرفة القراءة والكتابة، وفهم ما هو مكتوب، والقدرة على الإصغاء بتجرد إلى الإفادات من المتَّهم والمتهم ـ بالإضافة إلى شهادات أي شاهد ـ والحكم وفقاً لإملاء الضمير. للفساد ألف وجه، وفي حالة العدالة فإن المفسد الأسوأ هو بمعنى ما طبيعة العلاقة بين القاضي والمحكوم. المثال النموذجي على الانحراف القضائي حصل في وقت متأخر جداً في غواتيمالا حيث حُكم بالسجن لمدة عام على محرر يدعى راؤل فيغويروا سارتي، من دار F& G Editores للنشر، فاستبدل

السجن بغرامة قدرها 25 كويتزال في اليوم ودفع مبلغ قدره 50000 كويتزال زائد كلفة كل الإجراءات القانونية. فماذا كانت طبيعة الجريمة التي ارتكبها راؤل فيغويروا؟ كان قد نشر صورة ضوئية (فوتوغرافية)، بناء على طلب من المؤلف ماردو أرتورو إسكوبار وبمعرفة تامة منه، في كتاب كانت قد أصدرته دار F&G. قدم المتهم مع نسخ من العمل قيد المناقشة. لم يأبه القضاة على الأقل إلى أنه قال إن ماردو إسكوبار قد اعترف بإعطاء الصورة إلى راؤل فيغويروا، الذي كان قد منحه أيضاً تخويلاً شفهياً باستعمالها في الكتاب. ما كان يهم القضاة هو أن المدعي زميلهم: فماردو أرتورو إسكوبار يعمل في محكمة القضايا الجزائية، ما يعني أنه زميل لهؤلاء القضاة والموظفين والمحامين.

مع ذلك فليست هذه حالة بسيطة من حالات الفساد الدنيء. فعلى مدى عامين، كانت دار F& G Editores هدفاً للتحرش، التحرش الذي يجب النظر إليه ضمن إطار الوضع القمعي الذي يسود في غواتيمالا، حيث تُستخدم السلطة الرسمية بشكل روتيني لإسكات الأصوات المخالفة، أي، تلك الأصوات التي تستمر بشكل منتظم وصاخب في شجب انتهاكات حقوق الإنسان في ذاك البلد. وكان يبدو أن التورية القديمة على غواتيمالا التي أصبحت إلى الأبد غواتيبيور Guatepior[3] فيها شيء من الصحة. فالمواطنون الغواتيماليون يجب أن يأملوا في ألا تتحول هذه التورية الجيدة إلى واقع كئيب.

---

[3] اللاحقة الأسبانية mala بالإسبانية تعني «سيء» و Pior تعني «أسوأ» بعبارة أخرى، فإن البلد يسير من سيء إلى أسوأ.

14 آب : جان جيونـو

أتخيل أن جان جيونو غرس أكثـر مـن عـدد قليـل مـن الأشـجار في حياته. وحده الرجل الذي حفر الأرض لينبش جـذراً علـى أمـل تغذيـة شجرة، كان من الممكن أن يكون قد كتـب سـردية فريـدة مثـل **الرجـل الذي غرس الأشجار**، وهي رائعة لا جدال فيها من روائع فـن القـص. من الطبيعي، لكي يحدث شيء كهذا فقد كان من الضـروري أن يكـون جان جيونو قد وجد، لكن هذه المقدمة الأساسية، لحسـن الحظ بالنسبة لنا، هي قبلئذ حقيقة مكرسة ومؤكدة: هذا المؤلف قد وجد، ولم يتبق له سوى أن يكتب العمل. لأجل ذلك كان من الضروري أن يمر الوقت، أن يصل سن الشيخوخة، وأن يظهر هو ويقول، «ها أنا». عندئذ فقط، كما هو مفترض، في السن المتقدم الذي كان جيونو قد وصل إليه آنذاك، كان من الممكن أن يبدع، كما فعل، بـألوان الواقـع المعـاش، تاريخـاً اعتـبر الأكثر تكتماً من بين الجهود التخيلية.

إن إلزيارد بوفيير، غارس الشجر الذي لم يوجد أبداً، هو ليس أكثر من شخصية مرسومة باسـتخدام المكـونين السـحريين للإبـداع الأدبـي ـ الحـبر والورق الذي كتب بهما. بفضل هذين، نتعلم أن نميز هـذه الشخصـية منـذ الإحالة الأولى فصاعداً بوصفه إنساناً كنـا ننتظـره لـزمن طويـل. إن إلزيـارد التخيلي يغرس آلاف الأشجار في جبال الألب الفرنسية، وإلى هـذه الآلاف من خلال فعل الطبيعة المساعد بشكل مناسب، يمكنك أن نضيف الملايـين من الطيور التي سوف تعود إليها، وأعـداد الحيوانـات الـتي تعـود أيضـاً، والتدفق الجاري في مكان عانى في الماضي من الجفـاف. الحقيقـة هـي أننـا جميعاً ننتظر ظهور أي عدد من الإلزياردات بـوفييرات الحقيقيـة. قبـل أن يفوت الأوان، بالنسبة لنا وللعالم.

Ps: دوم دوارتي دي براغانسا دقيق: كان كتابي *الإنجيل وفقاً ليسوع المسيح*، وليس بالتازار وبليموندا، هو ما شجبه لكنه ليس دقيقاً للغاية عندما يقول إنني نسبت فيه أبوة يسوع إلى جندي روماني. لم يؤكد زعمه أحد من ملايين القراء الذين قرأوا الكتاب حتى اليوم. كنت أعرف تلك النظرية، لكنني فكرت، بالرجوع إلى تفسيرات الذوق الجيد، أنني لن استفيد منها في كتابة روايتي. عن طري التعويض، كرست عدداً من الصفحات لحمل يسوع عن طريق يوسف ومريم والديه. اسمحوا لي أن أقترح على دوم دوارتي دي براغانسا أن يقرأ روايتي المسيح. تابع، لا تخجل، تجرأ على المحاولة. أعد بأن ذلك يتحسن مع القراءة.

17 آب: أكتيال

انقضت اثنتا عشر عاماً تقريباً منذ المجزرة في أكتيال، في الجزء الجنوبي الشرقي من ولاية تشياباس المكسيكية في 22 ديسمبر 1997، عندما تجمع أفراد جالية لابيجاس [النحل] من شعب تزوتزيل لأجل الصلاة في كنيستهم الصغيرة المتواضعة، وهي بناء ريفي مؤلف من ألواح خشبية غير مطلية مجمعة بشكل سيء، هبط تسعون مظلياً من القناع الأحمر Mascara Roja، جُلبوا بشكل متعمد وزودوا بالأسلحة النارية والمناجل، شنوا هجوماً دام سبع ساعات. عندما غادروا الموقع، كان قد مات خمس وأربعون رجلاً وامرأة وطفلاً من السكان الأصليين وجرح الكثيرون غيرهم. أما جريمة هؤلاء الضحايا فهي أنهم أيدوا جيش زاباتيستا للتحرير الوطني. على بعد 200 متر فقط كان ثمة مخفر للشرطة، لم تصدر عنه أدنى حركة في اتجاه المجزرة، ولا حتى لرؤية ما كان يحدث. فقد كانوا يعرفون عنها مسبقاً أكثر مما ينبغي. لم نصل أنا وبيلار إلا بعد وقت قصير من ذلك وتكلمنا وبكينا مع بعض الناجين

الذين نجحوا في الهروب. لقد رأينا الآثار التي خلفها الرصاص على جدران الكنيسة والمكان الذي حفرت فيه القبور وصعدنا إلى مدخل كهف على سفح هضبة حيث كان عدد من النساء حاولن الاختباء مع أطفالهن فتم قتلهم، البعض قتل بالمناجل والبعض الآخر بالبنادق الآلية التي كانت تطلق النار من مسافة قريبة جداً. عدنا إلى أكتيال بعد أشهر قليلة وكان لا يزال بمقدورنا أن نشم رائحة الرعب في الجو، لكن العدالة كانت تأخذ مجراها.

إلا أنها في النهاية لم تتحقق. فالمحكمة العليا المكسيكية، التي تزعم وجود أخطاء إجرائية، قضت بإطلاق سراح حوالي عشرين عنصراً من (القناع الأحمر) الذين كانوا قد قضوا فترة الحكم (تخيل فقط) لأجل حمل السلاح بشكل غير قانوني، متجاهلة بشكل متعمد حقيقة أن هذه الأسلحة قد أطلقت النار منها واستعملت للقتل.

برأيي، إن أولئك الذين لا يزالون في السجن لن يمضوا كثيراً من الوقت قبل أن يطلق سراحهم، أيضاً. لكن لا توجد أية طريقة لتحرير - أو التعويض على - الموتى الخمسة والأربعين من قبيلة تزوتزيل، الذين قتلوا بأقصى درجات الوحشية. كتبت منذ أيام قليلة فقط أن المشكلة مع العدالة ليست العدالة نفسها بل القضاة. وأكتيال هي برهان آخر على ذلك.

18 آب : كارلوس باريدس

لم أفكر بذلك من قبل، عندما استمعت إلى كارلوس باريدس وهو يعزف على الغيتار، لكنني وأنا أتذكر موسيقاه اليوم، أدرك أنه مؤلف من أيام البزوغ، جوقة الفجر من عصافير الدوري التي تبشر بالشمس. رغم أننا كان علينا أن ننتظر عقداً آخر من الأمن قبل بزوغ فجر آخر.

فجر الحرية، اللحن الذي لا ينسى لـ Vevdes Años تلك أنشودة الفرح الانتشائي ذات التواقيع النغمية السريعة arpeggios المتداخلة من السوداوية المكتومة إنما غير القابلة للكبت، أصبحت بالنسبة لنا نوعاً من الصلاة العلمانية، نداءً إلى توحيد أمالنا ورغباتنا. وهذا في حد ذاته سيكون شيئاً ما، لكنه ليس كل شيء. الشيء الآخر الذي لا زلنا بحاجة إلى معرفته هو الرجل الذي يمتلك أصابع العبقري، الرجل الذي علمنا أنه من الممكن أن يكون [المرء] جميلاً وقوياً ليعزف على الغيتار والذي، بالإضافة إلى كونه موسيقياً وعازفاً استثنائياً كان مثالاً غير اعتيادي على شخصية ذات بساطة وجلال عظيمين، لم يكن من الضروري أبداً أن تطلب من كارلوس باريدس أن يفتح بوابات قلبه. فقد كانت مفتوحة مسبقاً وإلى الأبد.

19 آب: دم في تشياباس

للدم تاريخه. إنه يجري بلا كلل أو ملل من خلال الداخل المتاهي للجسد، بدون أن يفقد الإحساس أو الاتجاه، يحمر فجأة أو يزيد شحوب الوجه عندما يفر؛ إنه يكاد يبرز في الخدش إلى سطح الجلد، قبل أن يتحول إلى الغطاء الواقي فوق الجرح. إنه يغمر ساحات المعارك وغرف التعذيب، ويحول الطريق الإسفلتي إلى نهر. الدم دليلنا، إنه ينتفخ فينا؛ إننا نغفو على إيقاع دمنا وننهض عليه في الصباح التالي؛ يمكن أن نفقد أو ننقذ من خلال الدم؛ دمنا هو حياتنا، ويمكن أن يكون موتنا. إنه يتحول إلى حليب ليغذي الأطفال في ثدي أمهم؛ إنه يتحول إلى دموع تُذرف على المقتول؛ إنه يتحول إلى تمرد، ويُرفع في قبضته مطبقة تحمل سلاحاً.

الدم يساعد عيوننا على الرؤية، والفهم والحكم؛ يساعد أيدينا على العمل والمداعبة؛ يساعد قدمينا على الذهاب إلى حيث يدعوها الواجب أو يوجهها. الدم ينتمي إلى الرجل والمرأة، سواء كانا يرتديان ثياب الحِداد أم ثياب حضور وليمة، مع الأزهار في حزاميهما.

وعندما يتخذ أسماء لا تنتمي إليه، فذلك لأن هذه الأسماء تنتمي إلى كل أولئك الذين يتقاسمون الدم نفسه. الدم يعرف الكثير؛ الدم يعرف الدم الذي يلده. هناك أوقات يمتطي فيها الدم حصاناً ويدخن غليوناً، أوقات يبرز فيها من العينين اللتين تكونان جافتين لأن الألم جفف القدرة على البكاء. في بعض الأحيان يبتسم بتكشيرة عريضة أو بشفتين مزموتين، وتوجد أوقات أخرى يحجب فيها وجهاً لكنه يسمح بتعرية روح؛ وقت يتوسل فيه الرحمة من جدار أبكم أعمى، أوقات يرسم فيها أشكالاً حذرة على جدران منزل، زمن يحمل فيه طفل نازف بين ذراعين؛ أزمنة يحتل فيها التحديقات الثابتة لهذه الأشكال؛ أوقات يقيد فيها، وأقات يطلق العنان فيها؛ أوقات يصبح فيها عملاقاً لكي يتسلق الجدران؛ أوقات يغلي فيها، أوقات يهدأ فيها، أوقات يكون فيها فرناً يحرق كل ما حوله؛ أوقات يكون فيه شبه نور لطيف، مثل تنهيدة، حلم، رأس يستند في ظل الدم الذي بجانبه ثمة دم يحترق إلى أن يجمد. هذا لنوع من الدم هو خال مثل الأمل ذاته.

20 آب : الحزن

التداعي التلقائي تماماً الذي لا يقاوم للأفكار يدفعني أي دوماً إلى استذكار لوحة *Melancalia* لدورر DÜRER كلما فكرت بعم إدواردو لورنسو. إذا كان Só [فقط / وحده] لأنطونيو نوبر أحزن كتاب سبق أن

كتب في البرتغال، فقد كان علينا مع ذلك أن نتفكر ونتأمل في الحزن الذي يحتويه. عندئذ جاء إدواردو لورنسو، الذي شرح لنا من نحن ولماذا نحن بهذه الطريقة. لقد فتح أعيننا، لكن النور كان قوياً أكثر مما ينبغي بالنسبة لنا. ذاك هو السبب في أننا قررنا أن نغمضهما مرة أخرى.

21 آب : إله ثالث

أرى أن أطروحة هنتنغتون حول «صدام الحضارات»، التي هاجمها البعض ومجدها البعض الآخر منذ أن ظهرت لأول مرة، تستحق الآن دراسة أكثر تدقيقاً وأقل عاطفية. لقد أصبحنا معتادين على فكرة أن الثقافة هي نوع ما من الدواء العام، وأن التبادلات الثقافية هي أفضل سبيل على حل النزاعات.

أنا أقل تفاؤلاً. فأنا أعتقد أن الرغبة الواضحة والفاعلة في السلام فقط يمكنها أن تفتح الباب لهذا التدفق الثقافي المتعدد الاتجاهات، بدون الإرادة في الهيمنة الناشئة عن أي طرف من أطراف. إن الرغبة في السلام قد تكون موجودة، لكن لا توجد وسيلة لتحقيقها.

تستمر المسيحية والإسلام في التصرف مثل شقيقين مغتربين على نحو لا يمكن تسويته عاجزين عن التوصل إلى ميثاق عدم اعتداء طال الأمل فيه يمكنه أن يحقق درجة معينة من السلام إلى العالم. منذ اخترعنا الرب والله، مع كل التبعات الكارثية التي نعرف عنها، ربما كان الحل يكمن في خلق إله ثالث ذي قدرات كافية لإجبار المتمردين بشكل ملح على إلقاء أسلحتهم وترك البشرية في سلام. وعندئذ يمكن لهذا الإله الثالث أن يمن علينا بالانسحاب من المشهد المسيء، حيث تتكشف

المأساة القديمة بشكل مستمر: المخترع، الإنسان، يستعبده اختراعه، الإله.

على كل، الأكثر رجحاناً هو أنه لا يوجد علاج لأي من [المشاكل] المذكورة أعلاه وأن الحضارات سوف تستمر في التصادم، ضد بعضها البعض.

25 آب : القيام بالدور القذر

كنت شاباً وبريئاً كما كنت طوال تلك السنوات الكثيرة، الكثيرة المنصرمة، عندما أقنعني شخص ما بأن استخرج بوليصة تأمين على الحياة، هو بلا شك من النوع الأكثر بدائية الموجود آنذاك في السوق ـ عشرين ريساً سوف تعاد إليّ بعد ذلك بعشرين عاماً إذا توفيت، وبشكل طبيعي بدون أن تكون الشركة ملزمة بتزويدي بأي حساب للربح النهائي من الفائدة الناتجة عن استثماراتي الضئيلة، التي تظل أقل من أن تسمح لي بالمشاركة في العائدات. الويل لي، مع ذلك، لو قصرت في دفع أقساطي للتأمين.

في ذاك الوقت، كانت تلك الريسات العشرين تمثل مبلغاً معتبراً بالنسبة لي؛ فقد كنت بحاجة لن أعمل بكدح لمدة عام تقريباً لأكسب هذا المبلغ، لذلك كنت أتطلع إلى رؤية ربح مجز على تلك المكاسب بالرغم من أنني لم أنجح أبداً في تفادي الشعور الكريه بعدم الثقة الذي أخبرني، بإلحاح، أنني قد خُدعت، حتى رغم أنني لم أكن أعرف بالضبط كيف. في تلك الأيام، لم يكن الحرف الطباعي الصغير المشهور فقط هو الذي خدعنا، حتى الحرف الكبير الذي وصل إلى أكثر قليلاً من حفنة من الغبار المذرور في عيوننا. تلك كانت أزمنة أخرى، عندما كان

الناس العاديون ومن بينهم أنا ـ يعرفون القليل عن الحياة، وحتى هذا القليل كان ذا فائدة قليلة. فمن كان يجرؤ على المجادلة ليس فقط مع الخبير بشؤون التأمين بل أيضاً مع سمسار شركة الاستثمار، أو يدعي أنه محدد المبلغ الواجب دفعه، الذي كان دوماً يمتلك موهبة الثرثرة؟

في هذه الأيام الأمور مختلفة جداً. فقد فقدنا براءتنا ولم نكن نحلم بتجنب نزاع، نتباهى بأقوى القناعات، بما في ذلك تلك القناعات حول موضوعات قد لا نملك سوى أوهى فكرة عنها. فلا تدعوهم يأتونا بعدئذ بقصصهم، لأننا تعلمنا أن نعرفكم جيداً، أيها القناع الشيء السيئ هو أن الأقنعة تتغير وتتغير بشكل هائل، لكن ما يقع تحتها لا يتبدل أبداً. ولا يمكن حتى التسليم بشكل أكيد بأننا قد فقدنا براءتنا. فعندما أعلن باراك أوباما، في خضم حملته الانتخابية، عن إصلاح في قطاع الصحة من شأنه أن يوفر الحماية لـ 46 مليون شخص في الولايات المتحدة المستبعدين من المنظومة التي تؤمن حالياً التغطية للبقية (يقصد أولئك الذين يدفعون، بشكل مباشر أو غير مباشر بوليصات التأمين المختلفة)، أملنا في موجة من الحماس سوف تكتسح الولايات المتحدة. لكن هذا لم يحصل، والآن نعرف جميعاً السبب. أن السيرورات المقرر لها أن تؤدي (أو التي ستؤدي) إلى ترسيخ هذا الإصلاح كانت بالكاد قد بدأت عندما استيقظ التنين النائم. وكما كتب أوغستو مونتيروسو «فإن الديناصور كان لا يزال هناك»[4] لم تكن مجرد مسألة شركات التأمين الأميركية الشمالية الخمسين التي تتحكم بالمنظومة القائمة التي تطلق النار ضد المشروع؛ بل كانت العصابة الكاملة من الشيوخ والممثلين الجمهوريين،

---

[4] هذا هو الجزء الأخير مما تعرف بأقصر قصة سبقت كتابتها (لأنه ليس بشكل واضح بالطبع): «لدى الاستيقاظ كان الديناصور لا يزال هناك»، للمؤلف الغواتيمالي تيتو مونتيروسو (بعد إرنست همنغواي).

إلى جانب عدد لا بأس به من الشيوخ الديمقراطيين وأعضـاء الكـونغرس والنسـاء. الفلسفة الأساسية الحقيقية لتأسيس الولايات المتحـدة لم تكـن أكثر انكشافاً أكثر مما كانت بذلك: إذا لم تكن غنياً، فهو عيبك أنـت. إن ست وأربعين مليون أمريكـي شمـالي لا يملكـون المـال ليـدفعوا ثمـن التأمين الصحي، 46 مليون فقير، كمـا يبـدو، لا يملكـون حتـى مكانـاً ليموتوا فيه. فإلى كم باراك أوباما آخر نحتاج لإغلاق الفضيحة الحالية؟

26 آب : كاتبـان

اسماهما هما رامون لوبو وإنريك غونزالز. مهنتهما هي الصحافة وهما يمارسانها علـى أعلـى مسـتوى مـن أيـة صـحافة يمكنـك أن تجـده في صفحات أية صحيفة. مع ذلك، أفضل أن أنظر إليهما ككاتبين، لـيس لأنني أريد فصل المهنتين وتصنيفهما بشكل هرمي، بل لأن مـا يكتبانـه يعبر عن انفعالات ويعرّف عواطف توجد، في المبدأ على الأقـل، بشـكل طبيعي في الأعمال الأدبية ذات النوعية الراقية. لقد بقيـت أقـرأ رامـون لوبو لسـنوات كـثيرة، لكـن إنريـك غـونزالز هـو اكتشـاف حـديث. إن رامون، كمراسل حربي، يمتلك المقدرة الاستثنائية على وضع كـل كلمـة وفقاً لمصطلحات دلالتها الدقيقة متجنباً الخطابة البلاغية والإثاريـة ـ في خدمة ما يراه ويسمعه ويشعره. يبدو واضحاً للغاية، لكنـه لـيس سـهل التحقق كما يبـدو، والـتمكن الواثـق بشـكل اسـتثنائي مـن اللغـة الـتي يستخدمها هو فقط ما يسمح له بالنجاح. لم أكن قد قرات إنريك غونوالز من قبل. رأيت عموده في صحيفة البايس El Pais، لكن فضولي لم يكن قوياً بما يكفي لأن يقودني إلى تضمين مجمل أعماله في قراءتي اليوميـة. على الأقل، حتى اليوم الذي وجدت نفسـي فيه مـع كتابـه **قصـص مـن**

نيويورك Stories of New York في يدي. إن كلمة «مبهر» لن تكون مبالغة. إن الكتب التي تدور حول المدن تكاد تكون مألوفة مثل النجوم في السماء، لكن على حد علمي، لا يوجد كتاب آخر يشبه هذا الكتاب. كنت أظن أنني أعرف مانهاتن وما يحيط بها جيداً بشكل معقول، لكن أتضح مدى خطأي منذ الصفحات الأولى لكتابه. قليلة هي التجارب الأدبية التي منحتني مثل هذا القدر من المتعة في السنوات الأخيرة. اعتبروا هذا النص الموجز تقديراً للصحفيين الاستثنائيين اللذان هما، في الوقت نفسه، كاتبان جديران بالتقدير.

27 آب : الجمهوريـة

كان ذلك منذ حوالي مئة عام، في 5 تشرين الأول / اكتوبر ، 1910، عندما اندلعت ثورة في البرتغال أطاحت بالملكية القديمة والمنهارة وأعلنت قيام جمهورية بقية حية إلى اليوم بين القرارات والأخطاء، بين الوعود والإخفاقات، وعن طريق حوالي خمسين عاماً من الدكتاتورية الفاشية ومع كل الآلام والإذلالات التي فرضتها. في أثناء المواجهات المشمولة، قتل ست وسبعون شخصاً ـ جنوداً ومدنيين ـ وجرح 364. ثمة حدث واحد في هذه الثورة في بلد صغير على الطرف الغربي الأقصى من أوروبا، الذي تراكم عليه غبار قرن من الزمن الآن، صدف أن استوطن في ذاكرتي ـ شيء قرأته منذ زمن طويل ولا يمكن أن يقاوم إعادته إلى الذهن. كان ثورياً مدنياً، جرح جرحاً قاتلاً، وكان في نزعه الأخير في شارع قرب بناية على الروسيو، الساحة الرئيسية في لشبونة. كان وحده، وكان يعرف أنه لا أمل له في النجاة، لأنه لم تتجرأ سيارة إسعاف على التوقف والتقاطه، لأن النيران المعترضة

منعت الوصول الآمن لأية خدمات طوارئ. لذلك فإن هذا الرجل المتواضع، الذي اسمه على حد علمي، لم يدونه التاريخ، كتب بأصابع مرتعشة ـ وهو يكاد يغمى عليه ويسقط وهو يفعل ذلك ـ على جدار بدمه، مستعملاً الدم المتدفق من جروحه: **عاشت الجمهورية!**

كتب كلمة جمهورية ومات، وهذه الكلمة قالت، بنفس القدر كما لو أنه قد كتبها أيضاً: الأمل، المستقبل، السلام. لم يترك أية وصية أو شهادة أخرى، لم يترك أية ثروات للعالم، بل كلمة واحدة فقط كانت بالنسبة له، في تلك اللحظة من الزمن، ربما تدل على الكرامة، وهي شيء لا يمكن للمرء أن يبيعه ولا أن يسمح للآخرين بأن يشتروه، وهي أعظم شيء يمكن للكائن البشري أن يمتلكه.

28 آب : الكاربورتور [المفحم]

لقد انقضى الآن أكثر من ستين عاماً منذ أن تعلمت قيادة السيارة. كنت أعرف جيداً، في تلك الأزمنة البعيدة، كيف كانت تقوم تلك الآلات القوية في حالتي العمل والراحة بوظائفها. فكنت أفك وأعيد تجميع محركاتها؛ وأنظف مفحماتها، وأعير صماماتها وأتفحص مسنناتها التفاضلية وأبدل علب السرعة فيها، واستبدل دعسات الفرامل وأجدد الأطر الداخلية لعجلاتها ـ باختصار، تحت الحماية المحفوفة بالمخاطر لأفرولاتي الزرقاء، التي كانت تمنحني الحماية التي تستطيعها من طرطشات الزيت، نجحت في أن أؤدي بنجاح معقول أي عملية يمكن أن تجبر سيارة أو شاحنة على الخضوع لها من اللحظة التي تدخل فيها إلى المرآب من أجل الفحص، الميكانيكي أو الكهربائي أو من أي نوع آخر. كل ما كنت أحتاج القيام به هو أن أجلس ذات يوم

خلف المقود وأتلقى الدروس العملية من مدرب القيادة، والتي كان من المفترض أن تتوج بفحص وشهادة طال انتظارها. تخولني الدخول إلى النظام الاجتماعي المتزايد يومياً من سائقي المحركات المجازين. على كل، هذا اليوم الرائع لم يصل أبداً. لم تكن هذه فقط هي مسألة التركة التيً خلفتها رضوض الطفولة التي تشرط هوية البالغ وتؤثر عليها، لأن تلك المعاناة أثناء المراهقة يمكن أن تكون لها تبعات كارثية، و، كما حدث في الحالة الراهنة، وتقرر بشكل جذري وسلبي العلاقة المستقبلية لضحية الرض بشيء ما بوصفه يومياً ومبتذلاً مثل عربة ذات محرك. لدي مبررات قوية للاعتقاد بأنني الحصيلة البائسة لرض كهذا تماماً. علاوة على ذلك، أرغب في أن أضيف إنه، مهما قد يبدو هذا الشيء مفارقاً بالنسبة لأولئك الذين تبدو لهم الصلة بين السبب والنتيجة مثل مفهوم بدائي كلياً، لو لم أقض الأعوام الخضراء من شبابي أعمل كحداد وميكانيكي في مرآب، لكان من المحتمل اليوم أن أعرف كيف أقود سيارة، ولكنت سائقاً فخوراً بدلاً من أكون أحد القادين الذليلين.

علاوة على الأشغال التي ذكرتها في البداية، وكجزء إلزامي من بعضها، كنت أيضاً سأغير الكاربوراتور، أعني تلك الصفائح الرقيقة المبطنة بورق النحاس، والتي بدونها سيكون من المستحيل منع تسربات المزيج الغازي للهواء والاحتراق بين رأس المحرك وكتلة الاسطوانات (السيلندرات) (إذا كانت اللغة التي استخدمها تبدو عتيقة بشكل مضحك لأولئك الذي لا يفهمون سوى السيارات الحديثة، التي تتحكم بها الحواسيب أكثر مما تتحكم بها أدمغة سائقيها، فهذا ليس غلطي: أنا أتكلم عما أعرف، لا عما لا أعرف، وستكونون محظوظين بالفعل إذا لم أشرع في وصف عجلات العربة الخشبية وأفضل الطرق لتسخير حيوانات الجر تحت النير. إن الموضوع الذي كنت امتلك فيه درجة من الكفاءة هو

عتيق بالقدر نفسه). ذات يوم وقد أكملت عملي وأعدت المحرك إلى مكانه، وحشدت القوة الكاملة لعوامي التسعة عشر لحل العزقات التي تصل رأس المحرك إلى الكتلة. شرعت في إنجاز الطور الأخير من العملية، أعني به ملء الرادياتور من صفيحة سقاية قديمة كنت قد ملأتها في المرآب لأجل هذا الغرض أو لغرض مشابه. والرادياتور هو إناء، له سعة محدودة ولا يمكن أن يتسع لميليمتر واحد أكثر من الكمية الدقيقة من الماء المصمم لأجلها. إن أية كمية زائدة من الماء تستمر في سكبها فيه سوف تفيض فوق الحواف. لن شيئاً غريباً كان يحدث مع هذا الرادياتور: فالماء كان ينزل ويغور، وكلما سكبت فيه من الماء، قلت (البقبقة) عند شفة الفتحة؛ وهي العلامة الوحيدة على أن عملية الامتلاء قاربت على الاكتمال. فالماء الذي كنت قد سكبته في البلعوم الذي لا يشبع في الأسف لا بد أنه كان كافياً لإشباع راديـاتورين أو ثلاثة راديـاتورات كبيرة الجذع، ومع ذلك فقد اختفى بلا أثر.

في بعض الأحيان أفكر اليوم، بعد ستين سنة أو أكثر، أنني لا زلت أحاول ملء نفق الدنائيين Danaides ذاك لو لم ألتقط في النهاية صوت الماء المندفع بغزارة، بالأحرى كما لو أن شلالاً صغيراً كان قد ظهر داخل المرآب. ذهبت لألقي نظرة. من أنبوب عادم السيارة كانت تخرج نافورة كبيرة من الماء تلاشت في الحجم تدريجياً تحت نظر عيني المذهولتين على عدد قليل من القطرات النهائية والسوداوية. فما الذي كان يحدث؟ فقد كنت قد وصلت الراديـاتور بشكل سيء، عاصراً رأس المحرك التي كان من المفروض أن تترك مفتوحة و، حتى بشكل أخطر بكثير حتى من ذلك كله، فاتحاً المسالك التي لا ينبغي أن يكون فيها أية مسالك.

لم أتبين أبداً ما هي الحركات التي نجحت في القيام بها للوصول إلى الماء التعيس لأجد تصريفاً له عبر أنبوب العادم. ولا أرغب في أن يُحكى لي كيف. فالعار جسيم بما يكفي كما هو ربما ذاك كان اليوم الذي فكرت فيه نفسي أن أصير كاتباً. إنها سيرة نكون فيها في الوقت نفسه محركاً، وماءً ومقوداً، ومقياساً للسرعة وأنبوب عادم. ربما، في النهاية، كان الرض يستحق ذلك رغم كل شيء.

31 آب : الوداع

يقول الشعار إن كل الأشياء، الجيدة والسيئة، لا بد أن تمر، وهو ما ينطبق مثل القفاز على العمل الذي ينتهي هنا والشخص الذي قام به. قد تجد شيئاً جيداً في هذه المواقع، وعلى ذلك أهنئ نفسي، بدون غرور؛ وقد يصادف آخرون شيئاً سيئاً، ومن أجل هذا أعتذر - لكن فقط عن عدم كوني قد كتبت عن مواضيع معينة أفضل، وليس من أجل كوني قد فشلت عن مواضيع مختلفة، بما أن ذلك، إذا عذرتموني على قول ذلك، لم يكن خياراً أبداً. فالوداعات تكون دائماً الأفضل عندما تؤدى باختصار، إذ لا توجد aperia aria يمكن فيها الآن إدخال وداع ، مطول، addio. مع ذلك، وداعاً حتى يوم آخر؟ أنا لا أعتقد ذلك بصدق. لقد بدأت كتاباً آخر وأرغب في تكريس كل وقتي له. سترون لماذا، إذا سار كل شيء بشكل جيد. في هذه الأثناء، ستنالون كتابي *قابيين* Cain.

خاطرة ثانية، لا حاجة لأن أكون قاسياً هكذا. إذا شعرت في يوم أو آخر بالحاجة للتعليق أو التعبير عن رأيي في شيء ما أو آخر، فيمكنني أن أجيء وأشق طريقاً إلى المفكرة، ذاك المكان الذي يمكنني فيه أكثر من أي مكان آخر التعبير عن نفسي وفقاً لرغباتي.



الفهرس

يضم هذا الكتاب بين دفتيه مذكرات العام الأخير من حياة جوزيه ساراماغو الروائي والمسرحي والصحفي البرتغالي الحائز على جائزة نوبل في الآداب. مؤلف رواية \العمى\ التي ترجمت إلى معظم اللغات العالمية ومنها العربية. والتي كرسته كواحدا من أكثر مثقفي العالم شهرة وذلك قبل وفاته في عام 2010.

تغطي هذه المذكرات الفترة الممتدة من أيلول 2008 إلى آب 2009 وفيها نجد ساراماغو شاهدا على أهم الأحداث المعاصرة ومنتقدا لأبرز الشخصيات العالمية مثل برلوسكوني وجورج بوش وأوباما والبابا وغيرهم. وفي المقابل لا يبخل في التعبير عن تقديره لشخصيات مثل محمود درويش وجورج أمادو وغويتسولو وغيرهم من الكتاب والمفكرين.

يفتتح ساراماغو مذكراته بالحديث عن مدينته المحبوبة لشبونة ويصور الحياة فيها في الماضي والحاضر. ويستعيد حوارات مع الأصدقاء ويتأمل في المؤلفين المفضلين لديه. ويقدم لنا ملاحظاته الدقيقة ورصده للحظات ذات أهمية كبيرة. التي يظهر فيها ناقدا لاذعا لا يعرف المساومة. فهو يشرح الأزمة المالية والاقتصادية التي يعاني منها العالم ويتطرق إلى الأزمة البيئية ويستنكر قصف إسرائيل لغزة في عدوان 2008 ويتابع التحقيقات الجارية في مصير ضحايا الحرب الأهلية الاسبانية وضحايا الدكتاتورية في الأرجنتين وغيرها من القضايا الساخنة.

\المفكرة\ رحلة فريدة في العالم الشخصي والسياسي لأحد أعظم كتاب عصرنا. إنه كتاب استفزازي وشاعري بآن معا.

